

أبي بن

مقارنة بين
ماضينا و حاضرا

الجزء الخامس

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

ح) عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤١٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله .

أي بني... مقارنة بين ماضينا وحاضرنا . - الرياض .

٢٢٨ ص: ١٦ × ٢٣ سم (الجزء الخامس)

ردمك : ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

١- السعودية - العادات والتقاليد

٢- السعودية - المأثورات الشعبية .

٣- السعودية - الأدب الشعبي

أ- العنوان

١٦/٢٣٢١

ديوي ٣٩٠،٩٥٣١

رقم الإيداع: ١٦/٢٣٢١

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٤٨ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الرياض - الطبعة الثالثة

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

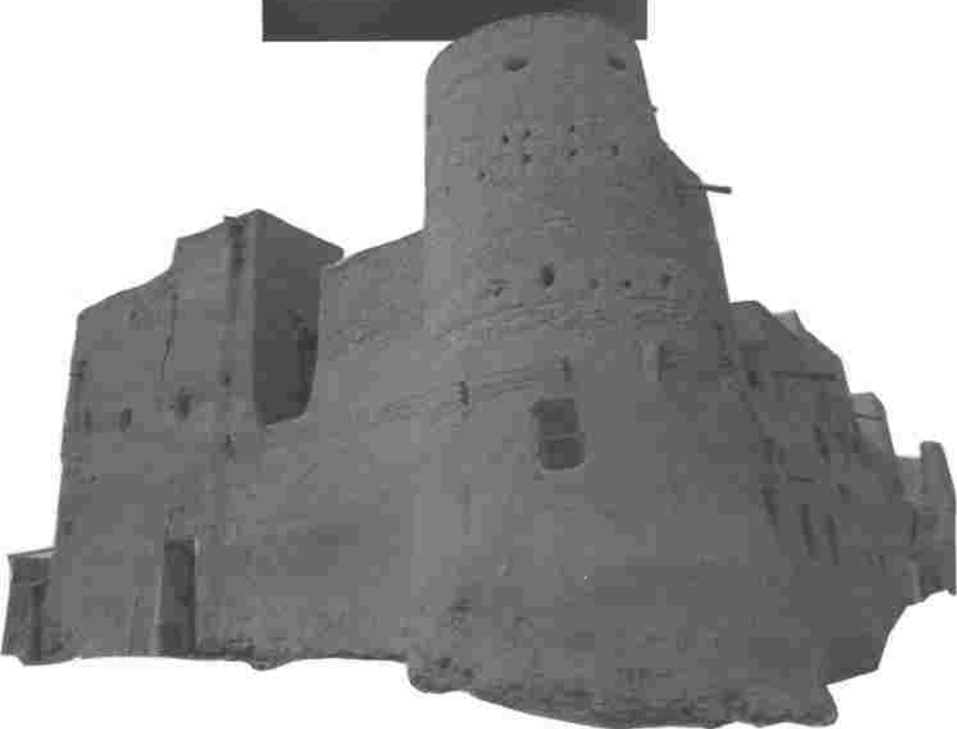
يطلب من مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٧ ٦٢٨٠ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ١٢٩ ٤٦٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





مقدمة

يسر الله - سبحانه وتعالى - ومنّ بإكمال الجزء الخامس هذا من كتاب «أي بني»، فجاء حاملاً الرسالة التي حملتها الأجزاء الأربعة السابقة، محتفظاً بالفكرة والخطّة، والمنهج المتبع فيها جميعاً، وإذا كان فيه اختلاف عنها فهو اقتصاره على التأكيد على ما حمّد فيها، والتركيز على ما وُجد مقبولا منها، واستيفاء جوانب عقد السلسلة بها، والتّمام شملها بمتابعتها وتقصّيها.

لقد احتوى هذا الجزء على ثلاثة أقسام: القسم الأول جاء في صور كانت موجودة منذ نصف قرن أو ثلثه، ثم اختفت كلية أو بهتت، أو تطورت إلى ما يناسب العصر، ففقدت جلّ مظهرها، ولم تحتفظ إلا بما تحتفظ به الديار من رسوم دوارس في عرصاتها وقيعانها، أصبحت تلوح - كما يقول الشاعر الجاهلي - كباقي الوشم في ظاهر اليد، ولكنها بقيت واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار في مخيلة

أبناء جيلها ، تستيقظ في غيبتهم عند أدنى ذكر أو تذكّر ، وعند أول مناسبة مما يجعل أبناء الجيل يتميّزون عن الجيل التالي بأن ما يرونه يعرفون أصله ، ومنبته ، ويعرفون مراحل اختفائه وتطوره ، وهي ميزة يريد هذا الكتاب ألا يحرم هذا الجيل منها ؛ لأنها تعطيه فرصة للربط ، وإرجاع الأمور إلى أسسها ، ومعرفة تاريخها ، وما يكمن خلف ما بقي منها . والمرء مغرم باستدعاء الذكريات ، وله بهذا التذاذ ، وفيه إليه حنين ، وعنده به شغف .

والقسم الثاني - وله صلة وثيقة بالأول - قد جاء مركزاً على أمر واحد ، هو القضاء ، وكانت النية أن يقتصر على الصورة المبسّطة التي كان عليها في أول هذا القرن ، على أساس أن هذه الصورة اختفت باختفاء حياة الناس البسيطة ، ولكن ازدهار روض هذا الموضوع أغرى بالتوسع ، ومقارنة هذه البساطة ببساطة الأمر في أيام الرسول - ﷺ - وفي أيام الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - ثم مقارنة ما طرأ على الناس اليوم ، واتساع المجتمع ،



وتشعب الاتصال والاختلاط ، بما حدث عندما انداحت رقعة المملكة الإسلامية في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين ، مما تطلب تنظيم القضاء بما يتماشى مع التطور الكائن ، فأصبح لهذا التنظيم مظاهره من إيجاد أماكن للتقاضي ، ومساعددين للقضاة ، وسجلات ومرتبات ، وأنواع من الرزق ، واحتاجت الأحوال إلى ذكاء يكشف الحيل ، ويقرّ الحقوق ، واقتضت الأمور حسن اختيار في التعيين ، والقبول والتأبّي والاجبار ، وقد تخلّل هذا كله من الطرائف التي يعرضها الكتاب ما يكشف عن كثير من الجوانب في شأن القضاء .

أما القسم الثالث فقد جاء مختلفاً وهو عن الشاهي والقهوة . ولم يبعد هذا الموضوع عن الهدف العام للكتاب ، فقد خاطب الناس عن طريق هذا العنوان في بعض الأمور التي تفيد الناشئ ، وتذكر في الوقت نفسه أبناء جيلنا . والحقيقة أن هذا الموضوع كان مكانه الجزء الرابع ، إلا أن اكتمال صفحات ذلك الجزء أحاله إلى هذا الجزء الخامس



الذي نقدمه الآن بين يدي القراء .

هذه هي خريطة هذا الجزء ، وأرجو أن يجد مكانه إلى جانب الأجزاء الأخرى في مكتبات القارئ ، وأرجو - كما أملت في الماضي - أن تكون هذه السلسلة محرّكة لكتاب آخرين في مناطق أخرى في المملكة ، ليكتبوا في مثل مواضيعه ، وبما هو خير منه وأوفى ، وما هو إلا بداية طريق طويل لا تكمل تمهيدته إلا الأيدي القادرة المتكاثفة .

وأسأل الله التوفيق والنفع ، إنه جواد كريم .

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر



صور اختلفت

أي بني !

أجل كانت هناك أمور بالأمس ملء السمع والبصر . كانت شغل الناس الشاغل ، وكانت واجهة حياتهم ، فأداتها الأيام ، وطوتها السنون ، وكُرُّ الشهور ، وأخنى عليها الزمن ، ومحأها مرور الوقت ، وتعاقبُ العصور والأجيال ، واختلافُ الدَّهور ، وتغيُّرُ الأحوال ، بإذن من وضع للكون نظاماً لا يختل ، وترتيباً لا يهتزُّ ؛ يسير الكون بإرادته - سبحانه وتعالى - ويتحرك بقدرته - جل وعلا - ولم يبق من هذه الصور القديمة إلا رسم باهت ، أو صدى ضعيف متقطع ، أو اشعاع ضئيل ، ذبالبته أضعف من أن تنير طريقه إلى تصور الناس له تصوراً كاملاً ، فبقي يلوح في مخيلة بعض من عاصر ذاك الزمن ، أو في تصور من سمع عنه ، وقد ضعف بضعف ذاكرة من بقي من أهله ، أو قصور ذهن من صور له . وتراكت على ما وجد

منه في الذاكرة صور جديدة طمسته طمساً تاماً ، أو حجبته بغلالة رقيقة ، أو حفرت فوق جواده القديمة طريقاً جديدة . وأصبح أغرب من الجمل في زمن السيّارة والطّيّارة ، ومن بيت الطين عند العمارة والبناء الاسمّتي « المسلح » ، ومن الكتاب أمام المدارس الحديثة .

في زمن مضى - يا بني - ليس ببعيد ، كان هناك منظر مألوف ، وصورة معروفة تكاد تكون جزءاً من حياة الناس اليومية : فعند صلوات الجماعة ، ترى رجلاً أو غلاماً ، قد وقف عند باب المسجد ، يتصدّى للناس عند دخولهم للصلاة ، أو خروجهم منها ، ويده إناء فيه ماء ، أو مجموعة من التّمر ، أو حزمة قت (برسيم) يرفع يده بأحد هذه الأشياء ، ليقرأ فيها المصلون أو عليها ، فبعضهم يقرأ بعض الآيات القرآنية ، ويتلو بعض الأدعية التي فيها طلب للشفاء ، واستنزال العافية ، ورفع المرض ؛ ينفث هذا نفثاً أو ينفخ نفخاً ، وبعضهم يجتهد في ألا يقصر ، فيرش بعض رذاذ من ريقه . ثم يؤخذ



هذا الماء بعد ذلك ، أو هذه التميرات ، أو حزمة
القت ، حيث المريض : إنساناً كان أو حيواناً ، فالماء
والتمر للإنسان ، والبرسيم للبقرة أو العنز ،
والقراءة لأي مرض ، خاصة إذا كان مجهول
التشخيص ، وفي الغالب يُعطى هذا للمريض
مرضاً نفسياً ، أو حسب تعبير الناس في ذلك
الزمن : يعطى للذي معه « ضيقة صدر » أو
« وَحْشَة » . أما البرسيم فيعطى للبقرة أو للعنز إذا
قل حليبها من غير سبب ظاهر ، أو ساء سلوكها
فجأة ، فأصبحت « تصقل » حالها ، أي تضربه
برجلها ، ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، فيجزم
أصحابها أن عيناً قد أصابتها ولو عرفوا عائنها لكان
الأمر ، ولكنهم لما لم يعرفوه لجؤوا إلى القراءة ، وفيها
الشفاء بإذن الله - تعالى - .

وأحياناً يظهر سوء سلوكها في أنها تصبح منّانة ،
فلا تحلب إلا إذا وضع أمامها علف يكفي فترة
الحلب كلها . وربما كانت منذ أول ولادة لها
لا تحلب إلا إذا قدمت لها وجبة ، تلهيها عن

حالبها ، وتتسبب في إدرارها ، وهذه الوجبة تسمى عندهم «الوقافة» ولا بد أن هذا الاسم قد جاء من مادة الوقوف ، والإيقاف ، أي سكون حركة البقرة ، وهذوء رجلها عن الرفس أو الأذى ، حتى يتم حلبها .

والناس يتحدثون - يا بني - في إحدى المدن في نجد عن «وقافة» مبتدعة طريفة ، لجأ إليها أحد الأذكىاء ، ليتفادى ارتفاع النفقة على البقرة باطعامها في غير وقت اطعامها برسياً في كل حلبة ، وهو علف غال مكلف ، وليصل الحالب إلى هدفه في تهدئتها أثناء الحلب بأرخص ثمن ، عمد هذا الرجل إلى كمية جيدة من التمر ، «فعبطها» وعجنها ، ثم خلط معها خيوطاً من الصوف والشعر ، وعرضها للشمس ، ثم أعاد عجنها ، ثم أعادها للشمس ، وفعل هذا عدة مرات ، حتى أصبحت في صلابتها كالبحر ، ثم إنه كان يضعها أمام البقرة عند حلبها ، فيلهيها بها ، فتبقى واقفة هادئة ، وهي تلحسها ، حتى ينتهي الحالب أو



الحالبة من حلبها ، ثم يبعدها عنها ويحفظها ،
ويدخرها لوقت الحلبة التالية . وربما استمرت
الاستفادة منها اثنتي عشرة سنة لهذه البقرة ولغيرها .

وقياساً على هذا الذكاء تروى عن هذا المفكر
المخترع رواية قد تكون موضوعاً ، وليست حقيقة ،
ولكنها الآن تتداول لطرافتها : يقال إنه اشترى
نظارة خضراء يلبسها البقرة عند حلبها ، حتى تظن
أن التبن الذي يوضح أمامها برسيم . ومع أن أثر
الافتعال على هذه القصة ظاهر إلا أنها بقيت حية
لطرافتها .

وهناك أمر - يابني - يخص «الوقافة» يحسن أن
تعرفه ، لأنه رئيس في هذا المجال : إذا ولدت البقرة
في البيت ، فإن كان ما ولدته أنثى (عجلة) أبقوها ،
واعتنوا بها ، وإن كان ذكراً (عجلاً) سارع
أصحاب البقرة إلى ذبحه ، والاستفادة من لحمه ،
ومن لبناء أمه ، وهو حليب أول حلبة بعد الولادة ،
وله طعم خاص ، وطريقة طبخ خاصة ، إذا وضع
على النار وغلي أصبح ثخيناً متقطعاً يشبه ما يسمى



اليوم «الشكشوكة» ، وهي - كما تعرف - خلطة من البيض والطماطم ، تطبخ على نار هادئة حتى تتقطع .

ولكي يقلل أصحاب البقرة من ألم البقرة لفقدائها ولدها ، فإنهم يسارعون بعد الولادة مباشرة إلى إبعاد ولدها عنها ، حتى لا «ترومه» فتتعلق به ، فتزعجهم بالحوار ، ولا تعطي لبنها طوعاً . ويعمد الناس إلى عمل «بوّ» من جلده ، يحشونه تبناً ، ويوقفونه أمامها عند حلبها ، فيقنعها منظره هذا . ويمكن أن يعتبر «البوّ» على هذا «وقافة» .

ونعود - يا بني - مرة أخرى إلى الماء المقروء فيه ، أو البرسيم ، فنقول : إنه غالباً مايكون أهل المريض ، أو أصحاب البقرة المريضة ، قد اعتقدوا أن هناك من أصاب مريضهم أو بقرتهم بالعين ؛ وأهل الحي معروفون ، وعددهم محدود ، وكلهم يصلي الفروض في المسجد ، فإذا ضمنوا أن كل واحد منهم قد نفث في الماء أو على البرسيم ، ضمنوا ارتفاع العين عن المريض بإذن الله . والكلمات التي



عادة يتلفظ بها القارئون في الماء هي : « باسم الله الشافي ، باسم الله الكافي ، باسم الله المعافي » . وقد لا تكون العين هي ما يعتقده أهل المريض في مريضهم ، فيكون عملهم هذا رغبة منهم في أن تكون لإحدى هذه الدعوات المخلصة استجابة ، يبرأ على أثرها المريض .

وأذكر - يا بني - فرحة بعض الأولاد بالنافثين الذين يطيلون القراءة ، ويكثرون الدعاء ، ليس فقط أملاً في الدعاء أن يستجاب ، ولكن أيضاً اعترافاً بما أبدوه من عناية ، وما أعطوه من اعتبار لهذا الواقف ، والطفل ينقل يده بسرعة واقتدار من فم هذا إلى فم ذاك . بادئاً بأبعد الناس إليه ، حائلاً بين الأقرب وبين المرور ، وهو مثل المكوك بين دفتي باب المسجد ، متخذاً منه مضيقاً يضمن عن طريقه أن لا يفوته أحد ، خاصة عند أول خروج المصلين من المسجد ، وتزاحمهم على الخروج . ولا يعرف - يا بني - مدى هذا العناء إلا من جربه . ومن أهم ما يشغل ذهن الصغير هو ألا يفوته أحد ،

خاصة بعض الناس الذين يشك في أنهم من العائنين . والعائنون يعلمون هذا ، ولهذا يتفادون النفث حتى لا تصدق التهمة عليهم ، أو يفعلون ذلك مكرراً وكيداً وإغاظَةً للصبي وأهله ، فيصر الطفل على نفثهم في الماء ، ويلاحقهم إلى منتصف الشارع ، فلا يجدون بداً من الاستسلام ، مع ابتسامة تكون إقراراً بانتصار الطفل ، أو إقراراً بانتصار الرجل على الصبي ، إذ استطاع المطارد أن يخرج الصبي من التستر الذي يُخفى به حرصه على هذا الرجل بعينه إلى ما يبرهن أنه فعلاً حريص عليه .

وهناك - يا بني - أشخاص فقراء خيرّون ، معروفون في الأحياء ، بحبهم للمساعدة والعون ، يكلفهم المحتاج أن يقوموا بمهمة أخذ الإئاء أو البرسيم للمسجد ، والوقوف عند بابه لتلقف المصلين ، وتراهم دائماً في هذا المسجد أو ذاك ، يدهم ممدودة ، ووجوههم باسمّة . وإذا كلفهم الغني بهذه المهمّة كافأهم فيما بعد عليها ، وإن



كلّهم فقيرٌ احتسبوا الأجر عند الله ، وأكبر مكافأة لهم أن يروا المريض يشفى . ومكافأة الغني للفقير هذا تميزات معدودات ، أو وجبة مجزية ، أو قرص «كليجا»^(١) للصغير أو «معمول»^(٢) أو جزء من خبزة تنور يطير بها من الفرّح .

ولكن - يا بني - الفرحة الكبرى في نظر الصبي هي عندما ينهي مهمته ، ويعود إلى الشارع مع زملائه يلهو ويلعب ؛ لهذا فبعض الأطفال لا يتابع جميع المصلين ، ويكتفي بأن يُري نفسه واقفاً عند باب المسجد دقائق معدودات فلا يطيل ولا يستقصي ، ويده تدور بين الأفواه القريبة منه ، وعينه على الشارع ، وذهنه مع أقرانه واللعب المنتظر ، أو الذي فاته جزء منه . ويكفي أن الصلاة أخذت منه وقتاً لا بد من أخذه منه ، وإذا كان هذا الصبي لا يحرص عادة على أداء السنّة بعد الفرض ،

(١) نوع من البسكويت الوطني مصنوع من القمح والبيض والسمن وقليل من السكر ، مدور ومفرطح منقوش .

(٢) نوع من البسكويت الوطني مصنوع من القمح والسكر مطوي ، فيه طول .



فقد أخذ منه هذا الوعاء من الماء ، أو هذه الحزمة من القوت ، ما لم يأخذه أداء السنّة من وقت .

على أن هذا الأمر - يا بني - وهو القراءة في الإناء ، لا يخلو من بعض الطرائف التي أصبحت تتناقل ، ويتندر بها . يحكى أن أحد الرجال الذين ذهبوا من نجد ، وهم صغار ، وعاشوا فترة طويلة في البلقاء في الشام ، رجع إلى مدينته في القصيم ، ودخل وصلى في المسجد ، وفي إحدى المرات ، عند خروجه من المسجد ، وجد صبياً يرفع أمام وجهه طويسة فيها ماء عذب نمير ، وكان الوقت صيفاً ، والجو حاراً ، والرجل ظمّاناً ، فأخذ الطويسة ، وعبّ ما فيها حتى الثمالة ، «قرطوعاً» «قرطوعاً» ، والطفل ينظر إليه مشدوهاً ، حائراً لا يصدق عينيه .

وقصة أخرى قريبة من هذه ، إلا أن ما أقدم عليه بطلها لم يكن بسبب جهله ، ولكن الجوع حمله على ما فعل :

وقف صبي بيده قطعة من التمر المعجون ، يمد بها يده أمام كل خارج من المسجد بعد



الصلاة ، ليقراً فيها ، واستمر الأمر يسير على هذا النحو ، إلى أن أخذ التمر رجل ممن رفعت له عجنته ، وظن الصبي أن الرجل سيقراً فيها ، ولدهشته واستغرابه رآه يزدردوها دفعة واحدة ، ويحمد الله ، ويدعو للمريض ، قبل أن تتعدى اللقمة حلقه ، وتنحدر إلى معدته ، لا تلوي على شيء ، حتى تستقر بها ، كأنها صخرة حطّها السيل من عل . وراحت فرحاً بها مُزْدَرْدُها ، آسفاً عليها فاقْدُها . ولعل الطفل لم يشعر بفقده التمر بمثل شعوره بفقده الجهد الذي بذله في جمع القراءة عليها .

وأهل الطفل لا بد أنه اختلط عندهم شعور الأسى بشعور الفكاهة أمام هذا المنظر المفاجئ ، والحادث الذي جاء مخالفاً للعادة . على أي حال بقي هذا الأمر يُتداول في المجالس باستطراف ، فترة غير قصيرة ، وفي مثل هذا المجتمع الصغير تروج مثل هذه الأحاديث ، ويطول تردادها ، وهذا الحدث

الطريف قد وصل إليّ في وقته ، واختزنه سنوات قد
تصل إلى خمسين . وها أنذا - يا بني - أسلمك إياه .
والله أعلم إلى متى سيبقى ، وكم من الناس سوف
يسمعه بعد الآن . ولو كان هناك إحصاء للقراء
لعرفنا منه مقدار دورته ، وسريانه ، وعدد قرائه .
وقد ذكرني الإحصاء بالقصة الآتية :

قال الأصمعي ، والأصمعي - يا بني - صاحب
أخبار طريفة ، لا أدري إذا كان فعلاً قد قالها
لطرفتها ، أو أن مخترعها أراد أن يعلقها على
مشجب مشهور حتى تنتشر وتعرف ، وما وجد
أفضل من الأصمعي :

« رأيت رجلاً قاعداً في زمن الطاعون ،
يعد الموتى في كوز ، فعَدَّ في أول يوم عشرين
ومئة ألف . وعد في اليوم التالي خمسين ألفاً
ومئة ألف . فمرّ قوم بميتهم ، وهو يعد ، فلما
رجعوا إذا عند الكوز غيره ، فسألوا عنه ،
فقال : هو في الكوز » .^(١)

(١) أخبار الظراف ١١٧ .



وقد مرت - يا بني - كلمة العين في أثناء كلامنا ،
والعين لها شأن كبير في مجتمعنا فلا تكاد تجلس في
مجلس إلا وينعطف الحديث بسرعة فائقة إلى العين ،
وما تصيب به ، ومن تصيب ، وكيف تصيب ، ومن
هم أشهر العائنين ، وأسلوبهم في تسديد سهم العين
وتصويبه . ولا يبقى شيء يمكن أن يقال في العين
إلا قالوه ، ويحلو للناس تكرار القول في هذا ،
وإعادته ، والزيادة فيه في مجلس ، والنقص منه في
مجلس آخر ، وهو مادة جاهزة معدة ، تسعف الجالسين
إذا لم يجدوا حديثاً يشغل وقتهم ، ويُنقذهم من
الصمت الممل ، خاصة إذا كانوا في انتظار تقديم
وجبة ، أقيمت لتكريم قادم أو متزوج أو ناجح ، أو
لافتتاح منزل بُنى حديثاً ، أو سُكِنَ حديثاً .

وتسمع في هذا المجال - يا بني - عجباً ، وتنصت
إلى طرف متنوعة ، وقد سبق أن تحدثنا عن شيء من
ذلك ، ولا بأس في أن نتوسع بعض الشيء هنا في
الحديث عن طرائف العين ، والإصابة بها ، مما يحلو
للناس ترداده ، ويلذ لهم قوله وسماعه . فهم يقولون

إن بعض الناس تكون نفسه حافة فهو لا يرضى للناس النعمة ، حتى لو كان هو رافلا فيها ، وهم يقولون إن العين لا تقتصر على الغني دون الفقير ، أو الفقير دون الغني . وهم يقولون إنها قد تتوارث ، وإنها قد تكون في الوارث أقوى منها في المورث ، وبأنها قد تضعف عندما تنتقل من الأب إلى الابن . ويبعد أذى العين بأن يطلب من العائن أن يذكر الله فتحمد جذوة العين ، ويخبو أوارها ، وتنطفئ نارها . وان لم يرد من أصابته العين ، أو أصابت شخصا عزيزا عليه ، أن يكشف للعائن شكه في أن سهام عينه أصابت مرماها وأن يطلعه على ما يحول بنفسه ، فإنه يأخذ من أثره شيئا ، فيسقيه من أصابته العين ، أو يلبسه إياه ، أو يدهنه به . وهم يقولون أيضاً إن العائن يرتفع أذى عينه ، وتبطل ملكة الإصابة بالعين عنده إذا صَلَّى عليه صلاة الميت وهو غافل ، كأن يكون نائماً ، والله أعلم بالحقيقة .

وهم يقولون أيضاً إن الشخص قد يصيب بعينه أعز الناس عليه ، لأن العين إذا تربربت داخل



الإنسان أصبحت كالمرجل تغلي ، ولا بد من التنفيس عنها بإرسالها إلى من أثارها ، ويروون قصصاً عجيبة ، وطريفة في هذا ، وهي تمثل شيئاً كثيراً من القصص الاجتماعي في بلادنا ، ولو جُمعت - يا بني - لكانت شيئاً ممتعاً للقارئ ، ولأظهرت مجرى تفكير سائد تدخل دراسته والغوص إلى أعماقه ، في صلب الدراسات الأدبية لمجتمعنا . ولعلك - يا بني - كما هي عادتك في استقبالك للقصص ، وتطلعك إليها مشتاق إلى شيء منها ، وسوف أطفئ ظمأك ، ولكني قبل أن أبدأ هذا أود أن أسجل أمنية في نفسي ، وهي أن أرى شعوبنا العربية تلتفت إلى مثل هذا التراث وتسجله ، ففيه ذخائر ، ولعل استقراء ما يجمع يوصل إلى جذور بعض ما نراه من الظواهر اليوم ، ونحن لا ندري عن أصوله شيئاً ، ولو درينا فقد نعدل من عاداتنا الجديدة ما يحتاج إلى تعديل ، ونوجهها وجهة أفضل مما هي عليه .

من القصص الطريفة التي تروى في مجال العين ، أو « النحاته » كما تسمى في بعض

بلدان نجد ، أو « النضل » كما تسمى في مناطق أخرى من نجد ، أو الحسد ، كما يعبر عنها في الحجاز ، قصة الفلاح الذي كان يعمل في حقله ، فلما تعب لجأ إلى ظل نخلة يستريح ، حتى يستعيد نشاطه ، وكان أمامه دجاجة معها فراخها ، فانقضت حدأة وخطفت الدجاجة وهو يرى ، فقال : عجيبٌ أخذت الحدأة الدّلة وتركت الفناجين . فلم تلبث الحدأة أن ضربت النّخلة ، ووقعت ميتة ، وسلمت الدجاجة .

« التوصيف » و « التمثيل » مهم - يابني - للعين والعائن . الكلمات المعتادة قد لا تأتي بالتأثير السريع . وقد لا يكون من يأتي بالأمثال والتوصيف الدقيق عائناً ، ولكنه « مفطن » أو مذكر للعائن ومنبه له ، ولهذا إذا جاء وصف دقيق من شخص أياً كان قال له من حوله : « أذكر الله ، أو قل : لا إله إلا الله ، فإن لم تصب عينك ، فأنت تظن العائن » .

نعود إلى قصة الدجاجة والحدأة ، إن مايلفت



النظر فيها سرعة بديهة الرجل في التمثيل . قبل أن ترتفع الحداة عن مستوى النخلة أرسل عليها الوصف كالرصاصة ، فأركسها ، وكأنه - يابني - قد أعد هذا الوصف وهو جالس يستريح ، حين نظر إلى الدجاجة وأفراخها ، فشبها في نفسه على الفور بالدلة والفناجين . ولعله وهو يفعل هذا قد أصاب الدجاجة أصلاً ، لأن منظرها مع فراخها قد أحاك العين في نفسه ، وأن العين هذه جلبت لها الحداة . وبهذا نكون أمام إصابة بالعين مركبة . ويبدو أننا هنا شاركنا الناس في رأيهم في العين ، ودخلنا حقل التفاصيل دون أن نقصد !

ومع أن العين - يابني - من حيث هي ، حق فإن الذي يوجب التوقف أحياناً هو التفاصيل التي قد تأتي عجيبة غريبة ، فالناس مثلاً يقولون إن العائن لا يصيب عدوه ، أو من يظهر له العداء ، وفي هذا إجابة على من يتساءل : لماذا لا يُؤْتَى بالعائن إذا اجتمع جيشان ليصيب بعينه الجيش المعادي ، « وكفى الله المؤمنين القتال » . إن في عدم قدرة العائن



على الاضرار بالعدو ردّ على هذا المتسائل .

ومن القصص الطريفة أيضاً في هذا المجال ما يروى من أن فلاناً العائن كان مسافراً من بلدة إلى أخرى فأصاب سيارته وأصحابه خلل ؛ فتوقف ، فمرت سيارة أخرى فأوقفوها ، وطلبوا ممن فيها المساعدة ، فبخل هؤلاء بها ، ولم يساعدهم ، وبعد أن تحركوا بسيارتهم ، التفت العائن لمن معه ، وقال : إنهم لن يصلوا إلى تلك « العثامير » : (الشجيرات الصغيرة) ، ولكن هل تريدون مني أن أصيب العجلات كلها ، أو أصيب واحدة أو اثنتين ؟ وأي العجلات تريدون مني إصابتها ؟ وقد أصاب فعلاً العجلة المختارة . وبقي المصابون بالعين في مكانهم لا يستطيعون عمل شيء إلى أن جاء الأسعاف فأصلحوا خلل سيارتهم أولاً ، ثم مروا بأولئك بعد سيرهم ، وشمتموا .

ويقال إن الشخص قد يصيب بالعين أعز



الناس عليه ، وأغلاهم عنده ، ويروون في هذا أن رجلاً كان جالساً مع صديق له ، والرجل من العائنين ؛ فدخل ابن له ، لم يره الصديق منذ مدة ، ولاحظ الصديق أن الطفل قد نبتت ثناياه مكتملة ، فأبدى تلك الملاحظة لصاحب البيت العائن ، فقال العائن : هذه التي في المصباح غير التي في الخلوة ، مشيراً إلى الدور الأرضي من المسجد ومافيه من صفوف الأعمدة ، وإلى الخلوة وهي الطابق الذي تحت الأرض ، فتعثر الطفل في عتبة الباب ، وسقط ، وسقطت ثناياه ، وهو ابنه .

ويقال إن الشخص قد يصيب نفسه بالعين ، ويروى في هذا أن رجلاً تسلق نخلة ، وجلس على فرعها يقطف التمر ، ويحني الثمرة ، ولم يلبث أن جاء عصفور يزقزق على عادته كل يوم عندما يجوع ، «لينقد» ويقطع جزءاً من الثمرة ، فالتفت



الرجل إليه ، وقال له : « ارجع فإن
عصفورها فيها » . يعني نفسه ، فانكسر به
العسيب ، وسقط هو نفسه إلى الأرض .

ولا تعجب - يا بني - إذا قلت لك أن العين
أحياناً يستفاد منها للاعزاز والإكرام ، ويروى :

أن رجلاً من عليّة القوم زار إحدى مدن
الساحل في المملكة ، فأقام له أميرها مأدبة
غداء تليق به ، وبعد الغداء دعاه أحد
أقربائه إلى مأدبة مماثلة في اليوم التالي ،
فاعتذر أنه سوف يسافر في صباح هذا اليوم
منتهزاً فرصة برودة الجو في هذا الوقت ،
وليقطع أيضاً في البحر مسافة مجزية في ضوء
النهار ، قبل أن يدهمه الليل ، فأصر هذا على
دعوته كما هي العادة عند الرغبة الشديدة في
الاکرام ، فاعتذر المدعو ، فسكت الداعي ،
وأسرّ لابنه أن يُعدّ العدة كاملة لدعوة الغداء
غداً ، وكأن الداعي قد قبل الدعوة ، وانصاع
الابن لرغبة والده مندهشاً غير مدرك مرمى



الأمر . وفي صباح اليوم التالي ركب الزائر سفينته ، وأراد ربانها تشغيل مكيتها ، فلم تستجب ، وحرنت حرون المصمم ، فلم يترك وسيلة إلا وجربها ، ومرّ الوقت سدى ، حتى جاء وقت الغداء ، فاضطر الزائر إلى الاستجابة للدعوة . وتحققت رغبة الداعي بالاكراه .

فلما انتهى الزائر والناس من الأكل ، واستعدوا مرة أخرى للمحاولة استجابت السفينة لأول دعوة من ربانها ، مع دهشة المودعين كلهم . وعلم الأمر من علمه ، وجهله من جهله ، ولكنها بقيت قصة تُروى إلى اليوم .

أرأيت - يا بني - كيف خدمت العين ، فضيلة الكرم ، وإن كانت أخرت الرجل يوماً كاملاً عن الوصول إلى هدفه في الوقت الذي أراده .

والكلمات التي تستعمل - يا بني - رصاص يرسله

العائن إلى سيء الحظ ، وهي كلمات تستحق الوقفة والالتفات ، لأنها تكون في العادة مواكبة للحالة التي تصفها . يروى :

أن شخصاً مشى مع عائن في لندن مسافة طويلة ، وعندما أبدى العائن ملاحظته على تحمل صاحبه السير هذه المسافة الطويلة دون أن يتعب ، أراد الآخر أن يخفف من غلواء الملاحظة خوفاً من العين ، وليبعد عن نفسه الإصابة بها ، فكشف عن ساقه النحيلة ، وأراها الرجل ، ودافع عن نفسه بأن ساقه نحيفة ضعيفة لا ترقى إلى متانة ساق الثاني وقوتها . فقال العائن : « إن العفريّة ، رافعة السيارات والآلات ، نحيفة مثل ساقك ، ومع هذا فهي تحمل سيارة كبيرة حمولتها عشرة أطنان » . ومنذ ذلك اليوم وصاحب الرجل النحيلة يعاني آلاماً مبرحة ، وأوجاعاً مقلقة في مفصل وركه من جراء هذه الملاحظة ، ولا يسكت الألم ، أو تخف



حدثه ، وتهداً شرته إلا بالأدوية المسكنة .
وراوى الخبر يرويه عن تجربة مرّ بها ، وهو
من الذين لا يرمون الكلام على عواهنه ،
وليس ممن يشك في أقوالهم .

ونحن لانفتأ نرى ، بين آن وآخر ، شخصاً
يتحرك بهدوء دون أن يشعر به الناس ، فيأخذ نوى
تمر أكله العائن فيمصّه ، دفعاً لعين شكّ أن
الشخص العائن قد أرسل سهامها إليه ، عن طريق
ملاحظة أبداها ، أو نظرات أحس أن فيها من
الحسد ما أقلقه . وكم من امرأة احتالت على جارتها
فأخذت « طاقية » زوجها المعروف بأنه عائن ،
ووضعتها في ماء ، وأسقته زوجها هنيئاً مريئاً !!

والعين من قديم الزمان - يا بني - هي شغل
الناس الشاغل ، في عصور الجاهلية والاسلام ،
والأحاديث عنها تروى ، والقصص تقص ، وتتلون
هذه القصص وتتطور تبعاً لحياة الناس في مجتمعاتهم
المختلفة ، وليست العين وقفاً على المجتمع العربي ،
ولكنها توجد أيضاً في كل مجتمع ، وتأخذ كل منها



مناحي شتى ، ولها فيه مظاهر مختلفة ، وقد اختفت العين في بعض هذه المجتمعات ، ولم يبق منها الا مظاهر قد لا يعرف أصحابها أنها إنما وضعت في الأساس لما يطرد العين أو يبعدها ، ومن هذه المظاهر ما نراه عند بعض الشعوب من وضع نقطة سوداء أو حمراء فوق «مقرن» مابين العينين ، أو في وسط الجبهة .

لكي تعرف - يا بني - في نهاية حديثنا عن العين مبلغ خوف بعض الناس ووجلهم منها ، سأروي لك قصة رُقيّة رقي بها بعض من رأى أنها تقي بإذن الله من العين ، أو تشفي من آثارها ، وفي كلماتها ما يدل على رهبة صاحبها وذعره من العين :

بينما أبو عبد الله البناجي في أسفاره ، إما حاجاً وإما غازياً على ناقة ، مرّ في الطريق برجل عائن إذا نظر إلى شيء أتلفه وأسقطه ، وكانت ناقة أبي عبد الله فارهةً ، ف قيل له : «إحفظها من العائن» ، فقال أبو عبد الله : «ليس له إلى ناقتي سبيل» . فأخبر العائن



بقوله ، فتخير غيبة أبي عبد الله ، وجاء إلى
رحله ، وعان ناقته ، فاضطربت وسقطت .
فأتى أبو عبد الله ، فقبل له : قد عان ناقتك ،
ها أنت تراها تضطرب . قال دلوني على
العائن ، فذل عليه ، فقال له : « باسم الله ،
حبس حابس ، وحجر يابس ، وشهاب
قابس ، رددت عين العائن عليه ، وعلى
أحب الناس عليه ، في كليته رشيق ، وفي
ماله يليق ، فارجع البصر ، هل ترى من
فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك
البصر خاسئاً وهو حسير » .^(١)

فخرجت حدقة العائن ، وقامت الناقة
لا بأس بها .

ها أنت قد رأيت - يا بني - هنا قصة مروية ،
ورقية متلوة ، والله أعلم بحقيقة الأمر ، ولعل هذه
الرقية قد أفادت فعلاً ، لأنها من رجل صالح لجأ إلى

(١) ثمرات الأوراق : ٤٧٨ .



الله عز وجل فحماء ، ورد له بعيره ، وأخذ له حقه من
غريمه جزاء وفاقاً .

على أي حال ، لقد كانت العين - كما تُروي
القصة - عند السابقين شغلهم الشاغل ، وما زالت
كذلك عند بعض الناس اليوم ، وإن ما حرك العين
عندهم من قبل ما زال هو ما يحركها عندنا الآن وهو
النعمة في جانب ، والحرمان في جانب آخر ، فالبعير
في قصتنا السابقة كان فارها ، وفراسته هي التي
حركت عليه العائن .

أي بني !

نعم ، صور كانت ملء السمع والبصر أمام
الناس ، يرونها ليل نهار ، وهي جزء لا يتجزأ من
حياتهم اليومية ، وقد اختفت مع زحف الحضارة
والمدينة الحديثة ، ومع توافر الامكانيات بما يتناسب
مع التطور الذي طرأ على بلادنا ، بل على العالم
أجمع ، نتيجة تغير الأحوال الاقتصادية ، وتقدم
العلم ، وما جاء به من اختراعات حديثة ، وتقنية
مذهلة .



أي بني !

لقد اختفى من مكة المكرمة مثلاً الكناسون
الوطنيون الذين كنت تراهم بلباسهم الوطني ،
وهيئتهم المميزة : طاقة منشأة على رؤوسهم ، مثل
غيرهم من سكان مكة المكرمة ، تحيط بها ، في
الغالب ، عمامة « غبانة » لفت بطريقة مبسطة ،
وأديرت بطريقة عفوية ، وحزام « غبانة » أيضاً ،
أدير حول وسط الشخص ، ليسند بطنه وظهره
بطريقة خاصة متعارف عليها ، وليؤدّي - إلى جانب
المظهر - أغراضاً أخرى مفيدة ، ففيه - من الأمام -
حوصلة لحفظ النقود وما إليها . وكان ابن البلد
يفخر بطريقة شد الحزام واتقانه .

ولكل كنّاس أزقة معينة ، أو شوارع محددة ،
يقمّها ويكنسها ، وبعد ذلك يجمع ما يتجمع عند
كل كنّاس يومياً ، وتأتي عربات البلدية ، تجرّها
الحمير أو البغال ، لتنقل ما يجمعه الكناسون إلى
مكان معين خارج مكة - شرفها الله - يسمى : « قوز
الكنّاسة » أو « قوز النكّاسة » . أما سبب تسميته :

«قوز الكناسَة» فواضح ، لأنه يصف تجمع القمامة فيه ، أما تسميته «بقوز النكاسة» فلعل «الكنس» يشير إلى قلب عربات الكنس رأساً على عقب في هذا المكان . لا فراغ ما فيها .

وقد يكون أصله : «قوز المكّاسة» ، لأنه ورد في كتاب : «الدرر الفرائد المنظمة» للجزيري ، ما يشير إلى أن هناك مكاناً ، خارج مكة اسمه : «قوز المكّاسة» ولعله كان في مكانه ذلك مناسباً لأخذ المكوس على البضائع الداخلة إلى مكة من جدة ، ولهذا سمي بهذا الاسم .

قال الجزيري في حوادث عام (٦٥٢ هـ) :

« . . . فجاء مبارز الدين الحسين بن علي ابن برطاس ، في مئتي فارس ، من قبل المظفر - صاحب اليمن - فلقية الاشراف بالسرجة من قوز المكّاسة ، خارج مكة ، فقتل جماعة من الاشراف ، ودخل ابن برطاس مكة ، وحج الناس » .^(١)

(١) الدرر الفرائد ، ١ / ٥٩٩ .



أي بني !

لنقف هنا ، ونتدبر قصة قديمة تخص مكة ،
والقمامة في مكة ، ونضعها قليلاً تحت عدسة
المجهر ، ونرى ما قبله منها مما كان أصيلاً ،
وما نرفضه مما كان دخيلاً ، وسترى أنها تستحق
الوقفة ، لأنها أولاً تدخل في نطاق حديثنا معنىً
وجغرافياً ، وثانياً لأن أبطالها رجال لهم قيمتهم في
مجتمعهم ، ولأن ما أدخل فيها أمر يلمس السياسة ،
والتطاحن حولها في ذلك الزمن ، وفوق كل هذا
لأنها تخص جانباً من حزم عمر ، ومتابعته الأمور
بنفسه :

حدث الاصمعي عن جويرية بن أسماء فقال :

إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قدم
مكة ، فجعل يجتاز في سككها ، فيقول لأهل
المنازل : « قُمُوا أفنيتمكم » ، فمرّ بأبي سفيان ،
فقال : « يا أبا سفيان ، قُمُوا فناءكم » ،
فقال : « نعم ، يا أمير المؤمنين ، يجيء مُهَّاننا » .

ثم إن عمر اجتاز بعد ذلك ، فرأى الفناء كما كان ، فقال : « يا أبا سفيان ألم آمرك أن تقوموا فناءكم ؟ » قال : « بلى ، يا أمير المؤمنين ، ونحن نفعل إذا جاء مهاننا » . فعلاه بالدره بين أذنيه ، فضربه . فسمعت هند ، فقالت : « أتضربه ؟ ! أما والله لرُبَّ يوم لو ضربته لا تشعر بك بطن مكة » . فقال عمر : « صدقت ، ولكن الله - عز وجل - رفع بالإسلام أقواما ، ووضع به آخرين » .^(١)

هذه القصة تريك أن أمر القمامة في مكة كان محط اهتمام أعلى سلطة فيها ، وعمر قام بما يقوم به مفتش البلدية اليوم . وعمر كان لا يمنع نفسه عن أي عمل فيه صالح مجتمعه ، فعينه مفتوحة طوال الوقت ، فهو يعمل للدولة وهو يسير في طريقه إلى المسجد ، وفي طريقه إلى البيت ، وفي طريقه إلى السوق ، لا يكل ولا يني ، وهو يعس بالليل ؛ نومه قليل ، وسهره كثير ، وعمله دائم - رضي الله عنه .

(١) المتقى من أخبار الأصمعي ١٥١ .



أما أن يمر فيجد قمامة متجمعة في فناء بيت أبي سفيان فأمر غير مستبعد ، وأن يعيد أمر أبي سفيان فأمر يمكن أن يحدث ، وأن يرد أبو سفيان بأن الممتهين سوف يؤمرون بقم الفناء ، فأمر مقبول أيضا . أما أن يعلو عمرُ أبا سفيان بالدرة لهذا السبب فأمر مفاجئ ، وأسباب العجب منه كثيرة . فعمر وأبو سفيان من عمد المجتمع ، وعمر يعرف قدر أبي سفيان . وأبو سفيان بسنه ومقامه لا يتوقع أحد أن يعزّر بهذه الطريقة لهذا السبب البسيط . وأحسب أن أبا سفيان لو أتى أمراً جللاً يخالف الشرع ، لحرص الخليفة عمر على أن يوقع الجزاء الذي يقضي به الشرع لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

والقصة تبدو وكأنها تمثيلية لأناس مجتمعين على مسرح ، فعمر قائم وأبو سفيان أمامه ، ثم فجأة تظهر هند - وذكر هند يرد دائماً في مثل هذه القصص ، ولها فيها دور عجيب - فتدافع وهي امرأة عن أبي سفيان وهو رجل ، وتقول للخليفة وهي امرأة ما لم يقله له أبو سفيان وهو رجل ، وهو أيضاً المعني

المهان المضروب . ويبدو أن المؤلف والمخرج قد نسيا كلية أبا سفيان عندما برزت هند على المسرح ، ونسيانها له هو الذي أضعف في رأينا ما قالاه زيادة عن الخبر الأصلي الذي وقف عند الأمر بالقمّ دون الضرب ، وأبرز أيضاً احتمال الانتحال الذي ربما أريد به اضعاف حق الأمويين في الحكم ، باضعاف موقفهم أمام عمر في الإسلام بعد أن كان راجحاً في الجاهلية . ثم عمر لم يكن في الجاهلية ممن يخشى ضرب أبي سفيان ، وهو الذي دعا الرسول ﷺ أن يعزّ به الإسلام لعزته ومنعته . وهكذا اسدلت الستارة على مسرحية قد يكون أولها صحيحاً . وآخرها منحولاً .

أي بني !

دعنا نرجع إلى مكة المكرمة في زمن أبيك وجدك ، ونتحدث عن مظهر فيها ليس بعيداً عن موضوع الكناسين والقمامة ، وهو العربات التي كانت ترش الماء في الشوارع ، لتهدئ الغبار فيها ، فمكة المكرمة مثل غيرها من المدن لم يكن فيها في



زمن أبيك وجدك شوارع على الطراز الحديث ،
ولا أرصفة على جوانب الشوارع . ولعلك لا تدري
أنه إلى ما بعد منتصف الستينات الهجرية بقليل لم
يَعْرِف من لم يخرجوا من المملكة شوارع
«الأسفلت» ، ولم يروا متراً واحداً منها ، اللهم إلا
من ذهب إلى حي أرامكو في المنطقة الشرقية .
وكانت الشوارع في مدننا ترابية تقم منها القمامة ،
وكان لبعض شوارع هذه المدن حظ من رش الماء
على قلته وغلائه .

وعربة الرش عبارة عن برميل كبير يوضع على
هذه العربة التي تجرها البغال أو الحمير ، ويقوم
المكلف بها بفتح الصنابير أو قفلها ، ويذهب
ليملأها من آبار غير الآبار المخصصة للشرب ،
وكانت تضيء بعض البرودة على شوارع مكة ،
وتلطف الجو ، وتخفف درجة الحرارة الحارقة . هذا
المنظر - يا بني - اختفى ، ولم يعد يرى ، فالمحيط كله
تغير ، ولو عاد لأصبح ملفتا للنظر بل منتقداً .



أي بني !

اختفى كذلك من مكة المكرمة - شرفها الله -
ذلك الرجل الذي كانت الدولة تعينه وتعين كثيرين
من أمثاله ، وهم الذين كانوا يدورون في الأحياء ،
والحارات ، ليشعلوا مصابيح وضعت في أماكن
معينة مختارة لتنير هذه الأماكن ، وبعض الزوايا
والمنحنيات في الأزقة والشوارع والسكك . مما يساعد
الناس على السير ليلاً . بدون ارتطام بجدار ، أو
الوقوع في حفرة ، أو الاصطدام ببعض الحيوانات ؛
وما أكثر الأغنام - يا بني - في مكة في تلك الأيام ،
وما أكثر الكلاب آنذاك ، فقد كان لا يخلو بيت قادر
من غنمة أو غنمتين أو أكثر ، تجوب الشوارع نهاراً ،
وقد تبیت فيها ليلاً ، تراها هنا وهناك .

وهذه المصابيح ، أو الفوانيس ، تساعد الناس
بنورها على تفادي اصطدام بعضهم ببعض ،
وتهديهم عموماً في سيرهم في طريقهم ، وتهديهم من
روعهم وتطمئنهم ، خاصة النساء والأطفال منهم ،
الذين ألفوا سماع قصص الجن التي كانت تدور على



ألسنة الناس وهي من نسج خيالهم ، قد غالوا فيها ، حتى أصبحت احداها تكفي لتكون مصدراً للرعب ، ومن هذه القصص المرعبة القصة المتداولة عن «الدُّجيرة» ، وهي قصة يقف منها شعر رأس الطفل ، وترتعد فرائضه ، ويضطرب قلبه . و«الدجيرة» يُزعم أنها عجوز جنية ، على ظهرها «بقشة» تسير بها وهي محنية الظهر من الكبر بسبب سنها المتقدم ، وهي تدب ديبياً ، وهي امعانا في الحيلة ، وزيادة في الخداع ، إذا رأت شخصاً يسير وحيداً ، في أحد الأزقة الضيقة المظلمة ، طلبت منه ، بتعطفٍ وانكسار يوجب الشفقة ، ويستدر الرحمة ، أن يحمل عنها هذه اللقافة التي قصمت ظهرها ، وهدت قوتها ، وأوهت عزمها .

وبحسن نية ، وغفلة تامة ، يمد الشخص يده ليحمل الحمل عن تلك العجوز المسكينة ، ويزيل العبء المضني عن عاتقها ، وبمجرد أن تلامس يده يدها ، تمتص دمه ، في لحظة صاعقة ، وتتركه جسماً بلا روح ، كالاسفنجة المعصورة ، وهذه إحدى

صورها التي تحتال بها ، وهي واحدة من عدة أحابيل ، وحيلة من مجموعة حيل ، وخدعة من خدع تتفنن فيها ، وتغير وتبدل فيها في كل ليلة ، حتى لا يكتشف الناس جميع أحابيلها وحيلها وخدعها ، فيحذروها ، وقد كانوا سيكتشفون وسائلها الخبيثة هذه لو لم تنوع فيها وتغير ، وهذا التنوع والتغير هو سر نجاحها في تعدد ضحاياها ، وإدراكها هدفها ، وبلوغها مقاصدها . لقد كانت هذه الاحابيل والخدع وسائل تزرع الرعب ، فتجعل الناس يتعدون عن كل عجوز يرونها ليلاً ، ظناً أنها «الدَّجيرة» . وإذا كانت الدَّجيرة - يابني - في مكة المكرمة مصدر قلق الأطفال ورعبهم ، ووسيلة تخويف الكبار للصغار ، يتخذونها وسيلة للتأديب ، فإنها في نجد «السَّعلوة» ، ولها صور متعددة ، وأحاديث مرعبة .

وأمر الجن - يابني - ليست وليدة زمننا ، فهي قديمة إذ وردت في القرآن الكريم ولكن بصورة معينة محددة ، ثم لم يلبث أن أُطلق العنان في الأدب



لقصص الجن ، وانطلق القصص يروون في هذا المجال ما لا يصدق لغرابته ، وإغراقه في الخيال .

وسأقص عليك قصة واحدة أو قصتين وردتا في كتاب يسمى : «نوادير القصص عند العرب» ، وفيها أو فيهما ما في القصص عادة من طرافة :

قال القاضي يحيى بن أكثم : دخلت يوماً على هارون الرشيد ، وهو مطرق مفكر ، فقال لي : أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقي وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن بهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص^(١) . فقال : أخبرني عنه ، فقلت : حدث عبيد قال : كنت في بعض السنين حاجاً ، فلما توسطت البادية في شديد الحر ، سمعت ضجة عظيمة في القافلة ، ألحقت أولها بآخرها . فسألت عن القصة ، فقال لي رجل من القوم : تقدّم ترّ ما بالناس ،

(١) ينسب إلى مضر بن ربيعي . قوانين الوزارة ١٠٢ .



فتقدّمت إلى أول القافلة ، فإذا أنا بشجاع
(ذكر الحية) أسود فاغر فاه كالجدع ، وهو
يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرغاء البعير ،
فها لني أمره ، وبقيت لا أهندي إلى ما أصنع ،
فعدّلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ،
فعارضنا ثانياً ، ولم يجسر أحد من القوم أن
يقربه ، فقلت : أفدي هذا العالم بنفسي ،
وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة
منه .

فأخذت قربة من الماء ، فتقلدتها ،
وسللت سيفي ، فلما رأني قربت سكن ،
وبقيت متوقفاً منه وثبة يبتلعني فيها ، فلما
رأى القربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة في
فيه ، وصببت الماء كما يصب في الإناء . فلما
فرغت القربة تسيّب في الرمل ، ومضى .
وتعجبت من تعرضه لنا ، وانصرافه عنا من
غير سوء لحقنا ، ومضيّنا لحجّنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في



منزلنا ذلك ، في ليلة مظلمة مدهمة ،
فأخذت شيئاً من الماء ، وعدلت ناحية
الطريق ، فأخذتني عيني ، فنمت مكاني ،
فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً ،
وقد ارتحلوا ، وبقيت منفرداً لم أر أحداً ، ولم
أهتد إلى ما أفعله ، وأخذتني الحيرة ، وجعلت
أضطرب ، وإذا بصوت هاتف أسمع
صوته ، ولا أرى شخصه ، يقول :

يا أيها الشخص المضل مركبه
ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه
وبكر الميمون حقاً تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيبه
عند الصباح في الفلا تسيه

فنظرت فإذا ببكر قائم عندي ، وبكري
إلى جانبي ، فأنخته وركبته ، وجنبت
بكري ، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت
لي القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ،



فعلمت أنه قد حان نزولي ، فتحولت إلى
البكر ، وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب
ومن هموم تضل المدلج الهادي
ألا فخبرني ، بالله خالقنا
من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد بلغتنا مننا
بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إليّ وهو يقول :
أنا الشجاع الذي ألفتني رَمْضاً
والله يكشف ضر الحائر الصادي
فجدتَ بالماء لما ضنَّ حامله
نصف النهار على الرمضاء في الوادي
الخير أبقي وإن طال الزمان به
والشر أخبثُ ما أوعيتَ من زاد
هذا جزاؤك منّا لا يُمنّ به
لك الجميل علينا إنك البادي



فعجب الرشيد من قوله ، وأمر بالقصة
والآيات ، فكتبت ، وقال : « لا يضيع
المعروف أين وضع » .^(١)

هذه قصة - يا بني - جميلة وممتعة ، أما عن
صحتها أو افتعالها فسأتركك تمحص أمرها
بنفسك ، مستضيئاً في التمحيص بما أعطيتك من
قبل من قصة أبي سفيان مع عمر - رضي الله عنه -
فقد حاولت بنفسي آنذاك أن أفحص تفاصيلها على
النحو الذي عرضته عليك ، وأرجو أن يكون فيما
فعلته مساعدة لك على تمحيص هذه القصة . فإن
عليك أن تتذكر وأنت تفحص هذه القصة أن عبيد
ابن الأبرص يبدو تاجراً بضاعته الشعر ، وأنه
يحرص على أن يوجد سوقاً يبيع فيه بضاعته ،
ويجعلها رائجة فيه ، وأنه على ما جاء في أول القصة
كان واحداً من المسافرين ، وفي مؤخرة الصفوف ،
وأنه تقدم فجأة ، كما يفعل الحصان في السباق عندما
يفاجئ المتسابقين بما لم يكن في حساباتهم ، وإنه

(١) نوادر القصص عند العرب ١٥٩ .



بهذا التقدم قد أصبح بطل الموقف ، يستطيع أن يفعل ما يريد ، وأن يأخذ قصب السبق ، لأنه شجاع قَابِلُ الشُّجاع بعدتي الفخر : الشجاعة والكرم . وهو بهذا كله يكون قد سلط الأضواء على نفسه في مسرح أعده بنفسه ولنفسه اعداداً متقناً .

إن عليك أن تتذكر - يا بني - أن عبيداً عاد فيما بعد إلى الموضع نفسه الذي وقعت فيه الواقعة الأولى ، وقد يكون هذا الموضع على الطريق المطروق ، ولكنه انفراد ولم ينس أن يحمل قربته معه ، وهذا ما يفعله المحتاط دائماً ، ثم إنه نام نوماً عميقاً لم يسمع فيه رحيل القافلة ، مع أن القافلة لها ضجيج وضوضاء معتاد تمثلها الصورة الجميلة المعبرة التي أحسن رسمها الشاعر حين قال :

أجمعوا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رغاء



وعندما احتار عبيد وجد البعير فجأة ، وقد
تقول - يا بني - لماذا هذا البعير وبعيره أيضاً قد
أحضر ، الجواب - يا بني - أن عبيداً يعرف
مالا تعرف عن عادات القوم في الصحراء ، فالبعير
الواحد - يا بني - مخاطرة مثل السيارة الواحدة التي
تعبر بها «مقطعة» في الصحراء ، إنها قد تتعطل ،
وكذلك الجمل قد يموت ، ولا يجزيك حينئذ أن
تقول : إن الجن سوف تعوّضه إذا مات ، فالعادات
هي العادات . ويجب أن تراعى . ولا تقل - يا بني -
لماذا لم يركب بعيره ، بدلاً من أن يركب البكر ،
وعبيد عنده الجواب معدّ ، فالبكر هو الذي يعرف
الطريق إلى القافلة ، وبعيره مراح لكي يستعد لبقية
الرحلة .

وإذا تذكرت - يا بني - أن بضاعة عبيد الرئيسة
هي الشعر ، وهو الذي أدّى إلى إقامة هذا المسرح
الذي تجرى عليه القصة ، عرفت أن ما بقي عنده
من هذه البضاعة جاء دفعة واحدة عند «الحراج»
الأخير الشامل ، فأصبح هذا الشعر حينئذ وافياً

بالحكمة التي جاءت في البيت الذي دعا الرشيد أصلاً إلى التساؤل ، ووافياً بتفسير ما هو غامض من أمر الجني .

إذا تذكرت هذا كنه - يا بني - وفحصته فحصاً دقيقاً ، وقلّبه تقلباً كاملاً ، على جميع جوانبه ، فقد تصل إلى كنه الأمر ، وهل القصة مختلفة لصالح عبيد وشعره؟ أو أنها صحيحة . ولا تنس - يا بني - أن تتذكر أن الأفكار التي جالت في ذهن عبيد ، وضمنها في أبيات شعره ، لو أنه قالها بدون القصة لما أقبل عليها السُّمَّار ، ولا جلبت المستمعين . فقد تتصور أنت أنها مشجب علق عليه أشعاره ، واحتال على الناس ، كما احتلت أنا وأنت في الجزء الرابع من «أي بني» عندما علقنا ماتناثر من آراء عن الماضي على مشجب الأمثال^(١) !

وقصص الجن - يا بني - ازدهرت بين عرب الصحراء ، في الجاهلية والإسلام ، وأصبحت

(١) انظر الجزء الرابع من «أي بني» أ ، ب من المقدمة .



عنصر تسلية مُهمًا في سمرهم ، لا يملون من اختراعها أو تردّادها . والصحراء - كما تعرف يا بني - موحشة ليلا ونهارا ، فانفراد الشخص في صحراء قفر ، مع الهدوء والانفساح ، يوحى بالتخيل والتصور والأوهام ؛ حفيف الأشجار في سكون الليل ، وصفير الريح في هدأة الوقت ، وحركة حيوان من بعيد تجعل المتوحد المنفرد يؤوّل الأشياء ، ويتخيل الشر في كل نبرة وصوت وظل .

وعندما دخل ابن الصحراء المدينة ، وسكن البيوت ، لم يترك هذا الأمر في الصحراء ، بل أدخله معه إلى المدينة ، فالبيت الفلاني الخالي مسكون بالجن ، والرجل المنفرد في بيت ليس فيه معه أحد يتخيل أن هناك جنّا يستفيدون من بقية الغرف . وكم من بيت - يا بني - كسد سوقه بسبب إشاعة تطلق عليه ، تنتشر بين الناس ، فتثبت في أذهانهم ، ولا يمحوها شيء . ومن الأمثلة على قصص الجن هذا الحوار الذي دار بين شخصين ، فقد قال أحدهما أمامك - يا بني - أن الجن يطفئون بعض

«لمبات» الكهرباء في بيته ويسرجونها حسب ما يحلو لهم ، فقلت أنت : إن اللمبات عندنا في الممر الفلاني تفعل ذلك ، وأنا أحضرنا كهربائيا متخصصا ، فاكشف خلاا أصلحه ، ولم تعد تفعل ماكانت تفعله من قبل ، فتنبه هو إلى شيء قريب كان غافلا عنه .

وأمر الجن ليس مقتصرأ على بيئتنا نحن العرب ، ولكن الغربيين أيضا - يابني - عندهم قصص عن الجن ، وعندهم مايقلقهم أكثر من الجن : الأرواح التي تسكن البيوت ، وتؤدي سكانها وتقلقهم ، وتقلب نعيمهم فيها جحيمأ . وهي عادة أرواح الموتى من العائلة التي كانت تسكن البيت في الماضي . تعود هذه الأرواح فتظهر أحيانا في الليل في أبشع الصور ، فتعرض طريق أهل البيت الأحياء ، وتوقظهم من نومهم بالضجيج والموسيقى الشاذة النشاز أحيانا ، وتحطم بعض الأواني والأثاث . وقد تضطر الناس إلى هجر البيوت ، والبعد عنها . والبيوت المهجورة تكون عادة مرتعا خصبأ لمثل هذه



الأرواح التي يأتي منها أحياناً ما يوجب الإلتفات والتحري من الشرطة ، فهناك مثلاً بيت تخرج منه أحجار تلقى على المارة أو على الأطفال الذين يحاولون دخول هذا البيت ، ولكن بعد التحري يتبين أن هناك صعلوكاً متشرداً قد جعل من هذا البيت مأوى وملاذاً ، ولا يريد أن يشاركه فيه أحد ، خاصة هؤلاء الصغار المقلقين .

هذا - يابني - ما يمكن أن نقوله عن القصة الأولى من تحليل ، ومن تعليق . ولا بد أنك متشوق إلى القصة الثانية التي وردت في الأدب العربي وهي طريفة أيضاً - يابني - :

حدث زياد بن النضر الحارثي ، قال :
كنا على غدير لنا في الجاهلية ، ومعنا رجل من الحي يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنية له شابة ، على ظهرها ذؤابة ، فقال لها أبوها : « خذي هذه الصحيفة ، ثم أئت الغدير ، فجيئنا بشيء من مائه » .

فانطلقت ، فواقفها عليه جان ، فاختطفها ،
 وذهب بها ، فلما فقدناها نادى أبوها في الحي ،
 فخرجنا على كل صعب وذلول ، وقصدنا كل شعب
 ونقب ، فلم نجد لها أثراً . ومضت على ذلك
 السنون ، حتى كان زمن عمر بن الخطاب ، فإذا
 هي قد جاءت ، وقد عفا شعرها وأظفارها ،
 وتغيرت حالها ، فقال لها أبوها : « أي بنية ، أنى
 كنت ؟ » وقام إليها يقبلها ، ويشم ريحها . فقالت :
 « يا أبت ، أتذكر ليلة الغدير ؟ » قال : « نعم » ،
 قالت : « فإنه واقفني عليها جان ، فاختطفني ،
 فذهب بي ، فلم أزل فيهم ، حتى إذا كان الآن غزا
 هو وأهله قوما مشركين ، أو غزاهم قوم مشركون ،
 فجعل الله - تبارك وتعالى - نذرا إن هم ظفروا
 بعدوهم أن يعتقني ، ويردني إلى أهلي ، فظفروا ،
 فحملني ، فأصبحت عندكم ، وقد جعل بيني وبينه
 أمانة ، إن احتجت إليه ، أن أولول بصوتي ، فإنه
 يحضرني » .

فأخذ أبوها من شعرها وأظفارها ، وأصلح من



شأنها ، وزوجها رجلاً من أهلها ، فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعولها ، فغيرها ، وقال : « يا مجنونة ! والله إن نشأت إلا في الجن » .

فصاحت ، وولولت بأعلى صوتها ، فإذا هاتف يهتف : « يا معشر بني الحارث ، اجتمعوا وكونوا حبا وكرامة » : فاجتمعنا . فقلنا : « ما أنت - رحمك الله - فإننا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً ! فقال : « أنا راب (كافل) فلانة ، رعيتها في الجاهلية بحسبي ، وصبتها بالإسلام بديني ، والله مانلت منها محرماً قط ، واستغاثت في هذا الوقت . فحضرت فسألتها عن أمرها ، فزعمت أن زوجها غيرها بأنها كانت فينا ، ووالله لو كنت تقدمت إليه لفقأت عينيه ! » فقلنا : « يا عبد الله ، لك الحباء والجزاء والمكافأة » . فقال : « ذلك إليه » (يعني الزوج) .^(١)

هذه - يا بني - قصة طريفة وعجبية ، ولن أضع علامات على الطريق تساعدك على الاهتداء إلى

(١) نوادر القصص عند العرب ١٦٥ .



مدى صحتها أو ضعفها وانتحائها ، لأنني أرجو أن
تكون ملكتك في اكتشاف الحقيقة من الزيف ،
والصحيح من المختلق ، قد نضجت وقويت ،
وتستطيع أن تقف على قدميك في هذا المجال .

أي بني !

لقد اختفى اليوم أيضاً من مكة المكرمة - شرفها
الله - « العسة » ، بصفارته المعهودة ، التي لا تكِل
ولا تهدأ ، يبذل صفيها هدوء الليل وسكونه ، ولكنه
يدخل الطمأنينة والأمان إلى قلوب الناس ،
ويعلمهم ويؤكد لهم أن هناك عيناً يقظة تحرسهم
بعد حفظ الله ورعايته لهم ، لذلك فهم ينامون
مطمئنين لا يقلقهم شيء ، ولا يخافون من إزعاج
لص ، أو تسلل ناقص خلق ، أو مختل عقل .

يطلق العسة صفارته بين آن وآخر ليطمئن من
يهمه الأمر أنه يقظ متنبه ، لم يغلبه النوم ، ولم
يستسلم لجيوشه ، فقد حصن نفسه منها بنوم عميق
طويل في النهار ، وليعلمهم أنه يرقب بعينه ،



ويسمع بأذنيه ، أقل حركة ، وأهدأ نبرة ، فالسكون من حوله يساعده على ذلك .

والعسّة يتحرك بين آن وآخر ، في حدود ما عُيِّن له من مكان ، ويجول فيما رسم له من ميدان ؛ يطل على بعض المنحنيات والأزقة الملتوية في حارته أو شارعهِ مما لا يدخل في نطاق عمل عسّة آخر في موقع مجاور له . وأحياناً يطلق صفارته رداً على صفير من صفارة عسّة آخر ، يُؤذِنُهُ بخروج شخص من حدوده إلى حدود جاره .

وأحياناً تتجاوب الصفارات في وقت معين ، لتنبه أن كل واحد من العسس يقظ متنبه ، لم ينم أو يغفل أو يترك منطقته ؛ فتذكر هذه الصفارات الصغار بأذان الديوك عندما يؤذن أحدها فتجاوبه الآخر ، خاصة قرب أذان الفجر . ويأتي وقت يرتفع فيه صوت صفارة المشرف على العسس ، يطمئن بها على أن الأمر سائر بما يرضيه ، فتجاوب صفارات الآخرين ، وكأنها تردّ تحيته بمثلها .

وللخطر صغير خاص - يابني - ، صغير صلف
 عال متتابع مزعج ، مثل صفارات الإنذار اليوم ،
 يُنبّه به أحدُ العسس زملاءه الآخرين ، ويدعوهم
 للتكاتف والتعااض فيما بينهم في المواقع المتقاربة
 والمتجاورة . وللعسس كبير كما ذكرنا ، يختاره
 المسؤولون عن الأمن ، ممن يعتمد عليهم ، ويوثق
 بأمانتهم وخلقهم وبتجاربهم ؛ وهو يقوم بجولات
 مستمرة بين الأحياء ، يفاجئ فيها العسة النائم أو
 المهمل .

وبجانب ما ذكرنا من أن العسس هم في العادة
 عوامل اطمئنان ، ومصدر تثبيت للراحة النفسية في
 الأحياء ، فإنهم أيضاً مصدر أنس ، وطاردوا وحشة
 لقلق أو سهران جافاه النوم ، وهجره الكرى ،
 واجتواه الفراش ، فيقضي بقية ليله مؤنساً أو
 مؤنساً . وقد يكون العسس مصدر عون ،
 ومساعدة لمحتاج داهمه المرض ، أو حلت به كارثة .
 وقد يكونون رسل سلام لمشادة عائلية انفجرت في
 ظلمة الليل الهادئ ، فأفزعت الجيران ، وحركت



الحي ، وأيقظت النائمين .

هذه صورة اختفت - يا بني - ولم تعد ترى ،
طحتتها آلة التطور ، وسحقتها عجلة التقدم ،
وضاعت الحاجة إليها بعد أن تغيرت سمات الحي ،
وأحوال المجتمع . وحل محلها ماهو أنسب منها
للحياة الجديدة .

أي بني !

هناك منظر آخر في مكة المكرمة - شرفها الله -
اختفى ، ولم يعد له وجود ، وبدأ يختفي معه جيل
يذكره ، ويعتبره صورة جميلة من صور حياته ،
تربض خلفها عادات وتقاليد تغليها ، ويتمتع أهلها
باجترار ذكرياتها . اختفت - يا بني - من القشاشية -
حارة من حارات مكة - صفوف السيارات القديمة
«أبو رفزة» و «أربعة سرندل» طراز أواخر
العشرينات الميلادية ، أو أوائل الثلاثينات ، وكانت
هذه السيارات تقف بجانب عربات الحنطور التي
تجرها خيل هزيلة ، أنهكها حرّ مكة - شرفها الله -

وهذه العمل المتواصل والجهد الشديد المبذول . وهي تنتظر من يستأجرها من النساء اللاتي يذهبن لزيارة قريباتهن وصديقاتهن عصراً ؛ إذ لا غسيل في هذا الوقت ولا طبخ ولا كنس ولا خياطة ، والرجال فيه خارج بيوتهم ، لا يحتاجون إلى من يخدمهم منهم . فهو لذلك خير وقت لتبادل الزيارات المرتبة . وإن ركوب هذه الحناطير ، أو هذه السيارات ، كان يعطي مدلولاً خاصاً مميزاً لراكباته على الأخريات اللاتي يذهبن على الأقدام ، لأنهن لا يستطعن أن يركبن السيارات المستأجرة .

وركوب هذه الوسائل من المواصلات كان يتيح للنساء فرصة زيارة بيوت صديقاتهن البعيدة بسرعة ، فوقت العصر قصير ، ولو مشت الزائرات لضاع الوقت في المشي ؛ كما أن المشي الطويل في مكة المكرمة - شرفها الله - كان يرهق النساء المكدمات باللباس الساتر من «قنعة» و «كاب» و «جاما» و «ملاية تركي» ؛ وبغير هذه الأنواع من اللباس الخارجي ، بالإضافة إلى أنواع الحذاء من «تليك»



و «تاسومة» و «خف» و «بابوج» . يضاف إلى ذلك كله الارهاق من جراء الحر ، ووهج الشمس ، الذي تحتزنه جبال مكة ، ثم تعود فتنفثه إلى ما يقرب من منتصف الليل ، وهو أمر لا يسمح بنسمة هواء منعشة . وتكاد مدة الوقت المعتدل تنحصر بين منتصف الليل والصباح .

لم أتكلم - يا بني - عن دور السيارات للرجال ، لأنني أردت أن أجعل للنساء حديثاً لا يشاركهن فيه الرجال ، لكي أبعد لوم من يقول أنني تكلمت عن أمور الرجال أكثر مما تكلمت عن أمور النساء ، لقد رددت أنت - يا بني - على من ظن أنني لم أعط البنات حقهن في الأجزاء السابقة ، وأعجبني ردك - يا بني - على هذا القول ، مما يدل على نضجك ، وأرجو أن يكون أحد أسباب هذا النضج حديثنا المتواصل عن أمور الحياة . لقد جاء في ردك أنني أعرف بأمور الرجال مني بأمور النساء ، وأن النساء اليوم قادرات على أن يأخذن على عاتقهن من أمورهن مثلما أخذنا على عاتقنا من أمور الرجال . وقلت أيضاً أننا لم



نهمل الحديث عن النساء ، وجئنا هنا وهناك بصور
مضیئة عنهن في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا .
وحدیثنا كان كالمعتاد يأتي مفاجأة ، واستطرادا ،
ومبشوتا بين المواضيع ، سيرا على ما وعدنا به من
مراعاة منهج حديث المجالس ، ووفاء بما تعهدنا به
من البعد عن الملل وما یوصل إليه ، ما أمکننا ذلك .
أي بني !

اختفى منظر كان مألوفاً في مكة المكرمة - شرفها
الله - وهو منظر « الحامل » أو « الحمال » بزنبيله الذي
يکمل المنظر ، وقد قوّي أسفله على الأقل بجلد
یجعله يتحمل ما یوضع فيه ، ويقاوم الزمن .
اختصت فئة من الناس أو فئتين بذلك ، امتازت
بقوة الجسم ، وحمل الأثقال . تجدها في الأسواق
حيث توجد البضائع والمخازن ، أو « الحلقات »
حيث تباع الخضروات . ولا بد - يا بني - أن رقبة
الواحد منهم مع كثرة حمل الزنبيل بما فيه من ثقل
قد أصبحت عضلاتها معدة لمثل هذا العبء . ولعل
أصعب ما على الحامل أو الحمال رفع الشيء على



رأسه أو إنزاله ، وحيثُ قد يحتاج إلى زميل يساعده ، ولأن زميله ليس معه عند إنزال الزنبيل المملوء بما يجهد ، فإن صاحب البيت أو الدكان يساعده في إنزاله .

والحمالون الذين اعتاد الناس رؤيتهم في الأسواق والحارات إثنان حمال بزنبيل وحمال بحبل ، الزنبيل يوضع فيه ما يحتاج إلى احتواء وجمع ، والحبل للأكياس والأشياء الكبيرة ، كالدواليب ونحوها من الأثاث . كان الحمالون يتفاخرون بقوتهم ، وتميز أحدهم على الآخرين ؛ لأن هذا يعطيه فرصة حمل ما قد لا يستطيع حمله آخر ، أو إيصال ما لا يستطيع غيره إيصاله دون توقف ، لبعد المسافة ، ولما في إيصاله من توقع التعب والارهاق .

وينافس الحيوانُ الحمالين حين تكون هناك «قطعة» من الأثاث حَمَلُها فوق طاقة البشر ، فيأتي حيثُ دور الحمار ، ولكن لا بد من مشاركة العنصر البشري ، لوضع المحمول على ظهر الحمار وإنزاله ، وصاحب الحمار حَمَلٌ أيضاً ، وهذه ميزة له على



غيره ، وإن كان عليه أن يقيت الحمار ، وأن يشبعه ليكون في وضع يسمح له بحمل الأثقال . أما غيره من الحمالين ممن لا يملك حماراً فلا يحمل إلا همّ كسب قوت نفسه وذويه إن وجدوا .

ويحرص صاحب البضاعة أن يتفق مع الحمال أو الحامل على أجرة نقلها حتى لا يختلف الاثنان فيما بعد ، والاتفاق مقدماً يقطع دابر الشقاق ، ويحول دون الطمع من أي من الطرفين ؛ لأن كلا منهما عرضة للطمع بعد أن تكون البضاعة قد نقلت ، فالحمال يطمع لأنه قد نقلها ولاحظ صاحبها العناء والمشقة في نقلها ، ولم يعد له خيار أن يبحث عن حمال آخر ، كما كان يمكنه أن يفعل في أول الأمر ، عندما كانت المنافسة من الحمالين الآخرين ممكنة . وصاحب البضاعة يطمع لأن البضاعة قد نقلت ، وليس أمام الحامل إلا أن يقبل ما يدفعه صاحب البضاعة مهما كان مقداره ، أو يعيد البضاعة إلى مكانها الذي جاء بها منه ، وفي هذا لو قبله الحمال ما فيه من العناء والغباء مما يستبعد معها حدوثه . ولكن هذا - يابني - حدث من بعض الحمالين ،

الذين يضرب بهم المثل في العناد فقد أعادوا الحمل مع ما عاد بذلك من ضرر ، ويحدث هذا الشقاق على الأعم الأغلب في حالة واحدة هي عندما تكون البضاعة المحمولة خفيفة ، والمسافة قصيرة ، فصاحب البضاعة يظن أن الأمر واضح ، والحمال مثله يظن أن الأمر واضح ، فيحدث الاختلاف ، ويتبين أن الأمر أبعد مما يكون عن الوضوح . !

ومادمنّا - يا بني - نتحدث عن الحمل وما يقوم به بعض الحمالين ، فلعله يبهجك أن تسمع بعض القصص الطريفة التي وردت في الأدب العربي عن ذلك ، وستجد أنها مبعدة للملل ، وفي بعضها من النبل والتواضع ما يجعلك تقف عندها وقفة إعجاب وتقدير . وفي بعضها ما يجعلك تتنبه إلى عرض كل شيء على الفكر والتمحيص حتى لا تقع فيما وقع فيه أبو حنيفة : قال أبو حنيفة خدعتني امرأة أشارت إلى كيس مطروح في الطريق فتوهمت أنه لها ، فحملته إليها ، فقالت : احتفظ به حتى يحجيء صاحبه .^(١)

(١) أخبار الظراف ١٧٤ .

وليس - يابني - في حمل الأشياء عيب ، بل هو دليل على القوة والصحة ، ففي الزمن القديم لم يكن الناس يستعينون بمن يحمل لهم أحمالهم ، ولا يلجؤون إلى ذلك إلا إذا كان حملها فوق طاقتهم ، إما لضعف بنيتهم ، أو لمرض ألم بهم . ولعلك تذكر أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حمل كيس الدقيق الذي أراد أن يسعف به المرأة التي كانت تسلي أبناءها بطبخ الحجارة وهم يتضورون جوعا ؛ ولما عرض عليه صاحبه أن يحمله عنه ، قال له مامعناه : إنك لن تحمل ذنوبي عني يوم القيامة ، أو قول بهذا المعنى .

ويروى عن الصحابي الجليل - أبي هريرة - رضي الله عنه ، وهو أمير المدينة نائباً عن مروان ، أنه كان يحمل الحزمة من الخطب ، وهو خليفة مروان ، ويقول : « وسعوا للأمير ! » .^(١)

ومادمنا في نطاق الحمالين ، والحمد لله أننا لسنا -

(١) محاضرات الأدباء ١١٠ .



يا بني - في زنبيلهم ! فسأقص عليك قصة فيها بعض ما في قصة أبي هريرة ، وفيها بعض ما في قصة أبي حنيفة وفيها أيضاً من الإيلام ما يجب أن تتنبه له ، كي لا تصبح من أهل التنايز بالألقاب ، وهو أمر مجوج . إن الإنسان لا يضره أبداً - يا بني - أن ينادي الناس بأحب الأسماء إليهم ، لأن في ذلك إمالة للقلوب ، وجلباً لحب الناس . أما مناداتهم بأسماء منفرة ، فإن فيها قسوة ، وهمجية ، ونقص خلق وعقل ، وهي تدل أيضاً على عدم تربية ، وعلى تكبر ، واستهتار بحقوق الآخرين . ما ضر من نادى سلمان في القصة الآتية أن يقول له : يا أخي ، أو يا عبد الله . لقد اختار لندائه كلمة لم يلبث أن ندم عليها ، فجعل الله همّه همّين : همّ المناداة ، وهمّ ما اكتشفه بعد ذلك ، مما جعله يجهد في الاعتذار :

اشترى رجل شيئاً ، فمرّ بسلمان (الفارسي) ؛ ، وهو أمير المدائن ، فلم يعرفه ، فقال : «أحمل هذا معي يا عالج» . فحمله . وكان من يتلقاه يقول : «إدفعه إليّ



أيها الأمير» فيقول : « لا ، والله لا يحمله إلا
العلاج . » والرجل يعتذر إليه ، ويسأله أن
يرّده عليه ، وهو يابى ، حتى حمله إلى
مقره .^(١)

كل من سمع - يا بني - هذه القصة أعجب
بسلمان إعجاباً شديداً ، لخلقه ولحسن تصرفه ،
بسبب تغلغل الإيمان في قلبه ، كيف لا وقد قبس
هذا الإيمان من مصدره - ﷺ - إن أحداً لا يريد أن
يكون مكان الرجل الذي نادى سلمان ليحمل
الحمل . إن كلمة «علاج» تجعلك وتجعلني نخجل
من هذه الكلمة ، ونحن نحس أن المشهد كأنه قائم
أمامنا ، لم تمر عليه السنون ، ولم تضع معالمه بعد .
إن بشاعة هذه الكلمة «علاج» تتضح لو وضعت
بدلاً منها كلمة «أخي» ، ان الفرق بينهما كبير . هل
تذكر الشاعر الذي اعتذر عن الهجو لا عجزاً ولكن
ترفعاً ، وقال إنه يمكن لمن يبني أن يهدم ، أن كلمة
«علاج» هذه هدم حقاً بل هي من أشد أنواع الهدم .

(١) محاضرات الأدباء ١١٠ .



أي بني !

ولقد اختفى من مكة المكرمة - شرفها الله - أيضاً
المركز ، أو كاد ، وفقدت المراكز روحها القديمة ،
ومظهرها المعتاد ، لأن محيطها قد تغير ، واختلف
روادها ، فلم يعد الناس ينتظرون حلول وقت
العصر لتخف حرارة الشمس ، فيخرجوا للقهاوي
في أماكنها الرحبة ، طلباً «للطراوة» ، والبرودة ؛ فقد
جاءتهم البرودة اليوم في عقر دارهم ، وعمت
بيوتهم ، ولم يعودوا يحتاجون إلى أن يناموا في الليل
خارج بيوتهم على الكراسي في قهاوي «الششة» أو
قهوة «عصمان» ، ولا في قهاوي «الخریق» أو
«المسئلة» أو غيرهما . لقد أصبحت المراوح
الكهربائية ، في أول الأمر ، تدور فوق رؤوسهم ،
أو هي في الحائط أمامهم ، أو على قاعدة ثابتة ،
تحرك الهواء بانتظام ، فيبرد ، ثم تلت ذلك
المكيفات ، وكانت لفترة من الزمن «صحراوية» تبرد
الجو وترطبه . ثم جاءت مكيفات «الفريون» ،
تنفث البرودة ، وتهميء الجو المناسب الذي

يتحكمون فيه بما يحلو لهم مما لم يكونوا يحلمون به أو بجزء منه في الماضي . وأصبحت المفاضلة تدور الآن على ما يتميز به مكيف عن آخر من درجة الهواء ، والمنظر الجميل ، ونحو ذلك .

من هذا ترى - يا بني - أن هناك مظهراً من مظاهر حياة الناس قبل سنوات اختفى ، وابتلعته الأيام ، ولم تترك له أثراً إلا باهتا ، أو في أذهان الناس الذين عاشوا في تلك الفترة ، وهم في اختفاء تدريجي . وما دمنا - يا بني - في الاختفاء التدريجي ، والحديث عنه ، فلنتحدث عن مظهر من المظاهر التي اختفت أو كادت ، والصور التي انطمست ، أو بهتت تدريجياً :

أي بني !

إلى وقت قريب ، كان الإنسان إذا دخل في بعض المجالس ، ورأى رجلاً أو أكثر من كبار السن ، يسمع أخباراً عن غزوات الملك عبدالعزيز ، أو السرايا التي كان يرسلها ، أو العصاة الذين كان



يؤدبهم ، ويسمع وقائع الاستيلاء على المدن
والمناطق ، ويسمع شتى الأخبار ، بعضها مجمل
وبعضها مفصل ، وفيها من الوصف الطريف
ما يشد ، ويترك الحاضرين في صمت وانصات ،
يستمعون بشغف إلى ما يروى ويقص . ويُسمع
عن حادثة واحدة روايات عديدة ومتنوعة ،
وبعضها مختلف ؛ يُسمع عن الخطط وتنظيمها ،
والطرق التي سلكتها الجيوش ، والحيل والخدع التي
استعملت لمفاجأة العدو ، ويسمع عن تصرف
الشجعان ، ومواقف البطولة ، ويسمع عن انتصار
وانكسار ، وربح وخسارة ، وجيوش كبيرة
وصغيرة ، وفرق نهارية ، وسرايا ليلية ، ويسمع عن
« الزهاب » ونوعه ، والمؤن وكميتها ، ويسمع عن
السلاح وأنواعه ، والجديد منه ، ويسمع عن دور
البعير والحصان ، وعن الحصون وصمودها ،
والقلاع وسقوطها ، ويسمع عن حوامي المدن
وأسوارها وأبراجها ومربعاتها ، ويسمع عن التسلل
الليلي ، وتسلق الأسوار ونقبها ، وعن المفاوضات



والمحادثات ، والإصرار والتحدي ، والتنازل والاستسلام .

لقد كان بعض ما يُسمع في أثناء ذلك وفي خلال الأحاديث ، قصصاً طريفة ، وصوراً مفاجئة ، مما يمكن السامع من أخذ فكرة عن الواقع لم تكن تخطر على باله ، وهو بعيد عن ميدانها وزمنها ، وعن الحالة النفسية التي عاشها أهلها :

روى أحدهم - قبل سنوات - عن والده ، قال : كان والدي يتحدث عن مشاركته في حروب الملك عبدالعزيز - رحمه الله - ويصف بعض الأمور التي تجرى عليهم أو منهم ، وكان يسهب في هذا ، ويذهب في الحديث مذاهب ، وكنت صغيراً لا أقدر أهمية مثل هذه القصص ، ولكن بقي في ذهني منها بعضها ، لكثرة الترداد والإعادة ، وهي مما يستحق أن يسجل :

قال :

ان الناس ، في زحفهم نحو العدو ،



يحملون همًا كبيراً ، لأنهم لا يدرون عما
يمكن أن يفاجئهم مهما كان عددهم أكثر من
عدوهم ، والموقف موقف جد وليس نزهة في
الصحراء وقت الربيع . فهم في طريقهم إلى
ميدان حرب ، المرء فيه إما قاتل أو مقتول أو
جريح ، وجرح عن جرح يختلف ، فجرح
سطحي ، يبرأ بعد أيام ، وآخر عميق يأخذ
شهوراً أو سنين ، أو تأتي منه إعاقة تلازم المرء
طوال العمر ، فيصبح المصاب فيما بقي من
عمره عالية على أهله ، يُحمل ويوضع ،
ويُغسل ويلبس ، ويؤكل ويشرب .

ومن أبرز مظاهر الاستعداد للمعركة
التشحّط والتكرب اللذان يسبقانها مباشرة ،
فراكبو الخيل والإبل والراجلون يسرون
صامتين ، كأن على رؤوسهم الطير ،
لا ينبسون ببنت شفة ، ولا تسمع لهم همسة ؛
ليس هناك إلا صهيل خيل أو نخيرها ، أو
رغاء بعير متقطع نتيجة شد مفاجئ

لخطامها ، أو بسبب ضربة عصا تحثها على السير ، وعلى مجارات الأخريات ، أو صرير «شداد» ، أو وقع حافر على أرض صلبة ، أو قرع سلاح . وليس هذا أهم مظهر للتمسّس والتشحّط والرّهة والهمّ ، ولكن هناك مظهر طريف ، ومسكوت عنه لطبيعته ، وهو كثرة وقوف الغزاة بين آن وآخر لنثر البول ، حتى لتكاد تعرف مدى همّ هؤلاء الغزاة بالتقريب من مرّات وقوف الأفراد لهذا الغرض .

ثم يلتقي الجمعان ، فإذا ما التقوا زالت هذه الرّهة ، وارتفع الهمّ ، ونسي الناس أنفسهم وتشحّطهم ، وكأن شيئاً من هذا لم يكن . وينشغلون بالعمل الخطير الذي جاءوا من أجله ، ودخلوا فيه ، ووضعوا فيه كل تفكيرهم وقوتهم وامكانياتهم عملاً وواقعاً . ولا تجد من يفكر في نثر البول أو يتذكره ، فالناس في شغل عنه ، وكفى بالعرق نازحاً لما في الجسم من ماء ، حتى في



عنفوان الشتاء ، والناس مشغولون بما هو
أهم : محاورات ومناورات ، وصدام
وعراك ، وعنّف ومجالدة ، وكرّ وفرّ ، ومطاردة
وملاحقة ، وإقدام واحجام ، وضرب واتقاء
ضرب .

والشاعر القديم - يا بني - لم يكن بعيداً
عن هذا الجو عندما قال :

وترى القروم مخافة لقرومنا
قبل اللقاء تقطر الأبوالا^(١)

أي بني !

هذه صورة من الصور التي لمعت في يوم من
الأيام في خضم غبار معارك تلك الأيام ، وهي
معارك مهدت لتوحيد هذه المملكة على يد الملك
عبد العزيز - رحمه الله - دعنا الآن نرسم لك صورة
أخرى لحروب حدثت قبل هذه الفترة عندما كانت
الأمور فوضى ، كل قبيلة تغير على أخرى أو تحتمي

(١) المحاسن ٤٨٥ .



بها أو تستعين ، لقد كان عوز هذه القبيلة مثلاً يجعلها تغير على أخرى لتحسّن وضعها ، وترفع مستوى معيشتها ، وكانت قبيلة ثانية تزاحم الثالثة في مراعيها ، ورابعة تقوم الحرب بينها وبين أخرى بسبب ثأر لمقتل فرد ، وهي قد يفنى بسببها عشرات . وليس هناك قبيلة في مأمن ؛ المنتصرة اليوم قد تكون المهزومة غداً ، والقوية اليوم قد تصبح الضعيفة غداً ، والمجيرة اليوم قد تصبح المستجيرة في اليوم التالي ، وهكذا يقوى الضعيف ، ويضعف القوي ، وأناشيد السرور عند هؤلاء اليوم ، ونواح الحزن والمأتم عندهم في يوم آخر ، ورحى الحرب لا تقف عن الطحن ، لها ما يشبع نهمها من البشر ، ونارها لا يخبو لهبها ، ولها ضرام بالرؤوس والأعضاء .

وفي وسط كل ذلك كان هناك تقاليد وعادات لا يذهلون عنها ولا يغفلون ، تحكم أمورهم ويراعونها ، ويحرصون على بقائها حية قوية ، ولا يخلّون بها ؛ يعدونها أساساً لأخلاقهم في الحرب

والسلم .

إليك - يا بني - قصة طريفة تُري تلاقي العادات
وتنافرها ، وتعطيك صورة عما كان يحدث في تلك
الحروب :

أغارَت قبيلة على قبيلة ، وأنتهت
المعركة ، وقام المنتصرون بتفتيش جيوب
الموتى . قال الرواي : عندما قلبت جثة أحد
الشبان النضرين ، وبدأت أبحث في جيوبه
وأفتشها ، طلباً لما قد يكون فيها من مغنم ،
صعقت عندما وجدت في جيب القتيـل
صرتين صغيرتين احداهما هيل والأخرى
شاور (دخان) ، فجلست بجانبه أنوح عليه
كما تنوح الشكلى على ابنها ، على الرغم أنه من
أعدائنا ، وعلى الرغم من علمي بأنه لو كان
وجد الفرصة لقتلي في المعركة لما تأخر عن
ذلك ، بل لبادر إليه وسعى ، ولكني نسيت
العداوة ، عندما رأيت مكملات الرجولة
متوافرة معه ، ومتجمعة في جيبه «هيل

وشاور! « فأيقنت أن مثله يستحق أن يُحمى
لا أن يقتل .

وقد لا تعرف - يا بني - أهمية هاتين المادتين
آنذاك ، ولكنك ستعرف ذلك عندما تعلم أن هاتين
المادتين تعدان من متطلبات الكرم في ذلك الزمان ،
ومن يعرف الضيافة وأصولها عندهم يعرف ما عناه
الرجل . إن أحدهم كان يأتي في الصحراء إلى مخيم
هناك ، فيستضيفه أصحابه ، وقد لا يكون عندهم
قهوة ولا هيل ولا شاور ، فيذبحون له ما يسعفهم
باللحم ، ويخبزون له مათياً ، فيبادر الضيف
بإخراج صرة فيها هيل وأخرى فيها شاور ، وقد
يكون صرها في طرف « غترته » ، ويقدمها لمضيفه
فتقبل منه ، لأنها أمور كمالية تكمل أنس المجموعة .

لقد انتشرت عادة التدخين - يا بني - في بادية
الشام ، ثم انحدرت منها إلى عرب وسط الجزيرة ،
وبقيت فيهم إلى أن تمكنت دعوة الشيخ محمد بن
عبد الوهاب - رحمه الله - من إزالتها في محيط
باديتنا ، وبعد أن تأثر عربنا بهذه الدعوة تأثراً



كاملا . وقد تبين عند ظهور الدعوة أن شرب الدخان متمكن من عرب بوادينا ، فكان من الصعب عليهم التخلي عنه ، حتى بعد أن أصبح لهم هجر ووعاظ ومرشدون . وبقي بعضهم لفترة طويلة يخفي شربه للدخان . وكان « السبيل » أو « الغليون » هو الأداة المفضلة للتدخين عندهم ، ربما بسبب اقتدائهم بمن أخذوه منهم ، أو لعلهم وجدوه أوفر من السجائر ، وأنسب لحياة الترحال التي تحكم حياتهم .

أي بني !

في زمن مضى ، في بلدة والدك وأمثالها من المدن الصغيرة حينذاك كان عدد السكان قليلا ، ويكاد كل إنسان يعرف الآخر ، إن لم يكن بالاسم فبالرسم على الأقل ، وكان الغريب يلحظ منذ أن يدلف إلى السوق ، وتلفت إليه الأنظار . وكانت هناك صور - يابني - عرفها ذاك الزمن في تلك البلدان ، اختفت اليوم ، وانطمست آثارها مع ما انطمس من عادات كانت سائدة ، وأخلاق كانت

مسيطرة ، ولم يبق منها إلا الذكر الحسن ، والصورة الجميلة الباهتة من جراء مرور الزمن ، ووطء أقدامه . ويحتفظ بها اليوم معاصروها ، ويستدعونها من الذاكرة عندما تأتي المناسبة ، ويجترونها مع ما يجترونها مما يحبون أن يستعيدوه من ذكريات تعيد لهم صور شبابهم الماضي ، وما كان لصاحبه من بهجة وأنس .

إذا ضاع لأحد شيء «شيد» من ضاع له هذا الشيء عليه علنا ، أي نادى عليه في الأسواق ، وعند المساجد بعد الصلوات ، وفي أماكن ازدحام الناس للبيع والشراء ، فإذا كان المفقود عقداً أو صرة نقود يأتي فاقده على أثر النداء . وتختلف الضائعات ، أو المفقودات ، وتتراوح الأشياء بين الصغيرة الحجم مثل صرر النقود والأشياء الكبيرة الحجم مثل البقرة والشاة . وأحياناً لا يبين «المشيد» أو المنادي ما عثر عليه ، فإن جاء مجيب لندائه ، فوصف له ما فاقده وصفاً دقيقاً أعطاه إياه . ولا يحرم عادة من وجده من «الحلاوة» أو المكافأة ، نقداً أو غيره ، وذلك حسب



كرم صاحب الشيء المفقود ومقدرته ، وإلا «فجزاك الله خيراً» تكفي .

وقد لا يكون «المشيد» أو المنادي هو الذي عثر على ما ضاع ، لأنه ليس كل إنسان يسمح له مقامه أن يدور في الأسواق رافعاً عقيرته ، ينادي عن ضالته ، أو ضالة وجدها ، حينئذ يوكل الأمر إلى شخص تعود على المناداة ، وأتقن مثل هذا ، فالدلالون غالباً هم خير من يقوم بهذه المهمة .

والعبارة التي كانت تقال ، ويرفع بها الصوت في مدينة والدك - يابني - هي : «يامن غدت له الذاهبة» وغدت - كما تعرف - أي ضاعت أو فقدت ، والذاهبة أي الضائعة أو المفقودة . ولتسليتك وإبعاد الملل عنك ، أقص عليك قصة رجل التقط شيئاً أضاعه آخر ، واستفتى أحد العلماء في استحلاله ، فأفتاه بأنه لا يحل له ، وأن عليه أن ينادي عليه ، وأن يكون ذلك بصوت عال ، وفي أماكن مختلفة ، حيث يوجد الناس ويتكاثرون . وكانت «الذاهبة» بقرة وجدها الرجل تجوب شوارع



المدينة ، فطمع فيها ، وأمل ألا يأتيه صاحبها ، وألا يسمع نداءه . وكان رجلاً مرحاً ، وصاحب دعابة ، ففكر كيف يحتال للأمر بأن يجمع بين المناداة وبين عرقلة نتيجتها ، وكيف ينادي بصوت عال ولا يسمعه مع ذلك أحد ، فاهتدى إلى الحل أن ينادي بصوت عال أول الجملة : « يامن غدت له » أما كلمة « البقرة » فيهمس بها . ولا أدري - يابني - إن كان نجح في حيلته أو أخفق ، لكنني أتصور أنه أخفق للأسباب الآتية :

- (١) أن البقرة ليست ابرة تضيع دون أن يحس صاحبها بفقدائها ولا بد أنه تعب في البحث عنها ، ويكفي أن يسمع كلمة : « يامن » حتى يأتي مسرعاً ، مؤملاً أن المناداة عن بقرته .
- (٢) أن صاحبها لا بد أنه سأل عنها أناسا كثيرين ، فإن هو لم يسمع النداء ، فلا بد أن أحداً منهم سمعه ، فبلغه .
- (٣) النية - يابني - لم تكن طيبة ، ومادامت كذلك فلا بد في نهاية المطاف - أن تحرم صاحبها المنادي

من ثمرة حيلته

على أي حال - يا بني - لم تكن المناداة - وهي أمر شرعي - تصيب معاصري جدك وأبيك وحدهم بهمّها وكربها فقد كانت أيضاً الشغل الشاغل لأشعب في زمن سابق حين حاول أن يحتال مثل واجد البقرة، وأن يستحلّ ما وجدته . وكانت حيلته أعرق، وتفكيره أعمق، ولا أظن أحداً يمكن أن يخطر على باله ما خطر على بال أشعب .

قال الواقدي :

لقيت أشعب يوماً، فقال : « وجدت ديناراً، فكيف أصنع به ؟ » قلت : « تعرّفه » .
قال : « سبحان الله ! » قلت : « فما الرأي ؟ »
قال : « اشترى به قميصاً، وأعرّفه » قلت :
« إذا لا يعرفه أحد » . قال : « فذلك أريد » .^(١)

أي بني !

(١) أخبار الظراف ٨٥ .

ومن الصور التي اختفت من مجتمعنا صورة نبيلة جميلة ، قضى عليها تطور المجتمع عندما اتسعت المدن وكبرت الأحياء ، وتباعدت البيوت بعضها عن بعض بعد أن كانت متلاصقة في حي صغير له صفته المتميزة عن غيره من الأحياء الأخرى التي لها هي أيضاً ما يميزها من الصفات . وتكوين ذلك المجتمع وتركيبه جعله متكاملًا ، لا تحدث فيه ثغرة ، ولا يختل تكوينه ، لمسارعة أهله إلى سد الخلل ومعالجة ما قد يأتي به الزمن من نقص ، وكانت هناك من هذه الصور صورة اللمحة الأخوية بين الجيران بعضهم مع بعض مما يجعلهم يشعرون أنهم أسرة واحدة ، فالغني كان يعطف على الفقير ، ويتعهده فيما ينقصه أو يحتاج إليه ، وكان يهب لنجدته عندما يطرأ طارئ ، ويقف بجانبه عندما تلم كارثة . وكان الحاضر ينوب عن الغائب في رعاية أهله ، وفي قضاء حاجاتهم . وكان هناك من الصور الجميلة في هذا ما كان يشاهد دائماً من تكاتف بين أفراد حي واحد . فإذا كان رب البيت



مسافراً ، أو من كان في البيت نساء فقط لا رجل لهن يقوم بقضاء حوائج البيت ، فإن ربة البيت تدلي زنبيلاً من النافذة أو تضع وعاء على عتبة الباب ، وكانت هذه علامة واضحة ومتفق عليها ، فإذا رآها أي فرد في الحي فإنه يسارع إلى أخذها إلى السوق ، بعد أن يكون أستفسر ممن في البيت عما يريدونه . والأولى بمثل هذه الخدمة الجار الملاصق ، إلا أن هذه الخدمة النبيلة ليست وقفاً على أحد ، وإنما يتسابق إلى شرف القيام بها أهل الحي جميعاً ، وهم متساوون في محاولة أداء هذه الخدمة . وقد تضع المرأة النقود في الزنبيل أو الوعاء ، وقد لا تفعل فيبقى الثمن دينا حتى يعود الغائب . ولا يجروء أحد أن يتراخى في هذه الخدمة لا خوفاً من أن ينبذ المتراخي من المجتمع فقط ، ولكن حذراً من أن يخل بنظام محمود كان يقوم عليه هذا المجتمع ، ويفتخر بصيانه وحفظه . وكانت هذه الصورة من الصور المعروفة في مكة المكرمة قبل أن تزحف على أحيائها وسائل المدنية الحديثة من اتساع في الأحياء وتباعد بين العائلات ، ومن كثرة الغرباء وتغير العادات



تبعاً لذلك ، وقد حل محلّ هذه الصورة تكافل من نوع مختلف يتماشى مع التطور الجديد .

والحثّ على رعاية الجار أمر متفق عليه في المجتمعات المتحضرة ، والإسلام كاد أن يورث الجار^(١) ، وما كنا نراه في مجتمعاتنا الصغيرة كان إمتداداً لهذه التعاليم الإسلامية ، والقصص التي تتحدث عن المحافظة على حسن الجوار كثيرة ، والأدب العربي مليء بهذه القصص ، ومن تلك القصص مما رواه صاحب العقد الفريد وغيره في هذا الشأن :

« ذكروا أن جارا لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره ، فساوموه بها ، فسألهم ألفي دينار ، فقالوا إن دارك تساوي خمس مئة دينار ، قال : وجواري من أبي دلف بألف وخمس مئة

(١) قال رسول الله ﷺ : «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» . وقال علي ابن ابي طالب رضي الله عنه «الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق» .



دينار ، فبلغ أبا دلف فأمر بقضاء دينه ، وقال
له : لا تبع دارك ولا تنتقل من جوارنا»^(١)

كان كل واحد من الاثنين أهلا لجاره ، هذا
بتقديره لحسن جوار أبي دلف ، وأبو دلف بتقديره
لإقرار جاره له بالفضل وتقويم هذا الجوار بما لم
تبلغه قيمة الدار . وهذه لفظة فريدة لفتت نظر
المؤرخين فدونهاها .

ولم يكن الناس يستغنى بعضهم عن بعض ،
وكانت تلك المجتمعات تدرك هذا وتقدره ، ولهذا
كان الفرد يحرص أن يكون مفيدا لمن حوله خاصة
لمن احتاج ، لأنه يعرف أنه هو نفسه قد يحتاج إلى
غيره ، ولهذا فهو يقدم المعروف اليوم دينا سوف
يستوفيه غدا عند الحاجة . وأصبح الأمر الذي لدى
الخير من الناس مع التعود والمواظبة على خدمة
المحتاجين منهم طبعاً يتلذذ به مُسدي الخدمة دون

(١) العقد الفريد ٢٥٦/١ ، وخلاف هذا ما قاله أحد الشعراء :

يلوموني أن بعت بالرخص منزلي ولم يعرفوا جارا هناك ينغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنها بجيرانها تغلو الديار وترخص
بهجة المجالس ٢٩١/١ .



أن يتطلع إلى جزاء عنه أو شكور .

وقد أدركت ذلك مجتمعات صغيرة مثل مجتمعاتنا السابقة ، وتحدثت عنه ، وتذاكرت فيه :

قال رجل لابن عباس : « ادع الله أن يغنيني عن الناس ، فقال : إن حوائج الناس تتصل بعضها ببعض كاتصال الأعضاء فمتى يستغنى المرء عن بعض جوارحه ، ولكن قل : اغني عن شرار الناس »^(١) .

والخدمة التي يقدمها أهل الحي للمحتاج من الجيران تدخل ضمن ما روي أن النبي ﷺ امتدحه فقال : « سيد القوم خادمهم » .

والشاعر يقول :

كأنه عبد لآخوانه وليس فيه خلق العبد^(٢)
ويمائل الصورة التي كانت قائمة في تلك

(١) محاضرات الأدباء ٢٥٥ .

(٢) محاضرات الأدباء ٢٤٦ .



الأحياء ، وما كان الرجل يقوم به نحو جيرانه في أن يأتي لهم بمؤونة مماثلة لمؤونة بيته ماروي في أزمان مضت من أن محمد بن علي قال لآخرين :

«أيدخل أحدكم يده في كم أخيه فيأخذ حاجته؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذا بإخوان»

وأبو تمام يقول :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

وهذا باب واسع يؤكد ما يتصف به الإسلام من وجوب التأخي والتراحم والتعاطف ، وهي صفة امتازت بها المجتمعات الإسلامية ، وتعد من الأصول الثابتة في الخلق الإسلامي .

ومن باب الحث - يابني - على رعاية الجار ماروي عن مالك بن أنس يغمز فيه أهل زمانه ويقول فيه إن أهل الجاهلية كانوا أشد حذبا ورعاية للجار :

قال مالك بن أنس : قال أبو حازم : كان أهل
الجاهلية أحسن جواراً منكم ، فإن قلت : لا ،
فبيننا وبينكم قول شاعرهم :

ناري ونار الجار واحدة
وإليه قبلي تنزل القدر
ماضرّ جاراً لي أجاوره
ألا يكون لبيته ستر
أعمى إذا ما جارتني برزت
حتى يوارى جارتني الخدر^(١)

ويبدو أن مالك بن أنس مهتم بهذا الجانب الخلقي
اهتماماً خاصاً ، ويرى فيه مظهراً خلقياً حسناً يستحق أن
يبحث عليه ، ويدعى إليه ، لأنه روى عنه أيضاً أنه مرّ
بقينة تُغني :

أنت أختي وأنت حرمة جاري
وحقيق على حفظ الجوار

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١ / ٢٩٠ .



إِنَّ لِلجَّارِ إِنْ تَغَيَّبَ غَيِّبًا
حَافِظًا لِلْمَغِيبِ وَالْأَسْرَارِ
مَا أَبَالِي أَكَانَ لِلْبَابِ سِتْرٌ
مَسْبِلٌ أَمْ بَقِيَ بَغِيرِ سِتَارِ
فَقَالَ مَالِكُ : عَلِمُوا أَهْلِيكُمْ هَذَا وَنَحْوَهُ^(١) .

وَعَلَى هَذَا النِّحْوِ يَأْتِي قَوْلُ بَشَارِ بْنِ بَشَرَ الْمُجَاشَعِيِّ :
وَإِنِّي لَعَفٌّ عَنْ زِيَارَةِ جَارَتِي
وَإِنِّي لَمُشْنُوٌّ لَدِي اغْتِيَابِهَا
إِذَا غَابَ عَنِّي بَعْلُهَا لَمْ أَكُنْ لَهَا
زَوْورًا وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كَلَابِهَا
وَلَمْ أَكْ طَلَابًا أَحَادِيثَ سَرِّهَا
وَلَا عَالَمًا مِنْ أَيِّ جَنْسٍ ثِيَابِهَا^(٢)

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ١ / ٢٩٠ .

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس ١ / ٢٩١ .



صور أخرى أختفت

أي بني !

كانت هناك صور واضحة في مجتمع أبيك وجدك ،
تلحظ في كل يوم ، أو في كل أسبوع أو في كل شهر أو
في كل سنة . وكانت هذه الصور تؤدّي دوراً رئيساً في
حياة الناس ، ولم يكن المجتمع يستغنى عنها ، نمت مع
المجتمعات ، وتطورت بتطورها ، فأدت لها أغراضها ،
وسدت ثغرات ؛ تطلّبتها معيشة الناس حينئذ ، أو
تبلورت عن حياتهم ، وتشكلت مع الزمن بطريقة
طبيعية ، كل حقبة أضافت إليها ، أو شذّبتها . وقد
تختلف هذه الصور من منطقة إلى أخرى حسب
متطلبات المنطقة الجغرافية ، وتأثرها بما يجاورها ، أو
بمن يفد إليها ، لغرض ديني ، أو تجاري ، أو هجرة ، أو
استيطان ، أو حسب ماهي عليه من طبيعة جبلية أو
صحراوية أو بحرية أو زراعية أو رعوية .

وسأحاول أن أرسم لك ما أتذكره منها مما لم يسبق لنا
أن تكلمنا فيه معاً ، وسوف لا أتكلّم عن ذلك



بالترتيب ، أو أدخل أجزاء القول تحت تصنيف منتظم ،
أو ترتيب متتال ، خوفاً عليك أن تملّ ، ويضيق صدرك
بما أقول ، وأنت تذكر ما اتفقنا عليه ، منذ ابتدأنا هذه
السلسلة من القول من الحرص على الابتعاد عن
الاملال ؛ لهذا لن نخلّ بما سبق أن تعهدنا به ، والتمزناه
فيه حتى الآن من أن حديثنا سوف يكون على نمط
حديث المجالس يأتي عفواً ، ويجري سهلاً ، خاصة
وأنت - كما يبدو من اصغائك ، ومتابعتك الحديث ،
ومشاركتك فيه أحياناً - قد حمدت هذا الأسلوب ،
وارتضيته ، وفضلته على غيره ، ورضاك - يا بني - مهم
في هذا الأمر ، لأن الهدف الأساسي أن تسمع وتستفيد ،
فإذا نفرناك بطريق أو بآخر ضاع الهدف ، وخاب
السعي ، وتبدد الجهد .

أي بني !

من الصور التي اختفت ، والتي لا تراها الآن ،
وكانت تُرى واضحة في الماضي ، صورة مبسطة جميلة ،
كانت تؤدي هدفها النبيل بيسر وسهولة ، وتناسب مع
طبائع الناس وأخلاقهم ، وصلاتهم بعضهم ببعض :



صورة القضاء والقضاة . لم يكن هناك محاكم - كما تعرفها اليوم - بما فيها من موظفين للقيد والتسجيل ، وكتابة الصكوك ، وحجج الاستحكام وتوقيعها وختمها . ولم يكن هناك مرافعات ومحامون - كما ترى اليوم في العالم الإسلامي - وكان الأمر في أغلبه ، في بلادك ، عند القاضي أشبه بالاستنصاح والاستفتاء ، يصلي الخصمان مع القاضي في المسجد ، فيقضي بينهما هناك ، وقد يخرجان معه ، ويشرحان له قضيتهما ، فيسمع من كل واحد منهما ، ثم يتدبر الأمر ، فإن كان مما لا بد من إنجائه شرعاً أنهاء ، وإن كان أقرب لأن يحل صلحاً أصلح بينهما .

والمحاكمة والمقاضاة والترافع لا تأخذ في الغالب من الوقت إلا قليلاً ، قد لا يزيد عن المدة التي يقطع فيها القاضي الطريق بين المسجد وبيته ، وأحياناً يجلس القاضي للخصمين في منتصف الطريق . وإذا استوجب الأمر كتابة وثيقة بماقضي به كتبها في المسجد ، أو في حجرة ملحقة به ، وعلى أي ورقة تكون في متناول يده ، أو على ورقة موجودة مع أحد المتقاضين . وأغلب



ما يكتب من القضايا هو ما يخص الممتلكات من زرع أو بيوت أو دكاكين أو مزارع أو وصايا .

وإذا احتاج أحد صوراً من تلك الوثائق في المستقبل ، أو عبثت يد الزمن بها ، كأن أكلتها الأرضة ، أو جاءها ماء ، أو بليت مع الوقت ، فما على من هي بيده إلا أن يذهب إلى طالب علم ، فينسخها له ، ويذكر الناسخ أنه نسخها من خط فلان ، فتعتبر المنسوخة مثل المنسوخ منها ، مستنداً وحجة .

والناس - يابني - في ذلك الزمن كان يغلب عليهم الورع ، وخوف الله سبحانه وتعالى ؛ فهم لا يكذبون على القاضي ، ولا يدلّسون فيما يدلّون به ، ويتحرجون فيما يقولون ، خوفاً من زيادة القول عن الحقيقة أو نقصه ، مما قد يضر بالخصم ، أو ينقص حقه ، فيأكلون بهذا في بطونهم ناراً ويصلون سعيراً . لذا تجد أحدهم يجعل الرجحان مع الخصم خوفاً من أن يلحق ذمته شيء ، وتجدهم يتبارون في هذا مما يجعل القاضي يختار . ولعلك - يابني - تذكر قصة الذي اشترى «كورجة» طيق شاش ، و«الكورجة» فيها عشرون طاقة أو درجاً



من القماش ، فلما فتحها وجد فيها واحدة وعشرين طاقة ، فأعاد واحدة إلى البائع ، وقال : وجدت هذه زائدة على «الكورجة» ولا حق لي فيها ، فردّ عليه الآخر بأنها وردت عليه هكذا من بلادها ، وأن هذا رزق ساقه الله إليه ، ولو أرادها الله له لكانت من نصيبه ولم يبيعها ، فردّ الآخر بقوله : أريت لو أنني وجدت ناقصة ، هل كنت ترفض أن تكملها لي ؟ فقال : لا ، لا أرفض . قال : فها دمت غارماً إذا نقصت ، فمن حقك أن تكون غانماً إذا زادت .

ولما لم يقتنع البائع بما قاله المشتري ، ولم يقبل المشتري ما قاله البائع ، اتفقا على أن يجعلا الأمر إلى القاضي ، طالبين منه ارشادهما إلى طريق منير في هذا الأمر ، راضيين مقدما بما سيحكم به ، وما يراه لهما في حيرتهما . ويقال إن القاضي وجد أنه خير للثنين أن يكسبا في الآخرة بدلا من الدنيا ، فاقترح عليهما أن يأخذ كل واحد منهما نصف «الطاقة» الدرج ، ويتصدق به .

أي بني !



هناك قصة مماثلة لهذه تماماً ، لعلك لا تزال تذكرها ،
فقد سبق أن تحدثنا عنها في مناسبة أخرى غير مناسبة
القضاء :

استدان شخص من آخر ستة جنيهات ذهباً ،
وبعد سنة أو أكثر جاء ليعيد المبلغ إلى صاحبه ،
شاكراً له تفضله عليه واعطاه هذا المبلغ دينا ،
قرضا حسنا ، ففتح الدائن دفتره ليمحوقيد
الجنيهات فيه ، كما هي عادة التجار في ذلك
الزمن : اثبات ومحو ، إذ لم يكن هناك «سند» في
الغالب لتوفر الثقة بين الناس ، وهم إن كتبوا
شيئا فللبيان خوفا من النسيان أو الموت .

وجد التاجر أن المبلغ قد ضرب عليه ومحي
من الدفتر ، مما يدل على أنه سدّد ، فقال للمدين
إنك سبق أن سدّدت ما عليك ، لأنني قد ضربت
عليه في دفترتي وشطبتة . فقال الآخر : إني على
يقين أني لم أسدّده ، وهذا ليس مبلغاً صغيراً
فينسى ، وليس عندي من الأموال ما يجعل هذا
المبلغ شيئاً قليلاً من كثير حتى يدخل في عرض

مالي فلا أدري به ، ولا أحس بدخوله ؛ فمالي محدود ومعروف وهذا المبلغ الذي يخصك ينال معي إذا نمت ، ويستيقظ إذا استيقظت ، ويأكل معي ويشرب ، ويمشي معي أينما سرت ، ويخايلني ظله أينما التفت ، هو في ناظري وأمام عيني غمضت أو فتحت ، يمشي معي أينما اتجهت ، ويجلس معي حيث جلست ، أذكره كلما بعت أو اشتريت ، وأعدده وأرقبه ينمو ويوفاة نحو الوفاء والسداد . وكنت أطلع إلى اليوم الذي أسدده لك فيه ، وأفي بحقك عليّ . وهذا هو يوم العيد الحقيقي عندي .

ولكن الآخر أصرّ على ما قاله ، وأعاد وكرّر أنه يعتمد في مثل هذا مما يخص السداد والوفاء على دفتره ، ولا يمكن أن يدخل في ذمته ما ليس دليله واضحاً للعيان أمامه ، كوضوح الشمس في رابعة النهار ، وإلا فبأي وجه سيقف أمام الديان في يوم الدين ، في يوم يجتمع فيه الخصوم وجها لوجه .



وحاول المدين أن يثنيه عن رأيه ، فقال له في آخر محاولة منه : عل غيري قد سدد لك ديناً ، وبدلا من أن تضرب على دينه ضربت على ديني ، وهذا سوف يجعلك تطلب منه أن يسدد لك في المستقبل مرة أخرى ، ولهذا تعفيني أنا الذي لم يسبق لي أن سددت . فقال الدائن : « بل لعل أحدا عرف حالك ، وقدّر حاجتك ، ورحم ضعفك ، فسدد عنك ، دون أن تعلم ، لأنه يريدك ألا تعلم » .

ولما لم يتفقا ، أو يقتربا من نقطة يتلاقيان عندها ، اتفقا أن يعرضا الأمر على قاضي بلدتهم ، ويستنيرا برأيه ، فلعله يدهما على ما يريح بالهما ويقنعهما ، أو يكون هناك حكم شرعي يصدره لهما يسيران عليه . وقد اختلف الرواة فيما قاله لهما القاضي ، فهناك من يقول إنه أفتى أن يتقاسما المال صلحا وتساحا . ومنهم من يقول إنه أشار عليهما بأن يقسماه مناصفة بينهما ، ثم يتصدق كل واحد منهما بقسمه ونصيبه . والله

أعلم - يابني - بالحقيقة ، لأن هذا كان في الماضي ، وما كان في الماضي ولم يدونه الناس أو يوثقوه في حينه ، واعتمد في روايته على المشافهة وتسلسلها ، فهو عرضة للاختلاف بالزيادة أو النقص ، أو التعديل ، أو التحريف . ولهذا فمن الصعب الجزم بالحقيقة إلا في صورتها العامة وعلى كل فالغرض من القصة واضح ، ولا يقلل من أثره ما انتهى إليه الأمر . ومع هذا فيمكنك - إن أردت أن تعرف الشرع في هذه المسألة - أن تسأل أحد القضاة في زمننا ، لأن الأحكام لا تتغير في مثل هذه المسألة .

وإذا أخذنا زمننا غير هذا الزمن ، وقوماً غير هؤلاء القوم ، وتلمسنا كيف كان الناس مشددين في حقهم غير متساهلين ولا متسامحين ، لأن عنصرهم مختلف ، وبيئتهم مختلفة نجد قصة تمثل ذلك :

روى الأزدي :

اشترى رجل من رجل أرضاً ، فوجدها



صخرة ، فاختصمها إلى كعب بن سوار القاضي ،
فقال له القاضي : لو وجدت ذهباً أكنت تردّها؟
قال : لا . قال : فهي لك .^(١)

نعود - يا بني - إلى ما قلناه عن رقة قلوب الناس في
وقت مضى ، وقوة إيمانهم ، وصفاء دينهم ، وما يقدمونه
بين أيديهم من خوف الله في جميع أمورهم . ولعله
يعجبك ويفيدك أن تسمع وعظاً قام به قاضٍ خيرٍ في بيئة
قديمة خيرة ، تشبه بيئة جدك ، وكيف أن هذا الوعظ قد
ولج إلى القلوب ، وتوغّل في طبائرها ، وتغلغل إلى
سويدائها ، فزهّرها ، وأثمر ثمرةً يانعة طيبة ، لأنه بذرة
خير زرعت في أرض خصبة بالإيمان والتقوى والخوف
من الله تعالى ، فلا يحتاج المتخاصمون للعودة إلى جادة
الصواب أكثر من أن يذكروا بالله - سبحانه وتعالى -
وبيوم الحساب وأهواله . والواعظ هنا هو القاضي
الأندلسي ، يحيى بن زيد النجيبى ؛ قال عنه المؤرخ
«النباهي» صاحب كتاب «تاريخ القضاة» :

(١) وكيع ٢٧٩/١ .



كان رسمه ، إذا اجتمع الناس عنده
للحكومة ، بدأ بوعظهم وتذكيرهم فلا يزال
يخوفهم الله - سبحانه وتعالى - ويحذرهم وبال
الجدال بالباطل ، وما يلحق المبطل من سخط
الله - عز وجل - وعقوبته ، ويمثل لهم مواقفهم
بين يديه في القيامة . ثم يذكر ما يلزم القاضي من
الحساب ، وما يجب عليه من التحرى لإصابة
الحق ، والاجتهاد لتخليص نفسه .

ثم يأخذ في النوح والبكاء على نفسه ، فيكون
ذلك دأبه حتى لربما انصرف عنه أكثر
المتخاصمين باكين وجلين ، قد تعاطوا الحق
بينهم .

أي بني !

كان الناس في وقت مضى لا تغمض عينهم عن
الآخرة ، ولا ينقطع تفكيرهم في ثواب الله ، لم تكن الدنيا
أكبر همهم ، ولا يهمهم منها إلا تأمين الرزق الحلال ،
وطلب السّتر من الله فيما يأتون أو يدعون . وعودوا



أنفسهم عليهما ، لا يحيدون ، ولا يزورون . حرصوا
على أداء الأمانات كاملة ، وحفظ الحقوق وافية ، وأداء
الوعود تامة ، وإتمام العهود غير منقوصة أو مخدوشة .

كانوا يتسابقون إلى التسامح والتّصافي والتّغاضي ،
ويتنافسون على حبّ الخير . كانوا لا يقبلون أن يغلبوا في
السباق في ميدان الخير ، ولا يرضون أن يبرّهم أحد في
الظهور بالمظهر الذي يشرف مجتمعهم الصغير والكبير ،
كانوا لا يرضون أن يسبقهم أحد فيما نذروا أنفسهم له ،
ووقفوا حياتهم عليه .

أي بني !

القضاء من أهم الوظائف التي يحتاجها الناس في
حياتهم ومعيشتهم ؛ لأنه صاحب الكلمة الأخيرة
الفاصلة فيما يقوم بينهم من نزاع ، أو يحدث بينهم من
شقاق ، أو يطرأ على أذهانهم من إشكال أو ابهام .
يتوقّف على حكم القاضي مصير أموال وأعراض
وأَنْفُس ؛ ولهذا استلزم الأمر أن يكون القاضي عالماً
بأُمُور الدين ، وبأحوال الناس ، وله صفات اشترط أن



تتوافر فيه حتى يكون - بقدر الإمكان - في منأى عن الزلل ، وبعيداً عن الخطأ . وحياة الأمم - يا بني - تزدهر بازدهار القضاء وعدل القضاة . والبلاد التي يضعف فيها القضاء نتيجة البعد عن الحكم بالشرعية مآلها الأدبار والاضمحلال . ولتعرف مدى أهمية القضاء لدى بعض الحكام - وهم من يهتمهم ألا تضعف بلادهم - استمع إلى نفثة من صدر المأمون في لحظة حاجة إلى تعيين قضاة وحكام ، يحكمون بين الناس بالعدل . قال :

«إن أهم الأمور كلها أمور القضاة والحكام ، إذ كنا قد ألزمناهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام فوددت أني أجد مئة حاكم ، وأنني أجوع يوماً ، وأشبع يوماً» .^(١)

أي بني !

بجانب ما يجب أن يتوافر في القاضي من قوة

(١) المحاسن والمساوىء ١٥٢ .



الدين ، وخوف الله ، ومراقبته في الأحكام ، يحتاج
القاضي إلى نباهة فائقة ، وإلى ذكاء حاد ، ليسبر
غور الخصوم ، ويعرف من ظاهرهم ، وحركات
جوارحهم ، ما يدلّه على ما بداخل أنفسهم ،
وما يجيلونه في أفكارهم من محاولات للتضليل
والتدليس . والتجربة وطولها وعمقها كل ذلك مفيد
للقاضي مثلما هو مفيد للطبيب ونحوه ، وكلما امتد
الزمن بالقاضي ، وعرك الحياة مع المتخاصمين
ومرت عليه فئاتهم ، بأنواع الحيل التي يلجؤون
إليها ، أصبح أقرب إلى الأمن من الزلل ، وإلى
الحكم العادل الخالي من الخطل . قال يحيى بن
سعيد :

«وليت قضاء الكوفة ، وأنا أرى أنه ليس
على الأرض شيء من العلم إلا وقد سمعته ؛
فأول مجلس جلست للقضاء اختصم إليّ
رجلان ما سمعت فيه شيئاً» .^(١)

(١) النباهي ١٠ .

وفي الإسلام قضاة مشهورون طبق ذكركم
الآفاق، عرفوا بالنباهة والذكاء والورع وتحري
العدل؛ منهم من كانوا في الزمن القديم، ومنهم من
كانوا في الزمن الحديث.

ولعلك تذكر - يا بني - قصة القاضي
وكيع، وقد تخاصم عنده اثنان، ادعى
أحدهما أنه أعطى الآخر مبلغاً من المال أنكره
الآخر، فقال المدعى إنه أعطاه إياه في موضع
كذا وكذا، فقال القاضي للمدعي:
«وما كان في ذلك الموضع» قال: «شجرة».
قال القاضي: «قم واذهب إلى حيث
الشجرة، فلعلك تجد أنك دفنته تحتها».
فذهب الرجل، وأخذ القاضي ينجز شؤون
المتخاصمين الآخرين عنده؛ وفجأة التفت
إلى المنكر وقال له: «أترى صاحبك قد بلغ
الموضع الذي أودعك فيه؟» قال: «لا».
قال القاضي: «يا عدو الله، إنك لخائن» فأقر
عنده، فحبسه حتى جاء صاحبه، ثم أمره

بدفع الوديعة .^(١)

وهكذا ألهم الله القاضي هذه الحيلة التي كشف بها كذب الخصم . ومثل هذه القصة يروى عن أكثر من واحد من القضاة النابهين الذين سجلت لهم أخبار في كتب الأدب .

ومن القضاة الذين شهد لهم بالذكاء والفراسة ، والمقدرة على استدراج الخصم المنكر إلى الاعتراف بعد استخراج الأدلة منه ، القاضي إياس بن معاوية ، قاضي البصرة زمن عمر بن عبد العزيز :

« اختصم رجلان عند إياس في مطرف خز وأنبجاني ، وادّعى كل واحد منهما أنّ المطرف له ، وأنّ الأنبجاني لصاحبه . فدعا إياس بمشط وماء ، فبل رأس كل واحد منهما ، ثم قال لأحدهما : سرح رأسك فسرّحه ؛ فخرج في المشط عفر المطرف ، وفي مشط الآخر عفر الأنبجاني . فقال :

(١) وكيع ٣٤٢/١ .

قارن هذا بما ورد في كتاب النصيحة قابو سنامه ص ١٦٦ .

«يا خبيث! الأنجاني لك، فأقرّ. فدفع
المطرف لصاحبه». (١)

ويكون عمل القاضي أحياناً في الإفتاء في أمور
لم تجربها العادة، وتأتي على سبيل الاختبار له،
فيخرج القاضي بذكائه - بعد توفيق الله - من هذا
الاختبار ناجحاً فائزاً؛ قال رجل لإياس:

«هل ترى عليّ من بأس إن أكلت تمراً؟»
قال: «لا». قال: «فهل ترى عليّ من بأس
إن أكلت معه كيسوما؟» قال: «لا». قال:
«فإن شربت عليهما ماءً؟» قال: «جائز». .
قال: «فلم تحرم السكر؟» وإنما هو
ما ذكرت لك؟» .

قال إياس:

«لو صببت عليك ماء هل كان يضرّك؟»
قال: «لا». قال: «فلو نثرت عليك تراباً؟»
هل كان يضرّك؟» قال: «لا». قال: «فإن

(١) نهاية الارب ٢٤/٤ . راجع ماسيأتي ص ١٦٠ .

أخذت ذلك فخلطته وعجنته ، وجعلت منه
لبنة عظيمة ، فضربت بها رأسك ، هل كان
يضرّك ؟ » قال : « كنت تقتلني » . قال :
« فهذا مثل ذاك » .^(١)

ومن الأمور التي تساعد - يابني - القضاة على
كشف ما قد يكون الخصم أخفاه ، أو دلّس فيه ،
الكذب الذي قد يلجأ إليه أحد المتنازعين ، ثم
لا يلبث أن ينسى أنه كذب ، فيقول فيما بعد
ما يخالف ما قاله أولاً ، فيقع في فخ ساعد هو على
نصبه لنفسه . والتواريخ ومقارنة بعضها ببعض ،
والتثبت من علاقتها بالحوادث والوقائع ، تكشف في
كثير من الأحيان ما قد يكون أدخل من تزوير ،
وما قد تعمّد من تضليل .

ولهذا - يابني - اشترط أن يكون من بين
مؤهلات القاضي المهمة ، في نظر بعض العلماء ،
الفراسة : قال القاضي ببغداد ، إسماعيل بن

(١) نهاية الارب ٢٤ / ٤ .

إسحق : « من لم يكن له فراسة لم يكن له أن يليي
القضاء » . (١)

وقال الشيخ سليمان بن محمد بن عبد الله
الحميضي ، القاضي في المحكمة المستعجلة الثانية ،
بمكة المكرمة ، في كتابه : « رسالة مع القضاة »

« هذا ولبعض القضاة فراسات عجيبة ،
يعرفون بها أحوال الاخصام ودوافع
الخصومة بينهما ، ويعرفون المحق من
الخصمين بثباته ، وتحرير دعواه ، واتزانه
ومظهره الأدبي ، ويعرفون الخصم المبطل في
دعواه بتضارب أقواله ، وفلتاته المتناقضة ،
وتحويراته الملتوية ، وارتيابك مفاهيمه » . (٢)

أمور القضاء - يابني - متنوعة ومتشعبة ، ولها
جوانب متعددة تستحق أن تستوعب ، ويطول
البحث لو حاولنا حصر هذه الجوانب ، ولكن لعل

(١) النباهي ٥٣ ، ٣٠٢ .

(٢) رسالة مع القضاة ص ١١ .



من المناسب هنا أن نتحدث عن بساطة القضاء في زمن قريب مضى ، عندما كانت الحياة نفسها بسيطة في جميع جوانبها ، وبعيدة عن التعقيد الذي طرأ على حياة الناس ، نتحدث عنها عندما كانت المدن صغيرة ، لا يسكنها إلا أهلها ، وبعضهم يعرف بعضها ، وقضاتها يعرفون الناس معرفة تامة ، وقبل أن تصبح الحياة على ما هي عليه من سعة في رقعة المدن واندياح في مساحاتها ، وكثرة في الناس ، وتنوع في أصولهم وجنسياتهم ، مما جعل الجار لا يعرف جاره ، والقريب لا يرى قريبه إلا في المناسبات ؛ فالمدن اليوم - يابني - اختلط سكانها بآخرين مواطنين ووافدين ، واستلزم الأمر أن يكون القضاء متناسبا مع ما تطورت إليه الحياة ، فأصبح للقضاء وزارة من أكبر الوزارات ، ولها محاكم متنوعة ومنتشرة في ربوع المملكة . وأصبح القضاة يعدّون بالآلاف ، لهم كليات تؤهلهم ، ولهم معاهد يتخصصون فيها ، وأصبحت المحاكم دوائر منظمة منسقة تضم عدداً من الموظفين حسب

كبر المحكمة أو صغرها ، وحسب المحيط الذي تخدمه . وأصبح هناك كتاب عدل ، وديوان للمظالم ، ولجان لفض المنازعات ؛ ولهذا اختفت الصورة القديمة ، وحل محلها أخرى لا تزال تسير في نموها وتطورها يوما بعد يوم . وهذا كله - يا بني - لأن الله هياً لكل زمن ما يتناسب مع متطلباته ، رافة بعباده المؤمنين ، ولطفاً بهم .

والتطور هذا ليس صفة زمننا هذا فحسب ، وإنما حدث أيضاً ما يماثله عندما بدأت الدولة الإسلامية تنمو في عصرها الأول ، بعد أن توسعت ، ودخل ضمن سكان المدن سكان جدد ، وفدوا بسبب كثرة الداخلين في الاسلام ، وبسبب التنقل والاختلاف بين الفئات والأجناس والعناصر المختلفة . والذين عاصروا تلك الفترة يماثلون من عاصروا شبيهتها في زمن جدك ، وقد أبدى أحد أولئك في حينه للقاضي شريح ملاحظة عن هذا التغير ، واستغرب بعض ما اتخذه القاضي شريح من اجراء يتناسب مع اختلاف المجتمع وتغيره ، فقال



لشريح : « ما هذا الذي أحدثت يا أبا أمية ؟ » قال :
« إن الناس قد أحدثوا وأحدثت » .^(١)

وكما ترى وتعرف لقد رتبت الدولة - يا بني -
للقضاة مراتب وفق سلم خاص بهم ، يعدّ مميزاً لهم
عن غيرهم ، تقديراً منها للقضاء ، وتأكيداً لأهميته في
حياة الناس ، وفيما يقع بينهم من تخاصم ونزاع .
وجعلت القضاة فئات حسب علمهم ، ومدة
خدمتهم ، وما كسبوه من خبرة ، وحجم المحكمة
التي خدموا الناس فيها .

أما في الماضي ، على زمن جدك - يا بني - فكان
القضاة في الغالب لهم وصايا أو أوقاف يوصى بها
لهم أو توقف عليهم في أكثر الأحيان من محسنين قبل
موتهم ، وقد تكون تمراً أو قمحاً ، أو سكناً يقيمون
فيه . ولأن القاضي يكون في الغالب إمام المسجد
الجامع في المدينة ، فإنه يستفيد مما قد يكون أوقف
على المسجد من أهل الخير ، ومن « حويّط » فيه نخل

(١) وكيع ٣١٨/٢ .

ملاصق للمسجد ، أو ملحق بإحدى المزارع ، أو نخل معين في أحد البساتين . والقصة الطريفة الآتية قد تعطيك فكرة عن هذا الأمر في بعض جوانبه ، وقد رواها لي أحد القضاة الفكهين :

علم أهل إحدى القرى أنه قد وصل إلى قرية مجاورة قاضٍ عين لمجموعة من القرى المتقاربة ، فتواعد متخاصمون للذهاب إليه ، فذهبوا ووصلوا قبل صلاة الظهر في وقت القيلولة فطرقوا بابه ، فردّ عليهم من الداخل دون أن يفتح لهم ، وقال : « قيلوا فإن الشياطين لا تقبل » . قالوا : « من يأخذ مئة وخمسين وزنة تمر ، ومئتي صاع من البر في السنة ، فلا حق له أن يقبل » . قال : « من أي قرية أنتم » ؟ قالوا : « من القرية الفلانية » . قال : « لقد ظننت ذلك ، فكل أهلها عوج » . قالوا : « وهل يأتيك إلا الأعوج » ؟ يقصدون أن المتسامح يصلح مع خصمه ، ولا يزعج القاضي . قال : « والزبدة » ؟ « أي



ما نهاية هذا الجدل؟ قالوا: «لا زبدة بدون
خض» فاضطر إلى الخروج إليهم والفصل
بينهم.

فانظر - يا بني - إلى بساطة القوم ، وطريقة
جداهم ، وإلى اللغة والمنطق الذي تبادلوه مع
القاضي ، وإلى موقفه منهم ومعرفته بطباعهم . لقد
نزل إلى المستوى الذي ارتضوه لأنفسهم في
النقاش ، وكان متسامحاً معهم ، على الرغم من حدة
النقاش وجفافه ، ورضوا أن يحكم بينهم على الرغم
مما بادروه به من خشونه في كلامهم ، واصرار على
اغلاق راحته في هذا الوقت الضيق المزعج ، وعلى
الرغم من عنف رده عليهم ، فلم يخشوا أن يتحامل
عليهم بعد هذا كله ، وبسببه ، ولم يجل في خلداهم
أنه سيتأثر في حكمه بما حدث من جدل .

وقد خرج إليهم في هذه القيلولة ، وجلس معهم
في ظلّ «مَجْبَب» أي «سقيفة» ، أو «قبة» أو على
حبس أمام باب بيته (والحبس جزء من اسطوانة
عمود ، يوضع عند الباب من الخارج ، يستفيد منه

صاحب البيت ، يصعد عليه ، ليتمكن من فتح «المجرا» في أعلى الباب . و «المجرا» أداة لقفل الباب ، يلج منها لسان ينفذ إلى الجدار ، وفي اللسان فتحات صغيرة ، وعندما يغلق اللسان تسقط فيه عيدان صغيرة معلقة ، تقوم بقفل «المجرا» ، فلا يفتح اللسان إلا بمفتاح خشبي ، فيه عيدان صغيرة ناتئة ، ترفع تلك الأعواد الساقطة في الفتحات ، ويجر اللسان إلى الخارج ، فينفتح الباب ، و «المجرا» في الباب من الداخل ، وفي الجدار فوق مستوى «المجرا» فتحة صغيرة ، تدخل منها اليد إلى ما بعد المرفق ، يستطيع من خلالها الفاتح أن يفتح الباب .

وهناك أداة أخرى ، تسمى في بعض بلدان نجد «السكرة» أو «السكيرة» ، من التسكير وهو القفل أو الغلق ، وهذه تكون في أعلى الثلث الأسفل من الباب ، لاتصل إليها اليد من الخارج ، وهي لاستعمال أهل البيت من الداخل ، وهي بمثابة التأمين للباب من أن يفتحه أحد من الخارج إذا



أقفلت . ولا بد لمن يريد أن يدخل عند إغلاقها من أن يترك الباب ، حتى يفتح له من الداخل . والسكرة ملازمة لباب النساء ، وهي تقفل ليلاً . وباب « القهوة » وهو باب الرجال ، يقفل كذلك بالسكرة إلا إذا خرج رب البيت للصلاة ، أو لدعوة لوقت محدود ، أو للمرور بالسوق ، فإنه يقفل الباب بالمجرا ، حتى يتمكن من الدخول عند العودة ، دون أن يزعج أهل البيت ، والمفتاح مصنوع من الخشب ، وهو غير صغير ، وحمله مزعج ، ولكن الناس تعودوا على حمله والصبر عليه للحاجة ولعدم وجود ما هو أنسب منه ، وأصغر) .

لعله من المناسب - يا بني - هنا أن نلقي ضوءاً على مادعا هؤلاء الناس إلى ازعاج القاضي في وقت القيلولة ، دفاعاً عنهم ، وإنصافاً لهم ، إن هؤلاء الناس - يا بني - أهل كدٍ وكدح كما سبق أن صورت لك في حديث سابق^(١) . وهم من قرى نجد يعملون غالباً في مزارع تأخذ كل وقتهم . ولا بد

(١) انظر « أي بني » الجزء الرابع ١٦ - ١٨ .

أنهم قد انتهزوا الفرصة عندما أوضعت السواني^(١) فهي الفرصة الوحيدة التي يجد فيها الفلاح وقتاً يقضي فيه ما يلزمه . ولهذا ركبوا الصعب ، وأقدموا على الإزعاج ، وتحملوا سوء الظن فيهم ، وما قد ينالهم من قول قاس ، وعبارات لاذعة ، كما رأيت .

ولعلمهم أيضاً - يا بني - وهم ينطقون بالعتب على القاضي ، وأخذ القمح والتمر ، يشعرون بمرارة لدفعهم هذه الكمية لشخص قلّ ما يحتاجون إلى ما يأتي منه من مردود ، فنادرًا ما يحصل سوء تفاهم ، ونادرًا ما يحتاجون إلى فتوى . لهذا - ودون تحرّز - قفز إلى ذهنهم تذكيره بما يأخذه منهم دون عناء بينما هم يتعبون في سبيل الحصول على التمر والقمح سواء عملوا لأنفسهم أو كان عملهم لغيرهم من التجار الذين استأجروهم للعمل .

ولعله من المناسب الآن أن نوغل بعيداً في

(١) هذا تعبير يعني أن دوابّ السواني قد أخرجت من المنحاة ، وطرح ماعليها من حبال وعدة وأريحت في وقت القيلولة ، رحمة بها ، وإبقاء عليها .



الزمن ، فنرسم صورة للقضاء في الإسلام عند ظهوره :

القاضي الأول في الإسلام بالمعنى الواسع هو الرسول ﷺ ، فقد كان هو المرشد الأول للمسلمين ، وكان قضاؤه حكماً وإرشاداً والهدي الذي جاء به كان نوراً يسير المسلمون في ضوئه على الطريق المستقيم إلى الهدف السامي . ولما بدأ الإسلام ينتشر احتاج الناس في المناطق التي انضم أهلها للإسلام إلى من يرشدهم ، ويقضي في أمور الخصومات والمنازعات بينهم ، فأرسل الرسول ﷺ من يقوم بذلك ، ومن أول من أرسل علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري - رضي الله عنهم - إلى اليمن ، وأوصاهم بما يفعلون ، ورسم لهم القواعد والأسس التي يتخذونها للحكم بين الناس ، فكانت أحكامهم صائبة ، وأصبحت فيما بعد قدوة يتأسى بها .

وعندما جاء الخليفة الأول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - كان قاضيه في المدينة المنورة عمر بن

الخطاب - رضي الله عنه - فأول من قدم المدينة المنورة قاضياً في الإسلام، على ما حكاه ابن عبد البر، عمر بن الخطاب، ولاء أبو بكر الصديق، وقال له: «اقض بين الناس، فإني في شغل»^(١).

ولم يكن الصحابة في ذلك الزمن - رضوان الله عليهم - يستغني بعضهم عن بعض في التشاور فيما يستجد، مما لم يسبق للرسول ﷺ أن أرشد إليه، أو هدى إلى الطريق الصحيح فيه. وكان علي - رضوان الله عليه - من أبرز من كان يلجأ إليه في اعطاء المشورة، والخروج من المسائل الصعبة التي تجدد. وقد عُرف عنه من النباهة والفقہ ما كان مضرب المثل، وما أصبح قاعدة يسار عليها، ونبراساً يهتدى به، وقاعدة تحتذى. وقد وُصف بأنه أرسخ الصحابة في العلم بالقضاء - رضوان الله عليهم أجمعين - «وكان عمر بن الخطاب يتعوذ من معضلة ليس فيها أبو حسن»^(٢).

(١) النباهي ٢٢.

(٢) النباهي ٢٣.



ثم تولى الخلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - واتسعت رقعة البلاد الإسلامية ، وأصبح لا بد من قضاة هنا وهناك ، في الأراضي المستجدة ، التي هي في أشد الحاجة إلى مرشدين وقضاة وحكام يحكمون بين الناس . وكان من أبرز قضاة عمر - رضي الله عنه - في البصرة والكوفة - وهما أكبر حواضر المسلمين وقواعدهم للانطلاق شرقا من أجل الفتوح - من الأكابر منهم شريح وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري . والحسن البصري^(١) .

واستمر هؤلاء القضاة وأمثالهم حتى أفضى الأمر إلى معاوية ، فجرى بجهده على سنن من تقدمه من ملاحظة القضاة ، وبقي الأمر كذلك أيام الأمويين زمنا ، ثم فتر أيام يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، إلى أن ظهر بنو العباس ، فاعتنوا بأمر القضاء ، وتخيروا للأعمال الشرعية صدور العلماء^(٢) .

(١) النباهي ٢٢ .

(٢) النباهي ٢٤٠ .

ثم أصبح القضاة في كل مكان في المدينة المنورة ،
ومكة المكرمة ، ومصر وفي العراق كالبصرة والكوفة
وبغداد والجزيرة . وفي الشام تعدد القضاة أيضاً ،
وفي مصر كذلك . ويطول بنا الأمر لو عدّناهم ،
ولكنّ الذين اشتهروا منهم طبق ذكرهم الآفاق ،
وتحدث عنهم الكتاب لعلمهم ونباهتهم ،
وما اشتهروا به من أحكام بنيت على فقه وفطنة
ونباهة ويقظة ، حتى قال إياس بن معاوية ، وهو
أحدهم ، بحق عن نفسه : «لست بخبّ ، والخبّ
لا يخدعني»^(١) وهي صفة سبق أن وُصف بها عمر بن
الخطّاب - رضي الله عنه - .

ومن أشهر القضاة النبهاء في الإسلام : إياس
ابن معاوية ، وشريح بن عبد الله الكندي ، وعبد الله
ابن شبرمة ، والقاضي عياض ، وسوار بن عبد الله
ابن قدامة العنبري ، ومسروق بن الأجدع ، وعدي
ابن أرطاة ، والشعبي ، وشريك بن عبد الله
النخعي .

(١) وكيع ١/٣٤٨ .



وكبرت المدن - يابني - مع انتشار الإسلام ،
واتسع نطاقها ، وزاد سكانها وتعددت فئاتهم ،
واختلفت أجناسهم ، فاحتاجت المدينة الواحدة إلى
أكثر من قاضٍ واحد ، وتطور الأمر حتى وصل إلى
أن أصبح قاضيان يقضيان في مسجد واحد ؛ فكان
محمد بن عبد الله بن علاثة الكلابي وعافية بن يزيد
الأودي يقضيان في المسجد الجامع بالرصافة ، هذا
في أدناه ، وهذا في أقصاه^(١) .

أما القرى فلم يكن فيها قضاة في أول الأمر ،
لقلة السكان ، وقلة الخصومات بين الناس ،
وما يسود بين الناس من روح الأسرة الواحدة
والقبيلة الواحدة ، مما جعل البعد عن التنازع أقرب
إلى طبيعتهم ، والصلح أدنى إلى نفوسهم ؛ ولهذا
كان يكفي في المناطق الريفية والصحراوية وقراها
قاضٍ واحد ، فاليامة مثلا - وهي في منأى عن دار
الخلافة - كان لها قاضٍ واحد يرسل من بغداد
عندما أصبحت دار الخلافة هناك .

(١) وكيع ٣ / ٢٥١ .



أي بني !

بدأت أمور القضاة يسيرة سهلة ، فكان القاضي حينذاك يقضي بين الناس في المسجد ، وقد عرف ذلك عن عدد من القضاة ، أحدهم ثمامة بن عبد الله ابن أنس^(١) ، وشريح كان يقضي في المسجد^(٢) ، والشعبي مثلهما^(٣) ، وكذلك محارب بن دثار ، قاضي الكوفة^(٤) ، وأبا بكر بن حزم^(٥) ، ويحيى بن يعمر^(٦) وكانوا أحيانا يقضون في حجرة في المسجد ، فعل ذلك ابن عوف القاضي^(٧) أو في باحة المسجد أو خارجه كما عرف ذلك عن الحسن البصري ، في زمن عمر بن عبد العزيز^(٨) ، وكان ابن أوفى يقضي في الرحبة خارج المسجد^(٩) .

(١) وكيع ٢٢ / ٢ .

(٢) وكيع ٢٢٠ / ٢ .

(٣) وكيع ٤٢٧ / ٢ .

(٤) وكيع ٣١ / ٣ ، ٣٦ .

(٥) وكيع ١٤٥ / ١ .

(٦) وكيع ٣٠٦ / ٣ .

(٧) وكيع ٣١ / ٣ .

(٨) وكيع ١٤ / ٢ .

(٩) وكيع ٢٩٦ / ١ .



وكان بعضهم يقضي وهو في طريقه إلى المسجد ،
وقد يعدل عن طريقه فيجلس عند أحد البائعين
فيقضي لمستقض كما حدث في مصر للقاضي غوث
ابن سليمان ، وروي أنه :

قدمت امرأة من الريف ، وغوث بن
سليمان في محفة ، فوافته عند السراجين ،
فشكت إليه أمرها ، وأخبرته بحاجتها ، فنزل
عن دابته في حوانيت السراجين ولم يبلغ
المسجد ، وكتب لها بحاجتها ، وركب إلى
المسجد ، فانصرفت المرأة وهي تقول :
« أصابت والله أملك حين سمّتك غوثاً . أنت
غوث عند اسمك »^(١) .

ورؤي عبد الله بن بريدة القاضي يطوف
القرى على حمار ، يقضي بين الناس^(٢) ورؤي
أيضاً إياس بن معاوية يقضي في الطريق .
وكان يحيى بن يعمر يقضي في السوق

(١) وكيع ٣/ ٢٣٧ .

(٢) وكيع ٣/ ٣٠٦ .

راكبا^(١). وأبو عثمان عمرو بن سالم يقضي على باب داره^(٢). ورؤي يحيى بن يعمر يقضي بين الخصوم في مجلس قضائه، وإذا قام عنه قضى بين الناس ماشيا وراكبا وفي منزله^(٣).

ولعل العقل الراجح الذي كان القضاة يتصفون به، هو الذي أوحى لهم بهذا، فالقاضي إن لم ينجز المتقاضين الآن فسوف يتجمع الحمل عليه فيما بعد، ويلحقه الإثم للتأخير، فالأولى أن ينهي أمرهم الآن، لكي يكون لديه الوقت في مجلس القضاء لغيرهم^(٤)، وبهذا يتفادى الإثم ويكسب الأجر. إن تقواهم وورعهم قد حملهم على فعل هذا، بالإضافة إلى العقل الذي يقتضي - يا بني - أن يكسب المرء لا أن يخسر، خاصة إذا كان في الأمر ما يتصل بالآخرة.

(١) وكيع ٣/٣٠٦.

(٢) وكيع ٣/٣٠٧.

(٣) وكيع ٣/٣٠٥.

(٤) وكيع ١/٣٣٣.



ومما يروى أن شريحا قال : إذا رأيتموني أقضي في داري فانكروا عقلي ، إلا أن ابن المختار قال إنه رآه بعد ذلك يقضي في داره^(١).

ولعل شريحا قال ذلك حكما على الحال قبل أن يمارسها ، فلما مارسها وجد أن التطبيق يتطلب غير ما تتطلبه النظرة الأولى الخالية من التجربة .

وروي أيضاً أن عباس بن ميمون قال عن القاضي بالبصرة عيسى : إنه كان منعماً ، يحكم في منزله بالبصرة ، وهو على فرش طبري ، متساند إلى وسائد طبري ، وعليه قميص ورداء قصب ، وبين يديه ريحان^(٢).

إن هذه الصور المختلفة التي رويت عن بعض القضاة في المشرق إنما اختلفت لاختلاف وجهة نظرهم تبعاً لظروف مجتمعاتهم ، ولم تكن مجالس القضاة في الأندلس بعيدة عن هذا أيضاً .

(١) وكيع ٢/ ٢٥ .

(٢) وكيع ٢/ ١٧٢ .

فمن صور القضاء في الأندلس صورة تدل على بساطة الأمر في نظر أحد القضاة ، تبعا لبساطة الحالة المعيشية التي كان يعيشها القاضي ، وبساطة الناس الذين كان يخدمهم :

كان القاضي إبراهيم بن العباس القرشي ، أحد قضاة قرطبة يجلس يقضي في بيته بين الناس ، وخادمة له تنسج في ناحية البيت^(١) .

وهناك صورة مختلفة تماما عن الصورة السابقة التي اتسمت بالبساطة والتسامح ، فهذه صورة اتسمت بالحزم والاصرار على اتباع تنظيم فيه إضفاء هيبة على القضاء ورجاله ، ولعل هذا أتى انعكاسا لما كان عليه المجتمع في زمن أحمد بن زياد اللخمي صاحب هذه القصة :

كان أحد قضاة الأندلس ، شديد التهيب في قضائه ، لا يخاطب في شيء من أمر الخصوم إلا في مجلس نظره ، ولا يأذن لأحد يلقاه في طريق في

(١) قضاة قرطبة ١٤٧ .



مواكبته ، ولا أن ينصرف معه ، ومن ألحّ فيما لا ينبغي من ذلك أمر بحبسه^(١) .

ومثل هذا القاضي في الحرص على المحافظة على اجراءات التقاضي القاضي الأندلسي عمرو بن عبد الله بن ليث الملقب بالقُبَّة^(٢) :

يذكر محمد بن مسور أنه توجه ذات يوم إلى القاضي عمرو ، وذلك قبل الظهر . قال : فوجدت الناس ينتظرون خروجه إلى المسجد ، فخرج وبين يديه رجل يحمل خريطة بكتب ، وشيخ يمشي إلى جانبه ، فإذا همّ رجل أن يدنو من القاضي ليكلّمه في مسيره إلى المسجد دفعه عنه ، قال : اذهب حتى يجلس القاضي في مجلس القضاء^(٣) .

وعن صورة متكاملة لبعض إجراءات القضاء فيما روي عن القاضي محمد بن بشير المعافري أحد قضاة قرطبة :

(١) قضاة قرطبة ١٤٢ .

(٢) القُبَّة ، طوير أصغر من العصفور .

(٣) قضاة قرطبة ١٤٨ .



أنه كان يقضي في سقيفة معلقة بقبلي
مسجد أبي عثمان ، وكانت داره في الدرب
الذي بقبلي المسجد ، وكان إذا قعد للقضاء
جلس وحده ، لا يجلس معه أحد ، وخريطته
بين يديه ، ويتولى أكثر الكتاب (كذا) بيده ،
فيتقدم الخصوم على كئب ، فيقف الخصمان
على أقدامهما ، فيدليان بحجتهما ، ثم يفصل
بينهما .

وكان يقعد لسماع الخصومة من غدوة إلى
قبل الظهر بساعة ، ثم يقعد بعد صلاة
الظهر إلى العصر ، لا يكون نظره غير السماع
من البيئات ، ولا يسمع من بينة في غير ذلك
الوقت ، وكان لا يخاليه أحد في مجلس نظره
ولا في داره ، ولا يقرأ كتابا لأحد في سبب من
أسباب الخصومة^(١) .

أما الأحكام - يابني - فكانت تنفذ - كما يبدو -
في الأماكن التي تتناسب مع طبيعتها : في الباحات

(١) قضاة قرطبة ٧٦-٧٧ .



أو في الأسواق ، أو على طريق المدينة ، يحدد ذلك نوع الحكم ، ومقتضياته من تأديب أو تشهير . ولقد روي من أمور التأديب ، وتنفيذ الأحكام وأماكنها ، ما يوجب الالتفات ، بل التعجب أحياناً :

قيل إن الشعبي كان يقضي في حجرة المسجد ، فأتاه نصراني ومسلم وقد تقاذفا ، فأمر بالنصراني فجلد على ثيابه الحد في المسجد^(١) . ورَوَى القاضي ابن شبرمة أنه رأى الشعبي أقام على رجل الحد في المسجد^(٢) . ورَوَى أبو ليلي يضرب الحدود في المساجد^(٣) .

أي بني !

لقد كان الأصل في نظر ولاية المسلمين ألا يأخذ القاضي أجراً على عمله ، إكتفاء بما يتوقع له من الأجر العظيم في الآخرة ، وذلك على الرغم مما

(١) وكيع ٤٢٨/٢ .

(٢) وكيع ٤١٥/٢ .

(٣) وكيع ١٣٥/٣ .

يشعر به القاضي في العادة من خوف الزلل أو الحيف أو التعرض لما يجعله أحد القاضيين اللذين في النار . وقد نوّه النباهي^(١) بخطورة القضاء حين فصل الكلام في حديث الرسول ﷺ : «الحكام ثلاثة : إثنان في النار وواحد في الجنة ؛ حَكَمَ حَكَمَ بجهلٍ فَخَسِرَ فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففي النار ، وَحَكَمَ حَكَمَ ، فخذل - أي جار - فأهلك أموال الناس وأهلك نفسه ففي النار ، وَحَكَمَ عَلِمَ ، فعدل فأحرز أموال الناس وأحرز نفسه ففي الجنة» .

ومما يدل على عدم أخذ أجر على القضاء بين الناس ما روي عن سفيان أنه قال : «قرأت كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى : لا تستقضين إلا ذا مال وذا حسب ، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس»^(٢) .

(١) النباهي ص ٩ .

(٢) وكيع ١/٧٦ .



وعمر يعرف مدى ضعف النفس البشرية
المحتاجة إلى المال ، ومدى ضعف مقاومة المرء له ،
كما يعرف مدى أهمية الحسب في ذلك المجتمع مما
يجعل صاحبه في منعة من الخوف .

وربما كان المال أحد أهم ما يؤدي إلى الشبهة في
القاضي من أهل الشكوك ، لذلك نجد القاضي
الأندلسي محمد بن يبقى بن ذرب قد احتاط للأمر
فقد روي عنه أنه :

لما ولي القضاء احتبس خواص أصحابه
المشاورين ، وقد جاؤوه مهئين ، فأمر غلامه
فكشف عن مال عظيم صامت في صندوق له
وقال : « يا أصحابنا قد عرفتم مانحن به من
تولي القضاء قديما عن سوء الظن وأخشى أن
أطلق الناس على غرضي ، وهذا حاصل ،
وفيه من العين كذا ، وفي مخازني ما بقي
بقيته ، وحظي من التجارة ما علمتم ، فإن
فشى من مالي ما يناسب هذا فلا لوم ، وإن

تباعده عن ذلك فقد وجب مقتي ، وأسأل الله
تخليصي مما تنسبت فيه»^(١) .

والقاضي الأندلسي ، قاضي مالقه ، محمد بن
الحسن الجذامي النباهي ، محافظة منه على مصدر
ثروته التي يريد أن يعتمد عليها ، بعيداً عن أجر
القضاء ، اشترط عندما أجبر على تولي القضاء من
قبل الأمير يحيى من جملة ما اشترط ، أن ينفرد يومين
من كل جمعة برسم تفقد أملاكه والنظر في مصالح
نفسه الخاصة به^(٢) .

ومثل ذلك فعل القاضي الأندلسي
المصعب بن عمران الهمداني الذي اشترط
على الأمير هشام ، إذا قبل منه القضاء ، أن
يأذن له في اطلاع ضيعته كل يوم سبت ويوم
أحد ، فرضي له بذلك^(٣) .

ثم تطورت الأمور ، وسارت الأيام ، فجاء وقت

(١) النباهي ٧٧ .

(٢) النباهي ٩٠ .

(٣) قضاة قرطبة ٦٩ .



أصبح لا مفرّ معه من تعيين رَزَقٍ يعيش منه القاضي ، أو مرتب ، أو هما معا ، وتفاوتت أمور القضاة في هذا وماورد عن هذا في الكتب التي وصلتنا نجد صوراً في التفاوت في هذا بين القضاة ، وهذا حسب زمنهم وتقاهم وحالتهم الاجتماعية ، فمن الذين رُوي أنهم كانوا لا يأخذون شيئاً الحسن ابن أبي الحسن البصري فهو لم يكن يأخذ أجراً قط ، بل لقد رُوي عنه أنه كان يكره ذلك^(١) . ويُذكر أيضاً أن القاضي الأندلسي محمد بن الحسن النباهي لم يكن يأخذ على القضاء رزقاً من بيت المال مدة حياته^(٢) ، ومثله القاضي بافريقيا عبد السلام بن سعيد ، الملقب بسحنون ، فهو لم يأخذ لنفسه مدة قضائه من السلطان شيئاً^(٣) . وكذلك زرعة ابن أيوب المعري الذي لم يكن يأخذ على القضاء رزقاً^(٤) .

(١) وكيع ٨/٢ ، ١١ .

(٢) النباهي ٩٢ .

(٣) النباهي ٣٠ .

(٤) وكيع ٢٠٢/٣ .

ولكن بعض القضاة كان يأخذ رَزَقاً معيناً محدوداً
أو لعله مرتباً، ومن أشهر هؤلاء القاضي سوار بن
عبد الله الذي رُوي أنه كان يأخذ مئتي درهم^(١)،
وذكر الشعبي أن شريحاً كان يأخذ على القضاء مئة
درهم كل شهر ويقول: «أستوفي منهم،
وأوفيهم»^(٢). ثم إن ما كان يأخذه شريح على
القضاء تدرّج حتى أصبح خمس مئة درهم في كل
شهر^(٣).

وكان رَزَق إياس بن معاوية على القضاء مئة
درهم^(٤). أما ابن أبي ليلى القاضي فكان يتقاضى مئة
 وخمسين درهماً في كل شهر^(٥)، وقيل إنه كان يتقاضى
مئتي درهم^(٦). وقال مالك بن أنس أن عمر بن
عبد العزيز لما قدم المدينة المنورة أمر رجلاً بأن يقضي

(١) وكيع ٢/٨٦.

(٢) وكيع ٢/٢٢٧.

(٣) وكيع ٢/٢٢٧.

(٤) وكيع ١/٣٤٢.

(٥) وكيع ٣/١٣٠.

(٦) وكيع ٣/١٣٠.



بين الناس ، وأجرى له في الشهر دينارين^(١) ،
وعندما ولي أبو لهيعة القضاء لأبي جعفر أجرى عليه
ثلاثون ديناراً^(٢) .

وهناك صور - يابني - تستحق أن تفرد عن
غيرها بالذكر ، لما تكشف عنه النصوص القليلة
الدالة عليها مما يتصل بالقاضي وأجره وهي صور
تدل على مجمل الدخل الذي كان يحصل عليه
القاضي أحياناً في فترة من الفترات : رُوي أن ابن
حجيرة كان مع عبد العزيز بن مروان على القضاء
والقصص وبيت المال ؛ فكان يأخذ رزقه في القضاء
مئتي دينار ، وفي القصص مئتي دينار ، وفي بيت
المال مئتي دينار ، وجائزة مئتي دينار ، وعطارة مئتي
دينار ؛ فكان يأخذ في السنة ألف دينار^(٣) .

ولم تكن النصوص تقتصر دائماً على ذكر ما يأخذه
القاضي ، وإنما كانت تتعدى ذلك أحياناً إلى ذكر

(١) وكيع ١/١٣٤ .

(٢) وكيع ٣/٢٣٥ .

(٣) وكيع ٣/٢٢٥ .

ما كان يأخذه من يعملون معه من أعوانه . وفي النص الآتي ترى - يابني - أنه كان إلى جانب القاضي من العاملين من يقبض راتباً ، وهو أمر يستغرب آنذاك ، ولقد أصبح هؤلاء العاملين فيما بعد نواة التنظيم الذي تطور إليه عمل القاضي بمرور الزمن ، وما روي في هذا الصدد الآتي :

كانت أرزاق أبي شيبة في كل شهر مئة وخمسين درهماً ، ثلاثين منها للكتابة وأعوانه ، ثم صارت ثلاث مئة ، ثم صارت أربع مئة وثمانين^(١) وقيل إن سواراً كان أول من اتخذ الأمناء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وطوّل السجلات^(٢) .

ويكشف ما يأخذه القضاة من رزق أو أجر عن مدى الورع والعفة عند بعضهم وعما كانوا يشعرون به - يابني - تجاه عملهم وما يترتب عليه من أجر فهذا القاضي الأندلسي محمد بن بشير المعافري

(١) وكيع ٣ / ٣١٠ .

(٢) وكيع ٢ / ٥٨ .



اشترط عند تعيينه قاضياً أن يكون رزقه من المال الفيء^(١). وعندما دُعي أبو خزيمة للقضاء وأجرى عليه في كل شهر عشرة دنائير كان لا يأخذ عن يوم الجمعة رزقاً ويقول: إنما أنا أجير المسلمين فإذا لم أعمل لهم لم آخذ متاعهم^(٢).

هنا - يا بني - يحسن أن نقف لتأمل فائدة أتت في النص السابق عرضاً. فنحن مثل الصياد الذي خرج ليصطاد نوعاً معيناً من الطير فعرض له طير من نوع آخر، ففرح به وصاده ثم ضمّه إلى ما بحوزته من الصيد، لما وجدته فيه من فائدة لم يكن يخطر على باله أنه سيجدها. إنك - يا بني - لو سئلت هل كان الأمويون والعباسيون يأخذون يوماً من أيام الأسبوع أجازة؟ وإذا كان الأمر كذلك فأني يوم كان ذلك اليوم؟ إنه لو وُجّه لك هذان السؤالان لاحترت في الإجابة حيرة لا يلبث هذا النص الواضح أن يزيلها حتى يؤكد أنه كان عندهم يوم

(١) النباهي ٤٨.

(٢) وكيع ٣/٣٣٣.

إجازة ، وأنه كان يوم الجمعة . لقد أكد ذلك قطعاً وأزال عنك الشك ومنك الحيرة ، ما روي من أن أبا خزيمة هذا القاضي التقي الورع لم يكن يأخذ عن يوم الجمعة أجراً لأنه لم يكن يعمل فيه .

ومن هذا القبيل يُروى خبر يبين مدى تخرج القاضي مُعاذ بن مُعاذ فيما يأخذه ، ففي يوم مطير قال لابنه : أي بني ! امض بنا نجلس للناس . فقال له ابنه : يا أبت هذا يوم مطير لا يجيء فيه الناس . فقال : يا بني ، إمض بنا ، فيم نستحل أن نأخذ كل يوم كذا وكذا درهما؟ وخرج وجلس^(١) .

أما القاضي نصر بن ظريف اليحصبي الأندلسي ، فقد كان من أمر زهده وورعه أنه إذا شغل عن القضاء يوماً واحداً لم يأخذ لذلك اليوم أجراً^(٢) .

وكان عمر بن شراحيل ومعاوية بن صالح من قضاة الأندلس إذا عاق أيّا منها شغل في يوم من

(١) وكيع ١٣٨/٢ .

(٢) النباهي ٤٤ .



الأيام لم يقبض عنه ذلك اليوم رزقاً^(١).

ويروى أن القاضي سليمان بن أسود الغافقي ذهب لما عزل عن قضاء «ماردة» إلى قصر الحاكم ، وقال : «إن بيدي مالا تجمع من أرزاقى وجب عليّ صرفه لبيت المال ، وهو مما حاسبت نفسي فيه من أيام الجمع ، وأوقات الاشغال ، والأحيان التي وجبت عليّ النظر فيها ولم أنظر»^(٢).

أي بني !

من الأمور التي قد تهلك مما يتصل بالقضاء ، اختيار القاضي ، وعرض منصب القضاء عليه ، ورفضه ، ثم إجباره ، أو قبول عذره ، أو فراره من هذا المنصب بحيلة ، يروى أن هارون الرشيد أراد :

أن يولي بعض القضاة ، ومن بينهم وكيع ، فكل قدم عذراً ، فابن إدريس قال :

(١) قضاة قرطبة ٦١ .

(٢) قضاة قرطبة ١٥٦ .

السلام عليكم ، وطرح نفسه كأنه مفلوج .
فقال هارون : « خذوا بيد الشيخ لا فضل في
هذا » . أما عذر وكيع فإنه احتال بحيلة
نجحت إذ قال ردّا على هارون عندما قال
له : « تلي القضاء » قال : يا أمير المؤمنين -
وأشار بسبابته إلى عينه - ما أبصرت بها منذ
سنة » . فظن هارون أنه يعني عينه ، وإنما
عنى وكيع سبابته ^(١) .

ونقل عن عثمان بن عفان أنه قال لعبد الله
ابن عمر بن الخطاب : « اقض بين الناس » .
قال : « لا أقضي بين رجلين ما بقيت » . قال :
« لتفعلن » . قال : « لا أفعلن » . قال : « فإن
أباك كان يقضي » . قال : « كان أبي أعلم
مني ، وأتقى » ^(٢) .

ولم يكن الأمر يقف دائما - يا بني - عند العرض
والاعتذار أو اللجوء إلى حيلة ، أو قبول مظهر

(١) وكيع ٣/ ١٨٤ .

(٢) النباهي ١١ .



للحاكم من عذر ولكنه كان يتعدى أحيانا إلى المحنة والأذى ، يصيب المرشح للقضاء منهما شيء كثير نتيجة تأييده عن قبول منصب القضاء الذي يراه الحاكم فرض كفاية ، وذلك حين كان الحاكم لا يجد من هو أولى به من شخص بعينه . فهناك من المرشحين من تعرض للسجن والضرب نتيجة تمسكه برأيه في الرفض ، يقول النباهي :

« لما تقرر من بلاء القضاء فرّ عنه كثير من الفضلاء وتغيّبوا حتى تركوا ، وسجن بسببه عند الامتناع آخرون منهم أبو حنيفة وهو النعمان بن ثابت ، دعاه عمر بن هبيرة للقضاء فأبى فحبسه ، وضربه أياما ، كل يوم عشرة أسواط ، وهو متماد على إبايته إلى أن تركه »^(١).

أي بني !

تكشف بعض القصص جوانب نفسية تعمل

(١) النباهي ١١ .

داخل القاضي أحيانا وتدّل عليها بعض تصرفاته ، فهو يرفض القضاء ويتعد عنه ابتعاده عن حية تقرب منه ، ويجفل منه اجفال من رأى سبعا مقبلا نحوه ، أو يذعر ذعر من رأى صخرة تنحدر عليه من عل ، فهو يرفضه تخرج لورعه من ارتكاب ظلم ويعتذر ويلح في ذلك ، ولكنه قد يجبر على قبوله مرغما ، فيقضي فيه فترة ما ، إلى أن يعفى من عمله . وعند العزل يبرز لديه شعور آخر مغاير تماما ، ولكنه مساو له في القوة والأهمية ، وقد يزيد عليه ، وهو توقعه الشئاة من أنداده وأقرانه ممن لم يسبق اختيارهم للمنصب بدلا منه ، وتوقعه التشفي ممن سبق أن حكم القاضي عليهم إبان تقلده القضاء .

يروى في هذا الصدد أن القاضي محارب بن دثار قال :

«وليت القضاء فبكيت ، وبكى أهلي ،
وعزلت عن القضاء ، فبكيت وبكى
أهلي»^(١) .

(١) وكيع ٢٥ / ٣ .



وقال عامر بن عبيدة الباهلي :

«أتيت عبد الملك بن يعلى ، لما ولي
القضاء ، فوجدت بابه مغلقاً والناس
مجمعون ، فاستأذنت ، فأذن لي ، وهو
يتململ كالمرأة الماخض ، فقلت له :
« ما بك ؟ » فقال : « وليت القضاء » . فلما
عزل أتيته ، وهو يتململ ، فقال : « عزلت ،
واشتتاة الأعداء ! »^(١) .

وهناك قصة أخرى - يا بني - تستحق أن نفصل
أخبارها لك :

كان الأمير عبد الرحمن بن معاوية في
الأندلس يدبيل القضاء بين عمر بن شراحيل
ومعاوية بن صالح ، فانقضى عام وعمر في
القضاء ، ولم يحركه ، فكتب معاوية إلى الأمير
عبد الرحمن يحركه في ولايته ، ويعلمه أن عام
صاحبه قد انقضى . فلما قرأ الأمير عبد الرحمن

(١) وكيع ٣ / ١٩ .

كتابه أنكره ، واستفظعه ، وأمر بإدخال معاوية على نفسه ، فلما دخل إليه قال : « هذا كتابك ؟ » قال : « نعم » . قال : « ومثلك يطلب ولاية القضاء ، وقد علمت ما جاء في ذلك من الأثر فيمن طلبها ، (ومن طلبها) وكل إلى نفسه فيها ؟ »

فقال : « أصلح الله الأمير ، وليتني القضاء في أول الأمر وأنا كاره ، فتوليت ، فلما تولى رأس الشهر رزقني الله رزقاً واسعاً توسعت به ، ثم استمر الرزق كل شهر ، حتى عزلتني عند رأس العام ، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت معزولاً (فيه) بفضول من رزق العام الأول فانقضت تلك الفضول بانقضاء العام . ثم وليتني فعاد عليّ الرزق ، فكانت هذه حالتي إلى هذا الوقت . وقد انقضت فضولي الباقية من رزق العام الأول ، وانقضى العام ، فانتظرت الولاية التي يكون بها الرزق ، فأبطأت عني ،



فكتبت إلى الأمير مُذَكِّراً ، مع أنه إن طلبت
الولاية فقد طلبها من ظلّه في الأرض خير مني
يوسف عليه السلام قال : « اجعلني على
خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم »^(١) .

فقبل الأمير قوله منه ، وأمر بعزل عمر بن
سراحيل وتولية معاوية .

وهناك قصة أخرى - يا بني - تندرج في الاطار
الذي نتحدث عنه ، وهي تصور التآبي عن قبول
منصب القضاء في أول الأمر تورّعا وخوفا من الزلل
المؤدي إلى العقاب في الآخرة ، وتقوى وتقربا إلى الله
بالنية الطيبة ، ثم الحرص بعد ذلك على المحافظة
على هذا المنصب دفعا لشهامة الأعداء .

لما وليّ أبو جعفر المنصور القاضي شريكا
الكوفة ، أتى شريك عبيد الله بن العباس بن
محمد ، فقال له : استعف لي أمير المؤمنين
فقال له : « إني لأعزل من ذلك ؛ إن أمير

(١) يوسف ٥٥ .



المؤمنين لا يُردُّ عن عزماته» فلما تُوفِّي المنصور، وولي المهدي، قال له عبيد الله: «إنك كنت سألتني أن استعفي لك أمير المؤمنين، فأبيت عليك. وأمير المؤمنين ألين جانباً، وأحرى أن يجيبنا إلى مانسأله، فإن شئت استعفيته». قال: «أما الآن فإني أكره شماتة الأعداء»^(١).

أي بني!

دعنا الآن نكتفي بهذا اللون من القصص التي وضحت أحوال القضاة عند التنصيب والعزل، ولننتقل الآن إلى ألوان أخرى من قصص القضاة والقضاء التي يحسن أن نعرفها، لأنها تضيف جديداً إلى ما عرفته من القصص السابقة عن شؤون القضاة.

ولك أن تعجب - يا بني - بادئ ذي بدء عندما تعرف بساطة القضاء في صدر الإسلام، وبساطة المؤهلات المطلوب توافرها فيمن يعين ليقضي بين

(١) وكيع ١٥٣/٣.



الناس ، وأوضح صورة لهذه البساطة ما قاله عبد الله
ابن مسعود :

« أتى علينا حين لا نقضي ولا نحسن
القضاء ، ثم قدر الله ماترون »^(١) .

ولمثل هذه الدلالة تشير القصة الآتية :

« دخل مروان بن الحسن عام خمس وستين
مصر ، فقال أين قاضيكم - وكان عابس بن
سعيد - فدعي ، وكان أميا لا يكتب . فقال
له مروان : « أجمعت كتاب الله ؟ » قال :
« لا » . قال : « وأحكمت الفرائض ؟ » قال :
« لا » . قال : « فلم تقض بين الناس ؟ » قال :
« أقضي بما أعلم ، وأسأل عما جهلت » .
قال : « أنت القاضي »^(٢) .

أي بني !

هذا هو الحال في صدر الإسلام ، لقد كان

(١) وكيع ٢ / ١٨٨ .

(٢) وكيع ٣ / ٢١٣ .

الناس حينذاك يعيشون في ظل التعاليم الدينية الصافية ، يحكم الإسلام جميع أمورهم ، يعرفونه عمليا ، ويلوّن حياتهم اليومية بكاملها ، ولم تكن الحياة قد تعقّدت إلى حد يعجز معه مثل عابس أن يُري المتقاضين نور الطريق الهادي إلى الحق والعدل ، والصراط السوّي .

لقد مثّل قول عائشة - رضي الله عنها - «إنما القضاء أن يؤخذ للمظلوم من الظالم» . شعار القضاء آنذاك أصحّ تمثيل وأصدق ، ولكن هذا القول دعا - فيما بعد - سليمان الشاذكوني إلى أن يقول : «صدق (الراوي) ، ولكن ينبغي أن يُعرّف المظلوم من الظالم»^(١) . وهنا يظهر الاختلاف بين القضاة ، ويظهر ما يميز به أحدهم عن الآخر من اختلاف في التجربة . وإن ما قالته عائشة - رضي الله عنها - يابني - ينطبق أصدق انطباق على زمنها وأهله عندما كان الناس ينصفون من أنفسهم ، ويريحون القاضي من السعي وراء الحقيقة ، ومن

(١) وكيع ٤٨/٢ .



تحرّرها بين المتقاضين .

أما في زمن سليمان هذا فقد فسدت ذمم الناس
إلا من رحم الله ، وتغيّرت أخلاقهم إلى غير ما كانت
عليه ، فأصبح القضاء يحتاج إلى إضافة تكمّل
تعريفه ، وتوسع حدود هذا التعريف . ولقد دعا
الزمان الجديد القاضي أبا طوالة أيضاً إلى أن يقول :
ليت لنا أخلاق آبائنا في الجاهلية مع إسلامنا^(١) .
وهو لم يقل هذا إيماناً منه بأن زمن الجاهلية خير من
زمن الإسلام ، ولكنه أراد العتب على أهل زمنه ،
وإشعارهم بالإثم ، فجهم الأمر بهذه الصورة ،
وسوّده بهذا اللون .

ولا بدّ أنه قد مرّت في ذهنه بعض الصور المضيئة
التي كانت تقع بين آن وآخر في الجاهلية نتيجة إدراك
بعض الناس بالفطرة والتدبر في الكون وخالقه ،
وفي المجتمعات وما فيها ، أن هناك خالقاً ، وأن
هناك أخلاقاً هي أفضل مما هو سائد عند عامة
الناس آنذاك :

(١) وكيع ١/١٤٧ .

عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما -
قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره
إلى الكعبة في الجاهلية ، وهو يقول :

«يامعشر قريش ، إياكم والزَّنى ، فإنه
يورث الفقر»^(١) .

رؤي أيضاً عن وكيع بن سلمة بن زهير بن إياد -
وكان قد ولي أمر البيت بعد جرهم - قوله من كلام
نقتطع منه ما يأتي :

«مرضعة وفاطمة ، القطيعة والفجيعة ،
وصلة الرحم ، وحسن الكلم ، . . . وان
من في الأرض عبيد لمن في السماء ، هلك
جرهم ، وربلت إياد ، وكذلك الصلاح
والفساد ؛ من رشد فاتبعوه ، ومن غوي
فأرفضوه ؛ كل شاة معلقة برجلها»^(٢) .

(١) مجالس ثعلب ١/٢١٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٠٩ .



أي بني !

كل جيل يرى أن جيله يختلف عمن سبقه ،
ويعدّ جيله متدهوراً في بعض النواحي . هذا أبو ذرّ
الغفاري مثلاً يقول عن زمانه عتياً ، وحثاً على
التّحسّن مع أنه كان زمان الصّلاح والتّقوى .

« كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا
شوكاً لا ورق فيه »^(١) .

وهذا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -
يقول : عهدت الناس وهواهم تبع لأديانهم ، وإن
الناس اليوم أديانهم تبع لهواهم »^(٢) .

وروي أن عائشة - رضي الله عنها - تمثلت بقول
ليبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الأجر

(١) البيان والتبيين ١٩٧/٢ . وزاد عليه صاحب محاضرات الأدباء ٢٥٥

« ان نفرتم نفروك ، وان تركتهم ماتركوك » .

(٢) المستطرف ١/٣٤٠ .



يتحدثون ملالة وخيانة
ويعاب قائلهم وإن لم يشعب

ثم قالت : كيف لو أدرك لبید زماننا هذا ؟ قال
ابن عباس : رحم الله لبیدا ، ورحم عائشة ، لقد
أصبت باليمن سهما في خزائن عاد كأطول ما يكون
من رماحكم هذه ، مريش مفوق ، مكتوب عليها :

فهل لي إلى أجيال هند بذی اللّوى
لوى الرمل من قبل الممات معاد
بلاد بها كنا ونحن نحبها
إذ الناس ناس والبلاد بلاد^(١)

أي بني !

في زمن عمر بن عبد العزيز تطورت مؤهلات
القاضي إلى إطار يتناسب مع ما أصبح عليه الناس
ومع ما طرأ على المجتمع من كثرة الخلطاء ، وارتفاع
عددهم ، وتوسع المدن والذمم ، قال عمر بن
عبد العزيز - رحمه الله - :

(١) بهجة المجالس ٧٩٧/٢ .



«لا يصلح القاضي إلا أن تكون فيه خمس
خصال: يكون صليبا، نزها، عفيفا،
حليما، عليما بما كان قبله من القضاة
والسنن»^(١).

ولا بد أن يضاف إلى ما ذكره عمر بن عبد العزيز -
رحمه الله - نباهة القاضي ، وذكاءه ، وفراصة وافية
يتميز بها الحقيقة من الزيف ، والأصل من
التدليس ، والصدق من الكذب ، وما هو مقبول من
الأدلة لأنه يمثل الواقع ، وما هو مرفوض لأنه
مفتعل . ويحتاج القاضي وراء ذلك كله إلى
التجربة ، فهي تزيد نباهته حدة ، وتكون عنده
ملكة تسعفه وقت الحاجة ، وتوفر عليه وقتاً
وجهداً ، وتجعله يتميز عن غيره من القضاة
المحدثين ، في كشف أستار الأمور ، فلا ينخدع بما
قد يظهره الخصم من تصنع قد يغترُّ به غيره :

قال الشعبي : «شهدت شريحا ، وجاءته
امرأة تحاصم رجلا فأرسلت عينها ، فبكت ،

(١) وكيع ١/٥٧ ، ٢/٤٢٣ .

فقلت : يا أبا أمية ، ما أظن هذه البائسة إلا
مظلومة» . فقال : «يا شعبي ، إن إخوة
يوسف ، «جاءوا أباهم عشاء يبكون»^(١) .

هنا - يا بني - يتلاقى الذكاء والعلم والتجربة
والفراسة ، مما ساعد شريحا على أن يرى ما لم ير
الشعبي ، وعلى أن يحتاط في هذا الموقف العاطفي
المؤثر الذي شغف قلب الشعبي .

وإذا اجتمع الذكاء والعلم عند القاضي النابه ،
أمكنه أن يستبعد بهما الشاهد الذي لا يجده أهلا
للسهادة . واستبعاد الشهود من الأمور التي يحتاج
فيها القاضي إلى اجتماع الذكاء والعلم ، يُروى في
هذا الصدد أنه قد :

«جاء إلى شريح شاهد ، وعليه قباء
مخروط الكمّين ، فقال له شريح : أتحسن
توضأ؟» قال : «نعم» . فقال : «إحسر عن
ذراعيك» . فذهب يحسر ، فلم يستطع أن

(١) وكيع ٢/ ٢٢١ . والقرآن الكريم ، سورة يوسف ، آية ١٦ .



يخرج يده ، فقال شريح : « قم فلا شهادة لك »^(١) .

ومن القصص التي تبدو فيها اللباقة إلى جانب الذكاء والعلم ما فعله القاضي إياس عندما تقدم له وكيع بن أبي الأسود ، صاحب خراسان ، ليشهد عنده . فقال له : « ما حاجتك ؟ » قال : « جئت لأشهد » . قال إياس : « مالك وللشهادة ؟ إنما يشهد الموالي والتجار والسفلة » قال : « صدقت » ، وانصرف . فقالوا لوكيع : « خدعك ، إنه لا يقبل شهادتك ، وردك » . قال : « لو علمت لعلوته بالقضيب »^(٢) .

ولإياس هذا موقف آخر يدل على ذكاء نادر ، وإدراك ناضج ؛ فقد جاءته امرأتان تحتصمان في كبة غزل ، وليس معهما بينة ، فعزل واحدة عن الأخرى ، وسأل إحداهن منفردة :

(١) وكيع ٢ / ٣٠٠ .

(٢) وكيع ١ / ٣٤٣ .

«على أي شيء كبيت غزلك»^(١). قالت :
«على كسرة خبز ، فنحّاهما» ، وقرب
الأخرى ، فقال : «على أي شيء كبيت
غزلك؟» قالت : «على خرقة» . فأمر بالكبة
فنقضت فإذا هي على كسرة خبز^(٢).

وفي قصة أخرى لإياس نراه لحسن ذكائه
وإدراكه ، يصل إلى هدفه في إيضاح المعنى وإظهار
الحقيقة :

جاء رجلان يختصمان في قطيفتين : احدهما
حمراء ، والأخرى خضراء ؛ فقال أحدهما :
«دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ،
وجاء هذا فوضع قطيفته بجانب قطيفتي ثم
دخل واغتسل فخرج قبلي ، فأخذ قطيفتي
ومضى بها ، ثم خرجت فتبعته ، فزعم أن
مامعه قطيفته» . فقال له إياس : «هل لديك

(١) أي ماهي الأداة الصلبة التي بنيت عليها بدء الغزل وهو ما يسمى
«المغزل» .

(٢) وكيع ٣٣٢/١ .



بيّنة؟» قال : « لا » . قال : « إيتوني بمشط ،
فسرّح رأس هذا ، ورأس هذا ، فخرج من
رأس أحدهما صوف أحمر ، وخرج من رأس
الآخر صوف أخضر - فقضى بالحمراء للذي
خرج من رأسه أحمر ، وبالأخضر للذي
خرج من رأسه صوف أخضر »^(١) .

ومن القصص المشهورة عن إياس أيضاً ، وهي
تدل على تبصر وأناة ، وعمق في التفكير ، وعلى
معرفة بالطرق الكاشفة لحيل المحتالين ، والحامية
للطيبين الأبرياء من ألاعيب الخبثاء ، القصة التي
تقول :

إن رجلاً أودع عند آخر كيسا فيه دنانير ،
فغاب المودع خمس عشرة سنة ، ثم رجع وقد
فتق المودع عنده الكيس من أسفله ، وأخذ
ما فيه ، وجعل مكان الدنانير دراهم ، وأبقى
الخاتم على حاله دون أن يمسه ، ونازعه عند

(١) وكيع ٣٣٩ / ١ . راجع ما سبق ص ١٠٨ .

إياس القاضي . فقال إياس : « منذ كم أودعته ؟ » قال : « منذ خمس عشرة سنة » فقال المودع عنده : « صَدَقَ » . فأخرج إياس الدراهم فوجد فيها ما ضرب منذ عشر سنين وخمس سنين . فقال للمودع عنده : « إنه أودعك منذ خمس عشرة سنة ، وهذا ضرب أحدث مما ذكرت » . فأقر له بوديعة ، ودفعها إليه ^(١) .

ولنا الآن وقفة قصيرة - يا بني - نعلق فيها على هذه القصة ، وننبّه إلى أنه مما جرت به العادة أن كل لص في أي مجال يخطط دائماً للخطوات العملية لارتكاب جريمته ، وفي الوقت نفسه يجهد فكره في تغطية أي أثر يدل عليه . واسمع - يا بني - القصة الآتية فهي تعطيك مزيداً من الإيضاح لما نقول . وهي أيضاً تجعلك تدهش لماذا يصرف بعض الناس نعمة الذكاء التي أنعم الله بها عليهم إلى طريق الغواية والضلال بدلاً

(١) وكيع ٣٤٢/١ .



من الاستفادة منها في طريق الهداية والرشد :

«شاهد عبد الله بن محمد الخفاف لصاً قد أخذ، وشهد عليه أنه كان يغش الأقفال (يفتحها بغير مفاتيحها) في الدور اللطاف . فإذا دخل حفر في الدار حفرة لطيفة ، كأنها بئر النرد ، وطرح فيها جوازات ، كأنه يلاعب إنسانا ، وأخرج منديلا فيه نحو مئتي جوزة ، فتركه إلى جانبها ، ثم يكوّر جميع ما يطبق حمله ، فإن لم يُفطن به خرج ، وإن جاء صاحب الدار ترك القماش وأفلت . وإن كان صاحب الدار جلدأ فوائبه ، وصاح : اللصوص ! واجتمع الجيران أقبل عليه اللص وقال :

ما أبردك أنا أقامرك بالجوز منذ شهور ، قد أفقرتني وأخذت كل ما أملك . لأفضححك بين جيرانك ، لما قامرت الآن تصيح ، يا عث ، يا بارد ، بيني وبينك دار القمار . قل : قد صفوت حتى أخرج . فيقول

الجيران : إنما لا يريد أن يفضح نفسه
بالقمار ، فقد ادّعى على هذا اللصوصية ،
فيحولون بينهما ، ويخرجون اللص»^(١) .

نعود - يا بني - إلى قصتنا التي سبقت هذه والتي
كشف إياس مزيف ما في الكيس من نقود ، فنقول
إن فكر اللص دائما محصور في زوايا معينة في الأمر
الذي هو بصده ، تهمة هذه الزوايا فتطغى على
فكره وتصوره ، فهو لا يفكر في الزوايا الأخرى
ولا يحيط بها ، فتكون هي المداخل من غيره عليه ،
والمناطق الضعيفة في حصنه الذي شيده ليحتمي
خلفه ، ولهذا يفاجأ بما قد يثيره الآخرون مما لم يخطر
له على بال ، فيبهت وينشده ، ولأنه لم يتعود على
مقابلة المفاجآت ممن يفوقه ذكاء ينهار رأسا ،
ويكشف عن كل مآلديه ، ويبوح بما في نفسه ، مما
لم يكن يتصور أنه سيبوح به . وفي قصة إياس هذه
دلالة على كفاءة القاضي الذي عرف كيف يصنع
المفاجأة ، وكيف يرتب خطواتها ، ومتى يلقي بكل

(١) أخبار الظراف ١٠٧ .



واحدة من هذه الخطوات ، لتأتي النتيجة المرجوة
ثمرة ناضجة لمجهود محمود .

ولو كان السَّارق في هذه القصة أُعطي الفرصة
للتفكير فيما فاجأه به القاضي إياس لكان له مخرج
يمكن أن يقول فيه : إني فعلا غارم ، لأنني قد
فرطت فلم أضع الأمانة في حرز مكين ومكان
أمين ، فجاء من جاء في غفلة مني ، ففُض الحرز ،
وفعل فعلته فغير مافيه . فقد توهم هذه الكلمات
السامع بأنه صادق . ولكنها لم تكن لتدفعه لو أن
المودع فض الختم عندما تسلم الكيس ، ولاحظ للتو
ما حدث من اللعب بما فيه ، فواجه بذلك اللص
الذي كابر بدوره ظانا منه أن مافعله هو نتيجة ذكاء
لا يعلى عليه . على أي حال لقد انحصر جهد
السارق - يابني - كما رأيت في تحقيق حيلة يبرر بها
إتقان فك الكيس بطريقة متفنة ، وظن جهلا منه
أن هذا كاف ، وهو - كما لاحظت - لم يكن كذلك .

ها أنت ترى - يابني - أن كل قصة من هذه
القصص تختلف في طبيعتها عن الأخرى ، ولكن

النسق فيها جميعا يكاد يكون واحدا ، وهو نسق يبين مجرى واضحاً في تفكير إياس العام ، مع أن إياسا كان يدخل في كل قضية من الزاوية التي توصل - في نظره - إلى الحل ، منطلقاً من فطنته وذكائه وفراسته في الخصوم إلى النقطة التي يعدّها المدخل إلى معرفة كنه المعضلة ، مما يسهل عليه الحل . وإني أدعوك إلى مقارنة القصص السابقة والزوايا التي دخل منها إياس إليها بما فعله في القصة الآتية :

«استودع رجل رجلاً أمانة فجحده ، فأتى إياساً ، فأخبره فقال له إياس بن معاوية : «أَعْلَمَ أَنَّكَ سَوْفَ تَأْتِينِي؟» قال : «لا» . قال : «أفنازعته إلى أحد غيري؟» قال : «لا ، لا يعلم أحد بهذا غيرك» . قال : «إذن انصرف ، ثم عد إليّ بعد يوم أو يومين» . ودعا إياس الرجل المؤمن عنده المال ، وقال له : «لقد اجتمع عندي مال كثير ، أريد أن أودعه عندك ، أفحصين منزلك؟» قال : «نعم» . قال : «عد إليّ يوم



كذا ، وأعدَّ موضعا للمال ، وقوما يحملونه «
ففعل . ولما عاد المودع إلى إياس ، قال له :
« انطلق إلى صاحبك ، وأطلب منه مالك ،
وإن جحدك فقل له : إنى سوف أذهب
وأخبر القاضي » ، فذهب ، فاستقبله
الرجل ، ودفع إليه ماله ، وأخبر إياسا بهذا .

ثم جاء الرجل المنكر للمال على الموعد
الذي بينهما لأخذ المال الذي كان القاضي
سيأتمنه عليه . فزجره القاضي ، وشهرَّ به ،
بعد أن أفهمه معرفته لخيانته ^(١) .

إنك ترى هنا - يابني - فراسة إياس وعقله ،
فمنذ الوهلة الأولى عرف الصادق من الخصمين ،
ثم انتقل إلى الخطوة الثانية فجعل أساسها معرفته
بطمع بعض الناس بالمال ، والشر الذي يسيطر
عليهم ، فاستفاد من إدارك هذه الرذيلة ليكسب بها
فضيلة ، ومن هذا النقص ليأتي منه حكم كامل

(١) وكيع ٣٧٢/١ .



عادل . ولم يكتف بما قد يكتفي به غيره من القضاة من اليمين والشهود . وهما بلا شك أساسان شرعيان ، ولكن إياساً أجل العمل بهما حتى يستنفذ غيرهما من الوسائل ، وهذا سر نجاحه ، فهو لا يلجأ إلى الكي إلا بعد أن يعجز عن الاستفادة من الدواء .

ونبأه القاضي - يا بني - لا تقتصر على فك عقد الحيل ، أو كشف الغامض مما يخبؤه الخصوم تعمداً ، ولا تكتفي بالتصدي للتظاهر والافتعال ولكنها تتعداه إلى اتخاذ الخطوة الصائبة ، أمام أي أمر يطرأ خارجاً عن عمل القاضي المعتاد ، وبعض هذه الأمور تأتي بصورة اعتراض يحتاج إلى رد ، ومقارعة للحجة بالحجة ، وإبراز للبرهان القوي والقول المفحم . وفي هذا كله يحتاج القاضي إلى أن يكون سريع البديهة ، حاضر الذهن ، وافي الإجابة لا تهزه المفاجأة ، ولا تربكه المباغته ، فربما يكون المتقاضي قد أعد ما أعده وحضره ، وقد يكون استعان عليه بعالم أو صاحب مهنة :



جاء عمر بن سليمان الكلابرى إلى
عبد العزيز الحسن العنبري القاضي ، فقال :
« هلكت هلكت ! » قال : « وما أهلكك ؟ »
قال : « بلغني أن خصمي عندك ، ولست
حاضراً » . قال القاضي : « فهوذا أنت
عندي ، وليس خصمك حاضراً » ، فقال :
« فكأننا صب عليه ذنباً »^(١) .

إنه ليس رداً مفحماً فقط - يا بني - كما ترى ،
ولكنه جاء سريعاً على البديهة ، مما أدهش الرجل
وألجمه ، وكأنه صَبَّ عليه دلوا من ماء فبرد ما كان
ساخناً منه ، وهدأ ما كان وجلاً . انه جواب بسيط
ولكنه مدهش ، وهو في مكانه ، وكأن القاضي قد
أمضى وقتاً طويلاً يفكر فيه ، وربما لو كنت أنا أو
أنت في مكان هذا القاضي لأخذ فكرنا مسرباً آخر ،
ولفكرنا في تأنيبه على شكه في القاضي ، ولزدنا على
ذلك غضباً يخيفه منا ، ويجعله في شك من عدلنا .
وهكذا حرص القاضي العنبري وله من اسمه

(١) وكيع ١١٥/٢ .



نصيب على طمأنة الرجل بأن أيقظه من غفلته ،
وأسمعه دليلاً يريح ذهنه ، لا يحتاج معه إلى إقناع .

أي بني !

إن مما يساعد القاضي في عمله ، ويعضد علمه
ونباهته ، تواضعه ، فالتواضع يكسبه محبة الناس ،
ويقفل عنه باباً قد يفتحه الخصم الذي لم يحكم له ،
فيحمل على القاضي ؛ وهو إذا اتصف بحلية
التواضع فإن الناس يكونون معه ، ولا يقبلون
ما يقوله فيه الخصم الغاضب ، وهذا بالإضافة إلى
أن القاضي المتواضع تسبقه سمعته الطيبة في
المجتمع .

والتواضع - يا بني - صفة تدلّ على حب للخير
دفين في الشخص ، والمتواضع سعيد دائماً ، لأن
التواضع يجعله راضياً بالواقع أياً كان ، ولا يتطلع
إلى ما لا حقّ له فيه ، فلا يخيب أمله عند عدم
إدراكه ، والمتواضع يَسْلَم بتواضعه من العقد
النفسية التي يغطيها صاحبها بالتعالي ، والادّعاء ،



والتظاهر ، ومحاولة أن يكون في وضع أعلى مما يعطيه
إياه مقامه ، أو مقدرته ، فيدّعي ما ليس فيه ، ويظهر
غير ما يبطن . وعند تتبع أخبار الماضين من القضاة
المعتبرين ، الذين عرف عنهم التواضع ، نجد بعض
ما يوجب الوقفة المتأنية :

قيل للقاضي ابن شبرمة : « إنك سيد أهل
العصر » . قال : « فأنا إذاً كما قال الشاعر :

خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفرّدي بالسؤدد^(١)

وتكبر عدسة التدبر والفحص القول الذي لم
يرض ابن شبرمة وتستدعي إلى الذاكرة قول
الشاعر :

لعمر أبيك مانسب المعلّى
إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكنّ البلاد إذا اقشعرت
وصوح نبتها رعي الهشيم^(٢)

(١) وكيع ١٠٦/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٨٩/٣ .

وقد وضع ابن شرف القيرواني قدمه على جادة
هذا المعنى ، فقال :

قالوا تسابقت الحمي
ر فقلت من عدم السوابق
خلت الدسوت من الرخا
خ ففرزنت فيها البيادق^(١)

وللعامة - يابني - قول في هذا المعنى ، يذكرونه
في مثل هذا الموقف : « من عدم الرجال سُميت
رجلاً » . وهو في نظرهم منتهى التدني .

هذا جانب من صور تواضع القضاة ، وهناك
جانب آخر تمثله قصة أخرى . وإذا كانت القصة
السابقة تمثل تواضعاً معنوياً ، فإن هذه تمثل تواضعاً
مادياً عملياً :

« قيل لعلي بن ظبيان ، وهو ببغداد
قاضياً ، إنك تجلس للحكم على بوري
(حصير) ، وقد كان من قبلك من القضاة

(١) معجم الأدباء ١٩ / ٤٠ .



يجلسون على الوطاء ويكتبون . فكتب : إني
لأستحي أن يجلس بين يدي رجلان حرّان
مسلمان على بوري وأنا على وطاء . لست
أجلس إلا على ما يجلس عليه الخصوم»^(١) .

إن هذا التواضع - يا بني - مبني على أسس
قوية . إن السبب في تواضع هذا القاضي يعود إلى
عمق حاسة العدل عنده ، والعدل هو إيجاد التوازن
الكامل بين أمرين ، فبما أنّه مسلم حر ،
والمختاصمان كذلك ، فما الذي يميزه عنهما ؟ وبما أنّه
رجل عدل ، فليس من العدل أن لا يتساوى معهما ،
وليس من العدل أن يتميز بالنتيجة إذا كانت
الخطوات الأولى للمعادلة متساوية .

ثم لاحظ - يا بني - أنه اختار صفتين اختارهما
الله - سبحانه وتعالى - للمفاضلة بين الناس في كثير
من أمور الدين والحياة وهما الإسلام والحرية ، فبنى
رأيه وتصرفه على أساس إسلامي صحيح ، جعل
هدى الله فيه أمامه ، واتخذة قائده والقُدوة له .

(١) وكيع ٢٨٦/٣ .

والتواضع - يابني - لا تجده عند القضاة في مكان العمل فقط - ولكن تجده معهم أينما حلوا ، يعضده خلق حسن ، وحب لنفع الناس ، وبعد عن ضررهم ، وهو مما لا بد أن يتحلوا به قبل أن يختاروا قضاة . وللتواضع ونحوه من الصفات دخل في اختيارهم قضاة ؛ لأن سمعة الشخص تسبقه إلى الناس ، وإلى أولى الأمر .

هذا شريح القاضي لا يجعل ميزابه إلا في داره ، وكان إذا مات له سنور دفنه في داره ، ولم يطرحه ^(١) .

هذا الخبر فيه من الفوائد عدد غير قليل ، فهو يُعطي فكرة عن طيب عنصر شريح ، وبعده عن أذى الناس ، وحبه الخير لهم ، حتى ولو تحمل في سبيل ذلك الأذى . فإذا عرفت - يابني - أن المثعب (أو الميزاب) هو لتصرف مياه بيت الخلاء ، أدركت إلى أي مدى أبعد شريح الأذى عن الناس وتحملَه في باحة بيته .

(١) وكيع ٢ / ٢٢٠ .



ومثل هذا يمكن أن يقال في السّنور ، كما أن
النص يعطينا صورة للبيوت وخططها ، ووضع
المرافق فيها في ذلك الزمن .

في القصة الآتية لون آخر فيه شذى يعبق من
نفس القاضي :

كان يحيى بن سعيد خفيف الحال ،
فاستقضاه أبو جعفر ، فارتفع شأنه ، فلم
يتغير حاله . ف قيل له في ذلك ، فقال : « من
كانت نفسه واحدة لم يُغيره المال ولا
الافتقار »^(١) .

وهذا التصرف يشهد ، بلسان فصيح ، أن
صاحبه خال من العقدة النفسية التي تستولي على
بعض الناس بعد أن يصبح غنياً ، فيبدو وكأنه يريد
أن ينتقم من الفقر وأيامه ، فلا يزيده هذا إلا
انحداراً في داخل نفسه وفي أعين الناس . أما يحيى
ابن سعيد فطينة زكية مختلفة ، فلقد وضع أساساً في

(١) وكيع ٢٤٢/٣ .

ردّه على من لاحظ تواضعه ، وقد دلّ اختياره له على علم وعمق فيه ، فالنفس هي النفس ، فلماذا تتغير بتغير العرض ، وهي الجوهر يُغَيَّر ما يتعلّق به ، ولا يتغير هو ، وإلا انقلبت الموازين .

ومسك الختام - يا بني - في أمر التواضع ما قاله أبو يوسف :

«يا قوم ، أريدوا بفعلكم الله ، فإنّي لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح»^(١) .

أتذكر - يا بني - ما سبق أن قلناه عن حديث النّية : «إنما الأعمال بالنيات - وإنما لكل امرئ ما نوى» . إن أبا يوسف طبق هذا الحديث بالتجربة الصادقة التي لم يلبث أن ألقاها موعظة على الناس .

(١) وكيع ٢٥٨/٣ .

أي بني !

من الأمور التي تحتاج إلى معرفتها المواقف التي يتعرض لها القاضي في عمله ، وبعضها مواقف جد ، وبعضها أقرب إلى الهزل ، بعضها يحتاج إلى علم ، وبعضها يحتاج إلى ذكاء ونباهة ، وبعضها يحتاج إلى لباقة ، وبعضها يحتاج إلى صبر وتحمل ، ومن الأمور التي تحير القاضي - يا بني - ويحتاج إلى كل ماله من مخزون اللباقة والتلطف ما تعرض له القاضي إسماعيل بن حماد :

«جاءته امرأة ، فقالت له : «أيها القاضي ، إن عمي زوجني من هذا ، ولم أعلم ، فلما علمت رددت» ، قال القاضي : «ومتى رددت؟» قالت : «رددت وقت علمت» ، قال لها القاضي : «ومتى علمت؟» قالت : «وقت رددت»^(١) .

وبقي القاضي - يا بني - في حيرة مع هذه الفتاة

(١) وكيع ١٦٨/٢ .

الساذجة التي أدخلته في دوامة ، وجعلته في حلقة مفرغة لا يعرف أولها من آخرها ، إن هذا لا بد أن يذكر - يابني - بجملة : « حصاني سيساني توه جاي من عماني وش تعشيه »^(١).

ومن الأمور - يابني - ما يحتاج القاضي فيه إلى لباقة ، ومنها ما لا تنفع فيه اللباقة فيضطر القاضي إلى أن يكشر عن نابه ، ويهز مشعبه ، حفاظا على حرمة العدالة ، وصيانة لمقامها عن أن تهان أو تلمس بسوء :

جاء الأشعث بن قيس إلى شريح القاضي في مجلس القضاء ، فقال له شريح : « مرحبا بشيخنا وسيدنا ، ها هنا » . فأجلسه معه ، فإذا رجل جالس بين يدي شريح ، فقال شريح : « مالك يا عبد الله ؟ » قال : « جئت أخاصم الأشعث بن قيس » . قال شريح للأشعث : « قم مع خصمك » قال :

(١) أي بني ٢ / ٢٤٠ .



«وما عليك أن تقضي وأنا هنا؟» قال : «قم قبل أن تقام» . فقام وهو مغضب . فقال للقاضي شريح : «عهدي بك يا بن أم شريح وإن بشيائك السُّوس» . قال القاضي شريح : أنت رجل تعرف نعمة الله على غيرك ، وتنساها في نفسك^(١) .

إن هذا التصرف من القاضي النابه شريح يبهج النفس . ولو أنك حللت النص - يا بني - لوجدت مكانم العظمة ظاهرة تعلن عن وجودها ومكانها ، فشريح عندما رأى الأشعث رحّب به لمكانه ومنزلته ، وأكرمه بأن أجلسه معه في مكان القضاء ، ولكنه عندما علم أنه جاء إليه مخاصماً سعى ليجعله في مكانه اللائق به ، فمجلس القضاء يجب أن يتعادل فيه الخصوم ، لأن مظهر التفرقة قد يؤثر على مخبر الحكم عن طريق العامل النفسي الذي ينشأ في نفس أحد الخصمين أو عن طريق الوهم والظن ، فالخصم قد تدخله الرّيبة في أن مجلس خصمه

(١) وكيع ٢/٢١٦ .

الآخر المبجل قد أثر على القاضي مما يجعل هذا المرتاب يتخاذل في دفاعه عن نفسه ليأسه ، أو يشتط فيه أكثر مما يجب ، فلا يقول الحق أو لا يكتفي به . والمكرم من الخصمين قد يعطيه التكريم رفعة نفسية تجعله يعلو على خصمه لاطمئنانه وهدوء أعصابه . أما إذا جلس معه جنبا إلى جنب فإن الأمور تكون قد وضعت في نصابها من جميع الوجوه ، وتكون الخطوات الأولى مُقَدِّمَةً للعدل وعنوانا له ، ويكون القاضي قد أبعد عن نفسه التهمة أو الشبهة ، ويكون الخصم قد أبعد عن الشك وبرئ منه ، وبهذا يعرف أيضا الخصم ، صديق القاضي الذي حمد التكريم أن القاضي جاد في الحكم بالعدل ، فيمنع نفسه عن محاولة الاستفادة من الصداقة أو المعرفة أو نحوهما .

ولا تظن - يا بني - أن من السهل على القاضي أن يقدم على مثل هذا ، فالصراحة - في نظر القاضي - قد يراها الآخرون وقاحة ، وقد تأتي للقاضي - بما يزعجه ، وفي قصتنا هذه استمعنا إلى ردِّ ملك فيه



القاضي أعصابه ، وحاول فيه ألا يشتم ، والتزم بأن لا يزيد فيه عن تقرير حقيقة غابت عن هذا الزائر الذي أهاجه الغضب ، فخاطب القاضي بكلام ذكر فيه والدته ، وذكره بماضيه ليزيد في إهانته . ولكن هذا لم يثر القاضي ، ولم يخرجه عن صوابه ، ولم يطفئ سراج عقله ، فالتزم صبرا شديدا ربما يكون قد أدى إلى إصابته بداء السكري ، وكنتم غيظه ، وتحمل غليان مرجه في صدره ، فلم يسمح لشحنة الغضب أن تنطلق .

ولا تظنن - يا بني - أن هذا الموقف الذي تعرض له شريح موقف يتيم منقطع النظر ، لا ، إنه يحدث كثيرا بسبب جهل بعض الناس بالقضاء وأصوله وآدابه ، وبما يجب أن يكون عليه القاضي من بعد عن الشبهات ، وحيطة متناهية تبعده عن الشك ، فلا يقع الخصوم في ريب من أمره وأمرهم . وهناك قصة أخرى مماثلة لقصة شريح هذه ، تسير على نمطها ، وتحذو حذوها ، وهي أيضاً لشريح نفسه .

جاء ابن عصفور إلى شريح القاضي ،
فخاصم آخر عنده ، فجلس مع شريح على
الطنفسة التي يجلس عليها شريح ، فقال له
شريح : « قم ، فاجلس مع خصمك ، فإن
مجلسك يريبه » . فقال : « تعلمني بك يا بن أم
شريح ؟ ! » قال شريح : « إني لأدع النصرة ،
وإني عليها لقادر »^(١) .

ان الجملة الأخيرة - يا بني - التي نطق بها شريح
تستحق أن توزن بالذهب والجواهر ، إنها ملأى
بالعقل ، ومنتقاة انتقاء يدل على عمق في التفكير ،
وعلى قدرة على امتلاك زمام النفس ، ولجم
الأعصاب ، وإنه للجام صلب حقاً . أجل إن شريحا
لا يريد أن ينتصر لنفسه من هذا المتهجم ، الذي
صرعه غضبه ، وهو غضب لا مبرر له ، لو فكر
وقدر ، ولكنه لم يفكر ولم يقدر ، وانساق مع عاطفته
السادجة ، وأطلق سَهْم غضبه الطائش العنان ، فرد
شريح سهمه بترس من مادة نبيلة نادرة . نعم إن

(١) وكيع ٢/ ٢٩٥ .



شريحا تنازل عن الانتصار لنفسه ، وإنه لقادر على الانتصار ، فهو يستطيع أن يهينه ويذله بحق ، وكان بالامكان أن يطلق عليه رجاله ، وهم أشداء مدربون ، وأن يودعه السجن ، وأن يجلده ، وقد فعل غيره ذلك ؛ ولكن شريحا علا وأبعد في العلو ، حتى صار خصمه أمامه مثل النملة صغراً وحقارة .

هل جرّبت - يابني - التسامح والترفع عن مجارة السفية . إن لهذا - يابني - لذة لا توصف ، ولا يعرفها إلا من جرّبها ، لذة نفسية عميقة متوغلة ، وكلما مرّ عليها الزمن زادت عبقا في ذكراها وصدائها . وبخلاف ذلك - يابني - يكون ألم الانتصار إذا كان غير عادل ، هنا تعاني النفس من مشاعر التغلب على الخصم ظلما إذا حدث هذا التغلب بفعل قوة ما أو سلطة ما أو قدرة ما ، إن هذا فعل لا بد أن يتلوه الندم ، حتى لو كابر الإنسان وأخفى ذلك أو أظهره ، ان الندم يزيد مع الزمن ، والناس لا بد أن يلحظوه ، لأنهم يتوقعونه ، والخصم المغلوب ظلما هو أول من سيشعر أنه

استوفى حقه على الرغم من أنه غلب ، لأنه يعرف أن خصمه لم يغلبه عن طريق شريف ، وسيزداد شعوره بالراحة النفسية مع الوقت ، ويبدو الأمر في هذا وكأنه كفتا ميزان ، فبقدر ما يسعد هذا يشقى ذاك ، وبقدر ما يزول التوتر عند هذا يزيد عند ذاك . الخصم الشريف واجه الأمر بشرف ، ودافع عن حقه ، والآخر جبن عن أن يسير على الخط المستقيم ، ولجأ إلى خط معوج ، وهو يعرف أن هذا ليس طريق الشجاعة ، وأن الشجاعة في الحقيقة هي شجاعة خصمه .

ولابد - يا بني - من غضب واحد من المتقاضين في كل قضية ، إلا ما قل عندما يجرى الحكم بينهما مجرى الصلح ، والذي - لا يلجأ إليه القاضي في العادة إلا إذا لم يكن هناك حكم شرعي واجب .
قال عطاء :

« لا ينبغي للقاضي إذا تبين له القضاء أن يصلح بينهم »^(١) .

(١) وكيع ٧٥ / ١ .



وجاء في كتاب من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى معاوية بن أبي سفيان :

«واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبين لك القضاء»^(١).

ورضى الناس - يا بني - غاية لا تدرك ، لأن السير بما يرضيهم قد يكون فيه ما لا يرضي الله ، وهم لا يفكرون في لحظات الحاجة إلا فيما فيه مصلحتهم ، وتعمى قلوبهم عما للآخرين من حق ، ولو كان الأمر بيدهم وحدهم لأخذوا ما ليس لهم بحق أضعافاً مضاعفة ، ولكن الله جعل في يد القضاة ما يحقق العدل ، ويزن الأمور بالقسط ويعطي كل ذي حق حقه :

لما دخل أبو جعفر المنصور المدينة المنورة ، يريد الحج ، لقيه الناس يتظلمون من القاضي محمد بن عمران وهو يسايره ، فقال : «ما هذا؟» قال : «يا أمير المؤمنين ،

(١) وكيع ١/٧٥ .



ما لم تر أكثر ، نصف أهل المدينة ممن قضيت
عليهم غضبان ، ولا والله ما يجوز للقاضي أن
يترك الحق لغضب الناس . فأمن أبو جعفر
على كلامه :

إن نصف الناس أعداء لمن
ولي الأحكام هذا إن عدل^(١)

أي بني !

إن القاضي - يا بني - يجتهد في إصدار حكمه
على أسس من الدين ، وهو إما أن يأخذ حكمه من
القرآن ، أو من السنة ، أو من الأئمة الراشدين
والصحابية الأجلاء ، والقاضي مع هذا ليس
معصوماً من الخطأ ، فقد يعتمد على قاعدة ، وقد
يختار غيره من القضاة غيرها ؛ ولهذا لا يستغرب أن
تأتي فتوى قاض آخر مختلفة عن فتوى القاضي
الأول ، أو أن يأتي حكمه غير مطابق لحكم آخر ،
لأن العلم عند هذا القاضي قد يكون أوفى منه عند

(١) وكيع ١٨٣/١ .



ذاك ، لأن النظرة إلى الأمر عند هذا القاضي قد جاءت على أساس قاعدة أخرى ، ومن زاوية مختلفة مما يؤثر في الغالب على الاستنتاج . ولكن الثواب ثابت مادامت النية حسنة ، والاجتهاد مبذول :

كان القاسم وسالم وإياس قعودا إذ جاءهم رجل فسأل عن رجل قال : « امرأته طالق إن » ، وسكت عند كلمة « إن » . فقال لإياس : « ماتقول يا أبا وائلة ؟ » فقال إياس : « هذا رجل أراد أن يحلف فلم يحلف » . وقال عثمان البتي مثل قول إياس . وقال الأشعث إنه يرى أيضا هذا الرأي . قال الأنصاري : « فذكرت ذلك لزفر » ، فقال : أخطأ إياس ، هذا رجل حلف بطلاق فأراد أن يستثني فلم يستثن ^(١) .

وأنا وأنت في حدود علمنا وعقلنا لا نستطيع أن نرجح رأياً من هذين الرأيين ، فكما ترى كل رأي منهما مستند على سبب قوي يقبله العقل ، ولا تأباه

(١) وكيع ١/ ٣٢٣ .



النفس ، وهو مقبول إذا نظرنا إليه من الزاوية التي
نظر إليه منها صاحب الرأي .

وهناك قصة ثانية - يابني - اختلف فيها
قاضيان ، فقد ضرب رجل دابة رجل ،
فنفحت رجلا ، فقطعت أذنه ، فاختصموا
إلى سلمان بن ربيعة ، وهو على القضاء في
القادسية ، فقضى أن الضمان على الراكب ،
فبلغ ذلك ابن مسعود ، فقضى أن الضمان
على الضارب ؛ لأنه إنما أصابه نفحة
ضربته^(١) .

في هذه القضية اختلفت أيضاً - يابني - نظرة كل
من القاضيين عن الآخر ، بسبب اختلاف الزاوية
التي نظر كل واحد منهما إليها . والزاوية هي التي
حددت الرأي ورجحته . وهذا لا يعني أن أيّا منهما لم
يقلّب الأمر على جوانبه ، ولم ينظر إليه من جميع
زواياه ، ولكن الاختيار النهائي لكل واحد منهما
رجح ما أرتآه الأرجح .

(١) وكيع ٢ / ١٨٦ .



ولعلك - يا بني - تجد في القصة الآتية مزيداً عما وجدته في القصتين السابقتين لأن أحد القاضيين فيها كان الخليفة الراشد علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - أحد من اختارهم الرسول ﷺ للقضاء :

أتى شريح بابني عمّ ، أحدهما أخ لأم ،
والآخر زوج ، فقال شريح : «للزوج
النصف ، وما بقي للأخ من الأم» ، فرفع
ذلك إلى علي ، فقال : «لم قلت هذا؟» قال :
«لأنني رأيت هذا» . قال علي : «للزوج
النصف ، وللأخ للأم السدس ، وما بقي
بينهما»^(١) .

لعلك - يا بني - ترجح فتوى علي - رضي الله
عنه - لأنه قاض من قضاة الرسول ﷺ ، ولأن شريحا
لم يوضح القاعدة أو السبب الذي بني عليه حكمه .
أما علي - رضي الله عنه - فقد بدأ باعطاء كل ذي
حق حقه كما توجبه الفرائض ، ثم أشركهما وساوى
بينهما فيما بقي ، وهذا أقرب للقبول .

(١) وكيع ٢ / ٢٩٠ .

وتعال معي - يا بني - إلى متعة أخرى فيها الثقة بالنفس ، وعشق العدل ، والهيام بالانصاف ، أدعوك إلى أن تعيشها مع رجل عظيم ، لا يعرف العقد النفسية ، رجل شجاع لا يقف بينه وبين الحق أحد ، بل إن نفسه - ونفس المرء أمانة بالسوء - لا تجرؤ أن تحدّثه بغير ما يرضي الله . هذا الرجل - يا بني - هو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو كما تعرف أهل لكل خير ، وهو من الذين يشرف المرء أن يقتدي بهم . إنك ستراه في القصة الآتية قد حكم بحكم اجتهد فيه ، ولكنه تراجع عنه ، وأخذ بحكم فقيه مشهود له بالعلم والفقه عندما تبين له أنه أصوب من حكمه :

حدث الأصمعي قال : حدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال :

اختصم إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حسان بن ثابت وخصم له فسمع منهما ، وقضى على حسان ، فخرج وهو مهموم ، فمرّ بابن عباس ، فأخبره بقضيته ،

فقال له ابن عباس : لو كنت أنا الحاكم
بينكما لحكمت لك ، فرجع حسان إلى عمر ،
فأخبره ، فبعث عمر إلى ابن عباس ، فأتاه ،
فسأله عما قال حسان ، فصدّقه ، فسأله عن
الحجة في ذلك ، فأخبره ، فرجع عمر إلى
قول ابن عباس ، وحكم لحسان . فخرج
وهو آخذ بيد ابن عباس ، وهو يقول :

إذا ما ابن عباس بدا لك وجهه
رأيت له في كل منزلة فضلا
قضى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي إربة في القول جدا ولا هزلا^(١)

وليس هذا غريبا على صحابة رسول الله - ﷺ -
لأن عينهم كانت على الدين والآخرة لا على الدنيا
وما فيها من مراعاة لأبهة النفس ، وتغطية لعيوبها .

وقد يحكم القاضي الواحد - يابني - حكّمين
مختلفين في قضية واحدة ، حين يظهر له في المرة

(١) المتقى ٤٨ .

الثانية ما لم يظهر له في المرة الأولى ، وقد تكون التجربة والزمن قد لعبا دوراً فعالاً في هذا ، وقد يكون في انتشار ظاهرة من الظواهر مادعا القاضي إلى تغيير رأيه . استمع إلى هذه القصة :

كان شريح يطوف ، فجاء إليه رجل ، فقال : « كيف القضاء في كذا وكذا ؟ » قال : « كذا وكذا » (قال الرجل) : « فرب هذه البنية ، لقد قضيت عليّ بخلاف هذا » . قال : « فانتزع يده من يده » . وقال : « لئن رأيت أني لا أخطئ لبئس ما رأيت »^(١) .

إن القاضي - يابني - قد ينغلق عليه الأمر فيخطئ في الحكم ، وقد يشع له نور جديد يهديه إلى حق لم يكن ظهر له من قبل ، فيحكم اليوم بغير ما حكم به بالأمس ، وقد يتذكر فيما بعد أنه سبق أن حكم حكماً لم يعد يراه الآن ، فيعود حينئذ للحق ، ولا يصّر على ما لم يعد يراه . والرجوع إلى الحق خير

(١) وكيع ٢/٢١٢ ، ٢١٣ .



من التهادي في الخطأ في الأمور المعتادة بين الناس في حياتهم المعتادة، فما بالك في القضاء وفي الحقوق! ^(١).

هل فهمت - يا بني - قول شريح : «لئن رأيت أني لا أخطيء لبئس ما رأيت؟» إنه يحذره من الوقوع في خطأ كبير، فيه إثم عظيم، وهو أن يعتقد العصمة في بشر. ولهذا انتزع يده من يده، ومَسَّك اليد باليد حنان، وانتزاعها علامة دعر ورعب ورهبة. فافهم - فتح الله عليك!

والأمثلة عن رجوع القضاة عن الخطأ كثيرة، والقصة الآتية تريك حادثة من هذا النوع، فالقاضي فيها لم تأخذه العزة بالإثم، فيصرّ على رأيه أو يصدّ عن الحق، بل تراجع برجولة مفعمة بالإيمان، محاطة بالخشية من الله، مع المحافظة على قواعد العمل، والحرص على صيانة سمعته. ولم يكن في ذهن القاضي عندما فعل ما فعل إلا العدل

(١) ولعمري رضي الله عنه قول مشهور: «ذاك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي» عندما حكم بحكمين مختلفين في قضيتين متماثلتين.

وإعطاء الحق لأصحابه ، وهو لم يأنف من أن ينصاع
للرأي الصائب ، فالحكمة ضالة المؤمن - يا بني -
أينما وجدها التقطها . وسبق أن قلت لك - يا بني -
إن الشجاعة ليست فقط سيفاً في ميدان ، أو مدفعاً
في طائرة مقاتلة في الجو ، أو صاروخاً في غواصة في
البحر ، أو بندقية في يد أصبعها على الزناد . لا ، إن
الشجاعة هي أن يغلب المرء نفسه ، ويجبرها على
عمل خير تأباه ، واجتناب شر تشتهيه . وقيادة
النفس - يا بني - صعبة إلا على ذوي العزم
وأصحاب الإرادة الصلبة القوية .

سئل القاضي ابن شبرمة عن مسألة ، فلم
يصب فيها ، فقال له نوح بن دراج : « تثبت
فيها ، أنظر فيها » ، فعلم أنه لم يصب .
فقال : « ردّوا عليّ الرجل » فردّوه عليه ،
فأنشأ يقول :

كادت تزل بنا من حالق قدم
لولا تداركها نوح بن دراج^(١)

(١) وكيع ٩١/٣ .



ان ابن شبرمة كان من القضاة البارزين ، ومع ذلك فقد نظر إلى خطئه على أنه زلة عظمى وسقطة قاضية ؛ ولم يكتف بمجرد التراجع عن حكم بل سجل هذا التراجع على نفسه شعراً ، وكأنه يريد له التوثيق والبقاء والتداول ، وهذا غاية النبل والبطولة ، وفيه اعتراف بالجميل ، وقرار بالفضل لمن أنار له الطريق بعد أن كان مظلماً ، وأرشده إلى الخير بعد أن كان عنه غافلاً .

أي بني !

لقد قلت لك في أول حديثي أن الناس في مجتمع جدك كانوا طيبين خيرين متسامحين ، يكاد تقاضيهـم يكون استفتاء كله ، وليس محاكمة ، لأن هذه هي طبيعة الناس في كل مجتمع محدود لم تتنوع عناصره وتتنافر وتتباعـد وتتـشاحن ، ولقد كان الأمر على هذا النحو أيضاً في أول الدولة الإسلامية : تسامح ، وتصافٍ ، وكل يحب الخير للآخر ، ويفضله على نفسه أحياناً طلباً للثواب وكسباً للأجر .

قال القاضي ابن أبي ليلى : « كان الناس
يختصمون في الحقوق على الجهل ، وكل
واحد يريد أن يدفع الحق إلى صاحبه ، فكان
القاضي بينهما مثل المفتي »^(١) .

ولتعرف - يا بني - مدى طيبتهم ، وتقديرهم
لكلمة القاضي واحترامهم لها ، تأمل القصة الآتية
ثم قارنها بما حدث في أزمنة متأخرة عندما تعقدت
الأمر بتوسع المجتمعات ، وتعدد العناصر فيها ،
مع فساد الذمم ، والبعد عن الدين لبعدهم عن
عهد النبوة ، قال إياس بن معاوية :

« ما بعد عهد قوم بنبيهم إلا كان أحسن
لقولهم وأسوأ لفعلهم »^(٢) .

والقصة هي :

قال ابن أبي ذؤيب : حضرت عمر بن
جلده ، وكان على القضاء بالمدينة يقول

(١) وكيع ٣ / ١٣١ .

(٢) وكيع ١ / ٣٥٥ .



لرجل رفع إليه : «إذهب ، يا خبيث ،
فاسجن نفسك» . «فذهب الرجل وليس
معه حرس ، وتبعناه - ونحن صبيان - حتى
أتى السجان ، فسجن نفسه»^(١) .

وأخوف ما يخافه ولي الأمر على القاضي ضعف
النفس ، واتباع الهوى ، ولهذا حرص الخلفاء
الأولون على اختيار القاضي من أهل الورع
والتقوى . وكان من رأي الخليفة الراشد عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه - أن يكون القاضي ملياً^(٢)
فقد قال لأبي موسى :

لا تستقضين إلا اذا مال ، وعلل ذلك بأن
«ذا المال لا يرغب في أموال الناس» .

وعمر - يابني - عالم نفسي ، يعرف طبيعة
البشر ، ويستشعر ماتم به مظاهرهم ، ويعرف
الطرق التي يلعب بها إبليس على الناس ، ويدرك

(١) وكيع ١/١٣٣ .

(٢) وكيع ١/٧٦ .



قدرته على الإغواء ، وتزيين الخطأ والميل مع الهوى .

ولعمر - رضي الله عنه - تجربة مع أعوان إبليس ، ولكن قوة إيمانه بالله ، وقوة إرادته في مقاومة جند إبليس ، ونباهته في لمح إغرائهم ، جعلته في مأمن من مكائدهم ، ومما أرادوا أن يختلوه به من إيقاعه في رشوة ، لقد جعلهم غباؤهم يظنون أن بإمكانهم تلبيس الأمر عليه :

روي عن الشعبي أن رجلا كان يهدي إلى عمر بن الخطاب كل عام رجل جزور خاصم إليه يوما فقال : « يا أمير المؤمنين ، إقض بيننا فصلا ، كما يفصل الرجل من سائر الجزور » . فقضى عمر عليه وكتب إلى أحد عماله : « ألا إن الهدايا هي الرشا ، فلا تقبلن من أحد هدية »^(١) .

ولكن قاضيا آخر في زمان متأخر ، لم يكن بقوة

(١) وكيع ١/ ٥٦ .



إيمان عمر ، وقع في الفخ الذي نصبه له إبليس ،
بعد أن تغير المجتمع الإسلامي وضعف إيمان بعض
الناس ، وغلبتهم أطماعهم الدنيوية ، وجبنوا عن أن
يقابلوا شهواتهم بحزم فيرفضوا الإغراء :

«تقدم رجل إلى ابن هبيرة ، فقال :
«أصلح الله الأمير ، إن قاضيك هذا يرتشى»
قال : «إرتشى منك؟» قال : «نعم» . فدعا
ابن هبيرة بحلّة ، فقال : «إرشه هذه حتى
ننظر يقبلها؟» ففعل ، وراح ابن العداء -
وهو القاضي المرتشي - على ابن هبيرة فيها
فعرّله»^(١) .

أي بني !

لقد تحدّثنا عن كثير من الشروط التي يجب
توافرها في القاضي ، وهي شروط مثبتة بالتفصيل في
مظانها وهناك شروط أخرى مختلفة ذكرها أناس
مجتهدون ، وهي لا تخلو من عبرة ، ومن هذه

(١) وكيع ٢١٥/٣ .



الشروط ما جاء على لسان عابد استنصحه صديق له
قاض فقد روي أن :

محمد بن بشير طُلب أن يكون قاضيا ،
وهو في طريقه إلى من أراد أن يعينه ، عرج
على صديق له من أهل الزهد ، فاجتمع
معه ، وقال له : « قد أرسل في الأمير أنه يريد
إعادتي إلى القضاء مرة ثانية ، فماترى ؟ » .

فقال له صديقه الزاهد :

« إن كنت تعلم أنك تنفّذ الحق على
القريب والبعيد ، ولا تأخذك في الله لومة
لائم ، فلست أرى لك أن تحرم الناس
خيرك ، وإن كنت تخاف ألا تعدل فترك
الولاية أفضل لك » .

قال محمد بن بشير :

« أما الحق فلست أبالي على من أدركته ، إذا
ظهر لي من قريب أو بعيد » . فقال له صديقه



الزاهد : «لست أرى لك أن تمنع الناس خيرك»^(١).

ويروى أيضاً أن صديقه العابد قال عندما استشاره :

«أسألك عن أشياء ثلاثة ، فاصدقني فيها ، ثم أشير عليك بعد ذلك» . فقال له محمد بن بشير : «ماهي ؟» .

قال له : «كيف حبك لأكل الطيب ، ولباس اللين ، وركوب الفاره ؟» .

فقال له : «والله ما أبالي ما رددت به جوعتي ، وسرت به عورتي وحملت به رجلكي» .

فقال له العابد : «هذه واحدة» . ثم قال له : «كيف (حبك) للتمتع بالوجوه الحسان ، وما يشاكل ذلك من الشهوات ؟»

(١) قصة قرطبة ٨٣ .

فقال له محمد بن بشير : « هذه حالة والله ما استشرفت نفسي قط إليها ، ولا خطرت ببالي ، ولا أكثرثت بفقدها » .

قال له العابد : « هذه ثانية » . « فكيف حبك لمدح الناس ، وثنائهم عليك ، وكرهاتك للعزل ، وحبك للولاية ؟ » .

فقال له : « والله ما أبالي في الحق من مدحني أو من ذمني ، وما أسرّ بالولاية ، ولا استوحش للعزل » .

فقال له العابد : « فاقبل القضاء ، فلا بأس عليك » ^(١) .

هذه - يا بني - صفات يجب أن تتوافر في القاضي ، فإذا أضيفت إلى ما سبق أن ذكرناه ، فإنها جميعاً تجعل القاضي متميزاً ، وأقرب إلى أن ينجم من الزلل في القضاء ، مؤملاً أن يكون القاضي الذي في اللجنة . وأن الأمور التي عددها العابد كلها -

(١) قضاة قرطبة ٧٤ .



كما ترى - مزالِق يمكن أن تزلَّ بها القدم ، ويدخل منها الشيطان ، فهي مواقع ضعف في الحصن الذي يجب أن يتحصن به القاضي . وقد عرفها العابد نتيجة تبصر واستقراء وتجربة طويلة ، والتبصر والاستقراء من الأمور التي حث عليها الدين في كل أمر ، ولقد حث الدين الإنسان على أن يفكر في نفسه وخلقِه ، وفي خلق السموات والأرض ، وفيما يراه في هذا الكون ، ليعرف ما عليه الله - سبحانه وتعالى - من الاقرار بالألوهية وتوحيدها له ، والطاعة الكاملة ، والعبادة المخلصة .

ولقد كانت حياة الرغد في الأندلس في ذلك الوقت ، وما كان عليه الناس من النعمة والدعة والرخاء ، تستوجب مثل هذه الأسئلة التي ألقاها العابد . إنّ مما سأل عنه هذا العابد يعدّ مفاتيح للعفة والاستقامة ، ووسائل يمكن أن يعرف بها ما إذا كان هذا القاضي متميزاً يستحق أن يلي القضاء بجدارة واستحقاق أم لا .



أي بني !

لعله من المناسب قبل أن نختم حديثنا عن
القضاء والقضاة أن ننظر إلى بعض المواقف الطريفة
التي كان يقابلها القضاة أثناء أدائهم لعملهم ، زمن
جدك ، عندما كان المجتمع صغيراً محدوداً ،
والصلات بين الناس وثيقة ، وليس هناك تعقيد في
الحياة :

في كل مجتمع - يا بني - لا بد أن نجد فئة من
الناس يقل خوفهم من الله ، فينسبون مالاخرين
من حقوق ، ويعميهم الكسب الحرام عن أن يمشوا
في الطريق المستقيم ، ومن هؤلاء الذين يتلقفون
القادمين من الصحراء للمدينة ومعهم المؤن
والمواشي ، يقفون في نحورهم ويجبرونهم بالإلحاح
والمضايقة ، على بيع مامعهم لهم قبل أن يصلوا إلى
السوق ويعرفوا حقيقة الأسعار مع أن الرسول ﷺ
قد نهى عن ذلك :

يُروى أن اثنين في إحدى بلدان نجد



اتصفا بهذه الصفة ودأبا على هذا النهج ،
واستزلهما الشيطان فاستطعا الحرام عن هذا
الطريق ، وأصبحا نهمين فيه ولهما قصص
كثيرة مع القادمين من البادية ، وإحدى
قصصهما أنهما اشتريا من بدوي بعيرا ، وبعد
يوم أو يومين ، عندما قدرا أن البدوي قد
أنفق جزءاً كبيراً من ثمن البعير ، جاء إليه
وادعيا الغبن وطلبا منه أخذ البعير ، وردّ
القيمة . وعندما أخبرهما أنه قد أنفق المال أو
أغلبه ، قالوا له : «إذا تنزل عن عشرة
ريالات من قيمته» - وهذا مبلغ ضخّم
آنذاك - فرفض هذا العرض ، فطالباه
بالذهاب معهما إلى الشرع ، فعرض عليهما
أن ينزل عن خمسة ريالات فقط ، فرفضاً ،
مما أضطر الجميع إلى الذهاب إلى الشرع .

ذهب أحدهما مع البدوي - لأن ذهابهما
معاً سوف يجعل القاضي الذي يعرفهما جيداً
يشك فيهما وفي عملهما - وعرضاً أمرهما على

القاضي ، هذا يطلب رد القيمة وأخذ البعير ، أو النزول عن عشرة ريالات . والبدوي يقول إنه أنفق المبلغ ، ولكنه ينزل عن خمسة ريالات طائعا مختاراً طيبة بها نفسه . فأدرك القاضي وهو النابه العارف بأمور الحيل وبما عليه المدعي وأمثاله من ضحالة في التقوى ، وحرص على المال ، فقال للبدوي : « أنت موافق على أن تسقط خمسة ريالات ؟ » قال : « نعم » ، ثم قال للآخر : « وأنت إذا رد لك نقودك مستعد أن تتنازل عن خمسة ريالات ؟ » قال : « نعم » . قال القاضي كل منكما طلبه مستجاب ، أنا سوف أشتري البعير ، وأعيد لك أيها المشتري القيمة ، مع نقص خمسة ريالات ، وأنت يا بائع البعير اُدفع لي الخمسة ريالات التي وعدت بإنزالها ، وتمت الصفقة ، وأرسل القاضي البعير ليكون ضمن جمال الصدقة ، وبعد عام بيع بمبلغ مجز ، وربح بيت المال مبلغاً ساقه الله من عنده .



وخرج مشتري البعير ، فتلقفه شريكه ،
وهو متشوق لمعرفة ما انتهت إليه المحاكمة ،
ولم يشك في أن صاحبه قد كسب القضية
لإتقانه الحيل ، ولطول تجربته في هذا
المجال . ولكن صاحبه أخبره بما صار ، وقال
له : « ظننت أننا نتحاكم إلى قاض غافل
سوف نلعب عليه ، فوجدت تاجراً لعب
علينا » .

وهكذا - يا بني - لعبت النية السيئة دورها في
دحر صاحبها ، ولعبت النية الصالحة الطيبة دورها
فجلبت لبيت المال مالا حلالا سوف ينتفع
المحتاجون به ، وأكسبت القاضي عند الله - أجرا
عظيما .

وسمع هذا القاضي نفسه عن اثنين
احتالا على بدوي في بيع اشترياه منه ، لقد
أطعما هذا البعير تمراً كثيراً ، حتى أرهاقا
معدته ، وأتى على ما في معدته من أكل
وسوائل ، مما أثر على جهده وقوته ، وهنا

طالب المشتريان البدوي بإنزال القيمة ،
ولأنهما يعرفان أن ما حدث للبعر لا يعد عيباً
يوجب إنزال القيمة ، اتفقا على أن يتزيا
أحدهما بزي القاضي ، وأن يجلس في المسجد
الجامع ، وقد أسدل طرف « غترته » على
وجهه ، وركز نظره على الأرض ومسك بيده
مروحة ، وهذا يكفي لأن يظهره بمظهر
القاضي الوقور ، فلما جاء الرجل الثاني مع
البدوي للتقاضي حكم هذا القاضي المزيف
حكماً قاسياً على البدوي . وانتهى الأمر عند
هذا الحد . إلا أن القاضي الحقيقي سمع بما
حدث فأحضرهما ، وطلب منهما انصاف
البدوي والتعهد بعدم العودة إلى مثل ما فعلا
وإلا أدبهما أدبا يكفي أهل المدينة كلها أن
يرتدعوا به . فنفذا ما أمر به القاضي .

ويروي عنه أيضاً أنه قبل توحيد
المملكة ، وعندما كان لكل مدينة حاكمها ،
كان أحد الحكام جالسا بعد صلاة العصر في

أحد أيام رمضان ، وكان هذا القاضي يجلس بجانبه كالمعتاد ، وكذلك المستشارون ومنفذوا الأحكام والأوامر يجلسون بجانبه ، إذ جاء رجل من عامة الناس أو من أقلهم . وقال للحاكم : إن فلانا أخذ بعيري وإنه نحره وهو الآن يسلخه . وأنه يستنجد بالأمير لرفع الظلم عنه واسترداد حقه ، فغضب الأمير غضبا شديدا وقال : يحدث هذا وأنا في أوج قوتي ، وفي رمضان ، والله لأقطعن رأسه ، إذهب يا فلان وأت به . ولعل للصيام - وقد تكون الحادثة في الصيف - وحدوث الأمر في آخر النهار ، دخلا في غضب أمير البلدة .

وهنا تدخل القاضي النابه ، وسأل الأمير أن يسمح له بأن يعالج الأمر ، فسمح الأمير . فقال القاضي للرجل بلطف : « لم أعهد أن عندك جملا ، ولا أعرف أنك تملك ثمن دجاجة ، فكيف أصبحت مالكا لجمال

بين عشية وضحاها . قال الرجل بسذاجة :
 «لقد خرجت من بلدي البارحة إلى البلدة
 الفلانية ، فمررت على بعض البدو وكانوا
 مقيمين في المكان الفلاني ، فغافلتهم وسرقت
 منهم هذا البعير» . فقال القاضي : إذا
 المأخوذ أخذ ، والمسروق سرق ، والأفضل
 أيها الأمير أن ترسل معه من ينظر إن كان بقي
 من الجمل شيء يُعطى إياه لأدامه .

قد يخطر في بالك - يا بني - أن تقول وماذا عن
 حق البدو أصحاب البعير الأصليين ؟ لقد كان
 القاضي وأهل ذلك الزمن يعرفون أن هؤلاء البدو
 لا بد أنهم قد أخذوا أباعر من غيرهم ، وربما
 أخذوها من أهل تلك البلدة ، لأن الأمور حينئذ
 كانت بين الناس إما ناهب أو منهب ، والقوي هو
 الرابع . وكانت الحرب سجالا بين البادية والمدن
 حينذاك ، ولا يمكن لجيل اليوم أن يتصور في ظل
 الأمن الذي نعيشه كيف كان الناس يعيشون في قلق
 دائم وذل مستطير .



إنك عندما تقارن أيضاً حال هؤلاء بحال آخرين
في أزمان قديمة مضت ، وقرون خلت ، ستجد
كذلك العبرة واضحة ، والنتائج ظاهرة ، ومما
يروى :

باع مزيد المدني دابة ، فلما كان من الغد
أتاه النحاسون (بائعو الدواب) طمعا ، فلما
نظر إليهم قد أقبلوا نحوه قام يصلي ، فأطال
الصلاة ، فقالوا له ، وهم لا يعرفونه :
يا عبد الله ، قد ذهب يومنا - وأطمعهم طول
قيامه ، وكان أحسن الناس سمعا ، وأظهرهم
هديا - فانفتل عن صلاته ، وقال : ما بالكم
قد قطعتم عليّ صلاتي ! فقالوا له : قد ظهر
بالدابة عيب ، قال : وما عيبه ؟ قالوا يخلع
الرسن . قال : لا أعرفه بهذه الصفة ، فماذا
تريدون ؟ قالوا : خصلة من ثلاث : إما
الحطيطة وإما رد الثمن وأخذ الدابة ، وإما
اليمين بالله أنك ما تعرف هذا فيه .

فقال : أما الثمن فقد فرقناه ، وأما

الخطيطة فما تمكنا ، وأما اليمين فإني
ما حلفت قط على حق أو باطل ، فأعفوني
منها ، فإنها أصعب الخطط عندي . قالوا :
ما من ذلك بدّ ، فانطلق بنا إلى الوالي .

فقام معهم ، فلما بصر به الوالي ضحك ،
وقال : ما جاء بك يا أبا اسحق ؟ فقص عليه
القصة ، فقال : قد أنصفك القوم . فقال :
أعز الله الأمير ، أحلف وأنا في هذه السن
و ضرب على لحيته وبكى ، وقال : ما حلفت
على حق ولا على باطل . والتوى ، قال :
لا بد ، فالتوى ساعة (ثاقل ولم يفعل) . ثم
قال : أصلح الله الأمير فإن حملت نفسي على
اليمين وحلفت وأعتوني بعد . قال :
أوجعهم ضربا وأحبسهم !

فلما سمع ذلك استقبل القبلة ، وأقسم
بأغلظ الإيمان وقال : لقد كان عندي دواب
كلها تخلع أرسانها فكان الحمار يقوم فيعيدها



عليها ويصلحها بقمه قليلا قليلا ، فضحك
الوالي حتى فحص الأرض برجليه وبهت
النخاسون ، وعجبوا منه وانصرفوا عنه^(١) .

(١) نوادر القصص عند العرب : ١٠٩ .



الشاهي والقهوة

أي بني !

تمام الصحة إحدى متع الحياة ، وكل شيء يمت لها بصلة يجذب الإنسان ، ولهذا رأيت أننا في حديثنا نحوم حولها ، نقترّب منها حتى نكون في وسطها ، ونبعد ولا نبعد ، بل نكون في أرباضها وضواحيها . في حديثنا عن الأدواء كنّا في وسطها ، نجول في ثناياها ، ونسبر أغوارها^(١) ، والآن ونحن نتحدث عن الشاهي والقهوة لابد أن تستفيد الصحة من حديثنا . فالشاهي والقهوة مادتان تدخلان داخل الجسم ، فتؤثران التأثير الذي أودعه الله فيهما . ولعل أصل استعمالهما كان لهدف غير الهدف الذي تبلور إليه اليوم . فاليوم أغلب الاستعمال لأجل الكيف ، والكيف قد لا يتماشى مع متطلبات الصحة ، بل إن الاسراف في تناولهما يكاد يكون معروف الضرر ، سيء النتيجة ، وهذه هي صلتها بالصحة ، أو على

(١) راجع «أي بني» ٢٢٣/١ ، ١٧٨/٣ .



الأصح بهدم الصحة .

وهذا موضوع بالنسبة لك الحديث فيه مقبول ،
لأنك تحبّ الشاهي ، ومن أحبّ شيئاً تمتّع بذكره .
وأنا أجاهدك في ألا تكثّر السكر في الشاهي ، حتى
لا يضيع طعم الشاهي ، وحتى لا يزيد وزنك بشيء
لا يضيف لبدنك قوّة ، وليتك ، يا بنيّ ، تتعود على
شربه بدون السّكر ، ففي هذا إقلال للضرر من قلة
«الحلاوة» ، ثم هذا يساعدك في ألا تشرب منه إلا
القليل .

وحبذا - يا بنيّ - لو قاومت شربه بين الوجبات ،
لأن شربه بينهما ضرره واضح ، فبجانب دخوله على
معدة خالية ، وفي هذا ما فيه من الأذى ، لأنه
يتدخل في عصارة المعدة التي تحتاج إليها للطعام ،
فإن تحريك المعدة للطحن ، ولا طحن ، يضرّ بها .
ومفعول الشاهي والقهوة وهما منبهان على معدة
خالية يضاعف مفعولهما الضار .

ولم أذكر هذا - يا بني - لأعطي تقريراً عنهما ،

ولكني أرمي في هذا البحث إلى المقارنة بين ما كان عليه الناس في الماضي وما صاروا إليه الآن لقد كان شرب الشاهي محدوداً ، وكان لشربه احتفال ، والذي يستطيع تناوله منتظماً مرتين أو ثلاث مرات في اليوم يعدّ من المحظوظين . وبعض الناس قد لا يشربه إلا مرة واحدة في اليوم . وقد يتناوب أحيانا على وعاء الشاي ثلاث دفعات من الناس ، يقطف زهرته الأولى الرجال ، ثم يزداد ماء ويعاد للنار لتخرج منه ما لم تخرجه النار الأولى ويشربه النساء . ثم يزداد ماء ويغلى ويزاد سكرًا ثم يعطى للصغار . ولعل الله أراد بالصغار خيرا إذ لا يصلهم منه إلا «رائحة الشاهي» ، فالغليتان الأوليان أخذتا ما فيه من طعم ولون ، ولم يبق فيه إلا رائحته التي توهم أنه شاهي ، ولعل مكسب الصغار منه السكر .

لهذا - يا بني - كان للدعوة للشاهي عند الناس معنى ، وكانت هذه الدعوة مكلفة لأن الداعي يتعهد بإرواء الشاربين ، والكرم يجعله يجبرهم على الشرب إذا أظهروا أنهم قد أخذوا منه كفايتهم ،



فيحلف أيانا مغلظة ، ويحتال عليهم في أن لا يبقوا في «إبريق» الشاهي شيئا ، وفي الغالب يسرون من هذا الإلحاح ، لأن حياءهم يوجب عليهم أن يتظاهروا من أول الأمر بالاكتفاء ، ولكنهم يدعون الله من قلوبهم أن يصرّ «معزّبهم» أو داعيهم ويلحّ ويحلف ، فيتظاهرون بالاكتفاء أكثر فأكثر ، فيصرّ هو أكثر وأكثر ، وكلّ يعرف ما بنفس الآخر ، ويعرف الداعي أن ما يظهره مدعووه من الرفض غير حقيقي ، وهم يعرفون أن الداعي يعرف ذلك أيضاً .

وقد يكون المدعوّ - يابني - «ابن نعمة» كما يقول التعبير الدارج ، فإذا قال : «بس» علامة الاكتفاء ، وألحّ الداعي عليه ، فإن هذا المدعو لا يكون مسرورا بهذا الإلحاح . وبسبب هذا الإلحاح المتوقع قد يعتمد هذا الضيف إلى الاكتفاء بأول «فنجان» لعل هذا يخفف عنه ضغط الإلحاح على شرب المزيد :

دعا أحدهم آخر ، لقدومه من سفر ، ولم يكن معه غيره ، وكان الوقت ضحى ، فصب له الشاي ، وبعد أن اكتفى المضيف أخبر المضيف أنه اكتفى . وطبعاً لا يمكن أن يسلم المضيف بهذه السهولة ، فسأله : ألم يكن السّكر كافياً؟ وقبل أن يسمع الجواب زاد السّكر في الشاي ، فلما شرب المضيف الفنجان بعد زيادة السّكر ، أعاد رغبته بعدم المزيد ، وقبل أن يسمع منه المضيف ، صب الفنجان ، وأردفه بكلمة : «لقد صبيته ، فاشرب» ، فشرّب المسكين . ثم أبدى مؤكداً عدم رغبته في المزيد ، فحلف المضيف أن يشرب ، فشرّب . ولكنه في هذه المرة أبقى الفنجان في يده ولم يعطه للمضيف . فلما يشّ المضيف من أخذ الفنجان قال للمضيف : «والله أن الشاهي سوف يرمى» ، فقال الضيف : «يرمى على الأرض ولا يرمى في بطني» .



وبهذا - يا بني - أعتق الله الضيف من أن يكون
بطنه قربة شاي لا يحتاج إلى أكثره . ويذكرني إمساك
الضيف الفنجان بيده بقصة أخرى طريفة :

قدم وفد من الأمريكان الذين يعملون في
الزيت إلى الرياض ، للسلام على الملك
عبد العزيز رحمه الله . وكالعادة صبت لهم
القهوة فشربوا ، وكان بينهم شخص جديد
على تناول القهوة العربية ، ولم يتنبّه إلى عادة
هزّ الفنجان علامة الاكتفاء ، فاستمرّ
« صّبّاب » القهوة يصبّ له ، ولما لم يجد
الأمريكاني منفذا للهرب من فناجين القهوة
المتتالية ، انتهز غفلة السّاقى ، فأدخل
الفنجان في جيبه واستراح من عنائه . ولعل
من رآه يفعل ذلك ظن أنه أخذه ذكرى ،
ولكنه عند الخروج أعطاه لأحد « الخويا »
الواقفين عند الباب .

أما اليوم - يا بني - فالناس يشربون الشاي طوال
النهار ، يشربونه في المكاتب ، وفي الدكاكين ، وفي

المعارض ، وفي البيوت . قبل الأكل وبعده ، وقليل منهم من ينظم أمر تناوله . ولم يعد لدى الناس ذلك الشوق للشاهي ، ولا ذلك النهم الذي كان له في الماضي ، وذلك لتوافره ، ولأن كل مضيف يقدمه ، وهو الشراب المشترك الذي قل أن يطرق البيت ضيف دون أين يكون هو أول ما يقدم له ، أو الثاني بعد القهوة العربية .

وللشاي طعم لذيذ ومذاق خاص في أمسيات رمضان ، وذلك لطول النهار الذي حرم المرء منه فيه بسبب الصيام ، ولهذا فإن الصائم يبدو وكأنه ينتقم من هذا الحرمان في الليل ، فلا يكاد ينتهي من الافطار حتى يسارع إلى شرب الشاي ، ويكاد لا يتوقف عن شربه إلا للتراويح أو لصلاة القيام . وبعض الناس يعاني من صداع في رمضان ، خاصة في اليوم الأول واليوم الثاني ، وهم يقولون إن هذا الصداع إنما حدث بسبب «خرمة» الشاي ، بينما يقول العارفون إنه من نقص السكر في الجسم بسبب الصيام . ولكن الجسم ، صنعة الحكيم



الخبر، سرعان ما يتأقلم مع الصيام فيصبر الناس عن شرب الشاي، ويذهب عنهم الصداع .

والحديث - يابني - عن القهوة والشاي في بلادنا طريف في تاريخه وتطوره ، وفي اختلاف الأجيال في تعاملها معها . ولا يبدو أن هناك من يعرف بالتحقيق ، وعلى وجه الدقة ، متى دخل في حياة ابن الجزيرة ، ولهذا فالحديث عنها لا يبدأ عندي بتاريخ محدد ، لأنه من الصعب عليّ - أنا على الأقل - أن أحدّد البداية وصاحبها الذي كان أول من أدخل الشاي إلى بلادنا ، إن هذا يحتاج إلى بحث دقيق واستقصاء علمي ليس هذا محله .

على كل حال إن طريق دخول الشاي قد يكون مختلفا عن طريق دخول القهوة ، فالشاي ربما جاء مع الحجاج من جنوب آسيا ، أو عن طريق التجّار الذين ذهبوا للهند وما وراء الهند من البلدان الآسيوية . أما القهوة فأغلب الظن أنها جاءت من اليمن ، مارّة بالمناطق الجنوبية من المملكة ، ثم انتشرت في أجزاء الجزيرة العربية الأخرى .

ومالاشك فيه - يابني - أن القهوة اليمنية ،
المسماة بالبرية ، مخالفة للبحرية التي تجلب عن
طريق البحر من البرازيل وغيرها ، فالأولى لها
قصب السبق عند ابن الجزيرة العربية الذي أصبح
ذواقة لها ، يميز بين رديثها وجيدها ، ويعرف بدقة
درجة تحميصها ، وما إذا كان قد تم بالطريقة
السليمة نتيجة وضعها على نار هادئة . وتقليبها بيد
ماهرة لا تغفل ولا تكل ، وتعرف مواقع الحرارة من
« المحاسة » . وتعرف أيضاً هل بردت في إناء
الخصوص المعد لذلك ، وهل عُرِّقت عند الحمص ،
وهل « دقت » كما ينبغي بيد مجرب أو أنها سحققت بيد
مهتزة لحدائتها ، أو لعدم عنايتها .

ويعرفون بسهولة هل « طبخة » القهوة جديدة ،
أو أنها « ثنوة » . وهل هي « بائنة » من أمس أو هي
طرية حديثة قد عملت لتوها . وهل تركت حتى
تركد أو استعجل في صبها ، وهل « الهيل » قد قلب
قلبة كاملة أو أكثر ، أو أن أطرافه - وهو المطلوب
المحمود - قد زبدت فقط ثم أبعدت الدلة عن النار



قبل أن يقلب الهيل . وهم يعرفون كذلك أن وضع
الليفة ونوعها يلعبان دوراً مهماً في طريقة صبّها وفي
نتيجة صبّها ، وفي صفاء ما يصبّ منها .

وقد قتل أمر حلّ القهوة أو تحريمها بحثاً ، وانتهى
البحث إلى القول بحلّها ، وبهذه المناسبة ، وعن
نظرة الأمم إلى حل القهوة أو تحريمها هناك نسخة
من مذكرات القنصل البريطاني الذي كان في بلاط
أحد سلاطين آل عثمان ، فقد وصف القنصل في
مذكراته ما يجري في البلاط عند استقبال الناس ،
فقال : «إنهم يقدّمون شراباً أسود ، يسمى
(الكافا) ، يساعدهم على كفرهم» ، ولا أدري ماذا
سيقول هذا القنصل لو عاش ليرى قومه في بريطانيا
وجيرانه في أمريكا اليوم وهم يشربون «فناجينها»
طوال النهار الواحد تلو الآخر . ومن المؤكد أن هذا
الذي يشربونه منه ليس أسوأ مما يشربون من غيره مما
يؤذيهم ويزيد في عصيانهم .

ويبدو أن دخول القهوة إلى حياة الناس في
الجزيرة قد سبق دخول الشاهي إليها ، ولعل هذا

راجع إلى قرب موطن القهوة من الجزيرة وبعد موطن الشاي منها ، فاليمن بلا شك أقرب من الهند أو سيلان ، مع أن البن قد يكون في الأساس جاء إلى اليمن من مقاطعة «الكافا» في افريقيا على الساحل الملاصق لليمن .

وقد لعبت القهوة دوراً مهماً في سمر الناس ، وفي اكرامهم للضيف ، لقد فاخروا بها ، وأبرزوا فضل المعني بها . وكعادة الشعراء منهم عندما تصل العاطفة عندهم إلى قمته صبوها في شعرهم سلسيلاً عذبا ، وبنوا عليها قصصاً ممتعة ، حقيقة وخيالية ، وكما خصص الناس جزءاً من نهارهم للعمل فقد استعانوا على سمرهم في الليل بالقهوة وبصنعها على نار يوقدونها أمامهم ، لقد أنشأوا لشرب القهوة عادات وبنوا عليها تقاليد ، وسنوا سنناً ، ونظموا في القهوة أشعاراً ، وجعلوا لها أدوات تغنّوا بها أحياناً ، لأنها عندهم وسيلة شرب لهذا الشراب الغالي ، وتنحصر هذه الأدوات عادة في المحماسة ، ويدها ، والمبرد ، والنقيرة أو المدقة ، أو



المطحنة ، والهاون « النجر » .

لقد كان أهل الكيف يختارون البن - يابني - اختيارا دقيقا ، ويحرصون على أجود أنواعه . وفي وقت مضى كانت الأصول المرعية تقتضي ألا « تحمس » تحمص القهوة إلا أمام الضيف ، وبهدوء وببطء متناه ، وتكمل خطوات صنعها إلى مرحلة شربها بدون عجلة ، وفي هذا إشارة إلى الرغبة في إبقاء الضيف مدة طويلة ، للتمتع بحضوره وصحبته . وقد يشعر الضيف بأنه جرح جرحا بالغا فيما لو قدمت له قوة معدة قبل مجيئه ، أو « محموسة » قبل مجيئه . و « حمس » القهوة فن لا يتقنه إلا شخص متمرّن مدرّب . وغالبا ما يقوم به المضيف بنفسه ، ولا يعتمد فيه على أحد ، إلا إذا كان من كبار عائلته ، ولدى من يعتمد عليه من اتقان صنعها مالمديه هو .

والخطوة التي تلي « الحمس » في « المحماسة » هي نقل القهوة منها إلى « المبرد » وهو وعاء توضع فيه القهوة لتبرد ، وهو بحجم يتسع لأكبر « حمسة »

يمكن أن «تحمس» ، وعادة ما يكون من الخوص الغض يؤخذ من قلب النخلة . ويُعتنى بأن يكون ملونا ألوانا تجعله جذابا . وهذا يساعد أيضاً في ألا يسوّد البن ، مما يظهره بمظهر المتسخ ، وهو أمر لا يتناسب مع الأوعية التي تختص بالأكل أو الشرب .

فإذا برد البن المحمص نقل إلى الهاون «النجر» ليهرس فيه ويسحق بالدرجة التي يختارها الذي «يدق» القهوة ، وهذه العملية تماثل «حمس» القهوة وهي درجات تخضع للاختيار والتفضيل ، وهي أيضاً مما يتفاوت الناس فيه ، وهرس البن في الهاون يتم بطريقة فنية ، ويكون له رنة خاصة ، ونغمة يتعمدها الذي يسحق البن ، فهو يضرب ضربتين على البن والثالثة يلمس بها طرف الهاون ، ليعطي صوتاً من المفروض أن يجلب الضيوف في الأصل ، وقد استمرت هذه العادة ، وأصبح «هارسوا» البن يتفاخرون ويتفاضلون بالنغمة التي يختارونها ، وأصبحوا يتفننون فيها ، وقد يكون لبعض



«الدقات» صوت منعش وقوي ، يخترق جدار الصمت في الصحراء في الليل البهيم ، فيؤنس الوحدة ، ويدل على «المأنس» ، ويقود إليه في هذا القفر ، وهو صوت مبهج للضال والجائع والظمان و«الخرمان» ، لا يعد له صوت ، ولا غرو أن اعتنى به ، كما يعتنى «بالنوتة» الموسيقية . ولهذا الصوت في شعرهم مكان رحب لما يلعبه من دور في جلب الضيوف وهديم وتسليتهم . فهو دعوة كريمة ، ونغمة مبهجة ، ولسان رطب .

يوضع البن المحمص المطحون في دلة القهوة ، ليغلي بالمقدار الذي يريده «راعي» القهوة . ودلة الغلي هذه مخصصة لهذا الشأن ، وهذا دورها الذي لا يخلط به غيره ، وهي لا تستعمل لسواه ، وتصدر هذه الدلة على النار ، وعلى ما تحدثه بها من سواد ، ويصبح ذلك جزءاً من شخصيتها ، ولهذا الدلة شكل خاص يساعد على أداء الجانب العملي من عملية صنع القهوة ، فأسفلها واسع بحيث تتحمل الدلة الكميات التي يحتاج إليها ، وقد لا يُعتنى

بمظهر الدلة الخارجي كثيراً لصعوبة هذا ، فهي عرضة للهب النار طوال الوقت . والعناية الكبرى تصرف في العادة لداخلها الذي يحتاج إلى «رَبِّ» «جلي» بين آن وآخر و «رَبُّها» مهم لأنه يؤثر على الطعم حسنا ومذاقا ويعطي منظراً رائعاً للبن إذا صب .

وإذا غليت القهوة المحمصة إلى الحد الذي يختاره صانعه وضعت جانبا وأبعدت عن النار لتركد وتصفو ، وهي خطوة يهتم بها أصحاب «الكار» و «الكيف» ، وبدون ذلك تبقى عند تقديمها غير صافية في المذاق واللون . وفي هذه الأثناء ، وحتى تصفو «يدق» «الهيل» أو «حب الهال» كما يسمى في بعض البلدان العربية ، فإذا «زَلَّت» أي نقلت القهوة من دلة الغلي إلى دلة «الصب» وضع عليها من الهيل ما يغطي وجه الدلة ، ووضعت على نار خفيفة ، فإذا ما بدأت أطراف الهيل تزبد وقبل أن تقلب قلبة كاملة ، تبعد عن النار ، وتوضع ليفة تمنع تسرب الهيل من الدلة إلى الفنجان عند الصب .



وبهذا تصبح القهوة جاهزة للصب والتقديم .

ولا يقف الفن في وضع الهيل في القهوة عند هذا الحد ، بل إن وزنه يلعب دوراً كبيراً في الاختلاف بين قهوة وقهوة ، والعارفون يحرصون على وزن نسبة الهيل مع القهوة ، لأن الهيل إذا زاد نفر منه بعض الناس ، وإذا قلَّ أوجب الملاحظة . وعلى الغالب فإن زيادة الهيل ليست متقدمة ، على الرغم من أنها في كثير من الأحيان تُضيع لذة القهوة ، إلا أن الضيوف يقدِّرون الهدف من وراء الزيادة ، ويضحُّون بالطعم الذي يحبونه من أجل هذا الهدف الذي لا يخرج عن أن يكون زيادة في الاكرام .

ودلة الصبِّ يُعنى بها شكلاً ومظهراً ، فشكلها يتحتم أن يكون جميلاً متناسقاً يميل إلى الطول ، مع تناسب في أجزائها ، ولا بدَّ أن يكون لونها صافياً ، فيه لمعان تبدو معه وكأنها « عين الديك » ، وأشهر الدِّلال في الجزيرة هي دلة رسلان وهي تصنع في الشام ، وكان رسلان صاحب المصنع يدمغها بدمغة تؤكد أنها من صنعه .

ويمسك صَبَاب القهوة الدّلة بيده اليسرى ،
والفناجين بيده اليمنى ، فهو لا يمد للضيف إلا اليد
اليمنى ، لأن إعطاء القهوة تحية ، والتحية سلام ،
ولا يمدّ للسلام إلا اليد اليمنى . فهي اليد
المخصّصة للتكريم . ولا يجوز أن تمدّ اليد اليسرى
بحال من الأحوال حتى لو كان المقدّم للشخص
شيء آخر غير القهوة ، بل يجب أن تكون يد المعطي
وكذلك يد الآخذ هي اليمنى . وهي أيضا اليد التي
يؤكل بها ويشرب . وإذا احتاج أحد الآكلين إلى أن
يشرب ماء أو لبنا وهو يتناول الطعام وكانت يده
اليمنى لا تساعد على التناول لأنه يأكل بها ، وقد
علق بها بسبب ذلك من آثار السمن ما لا يساعده
على مسك كأس الماء أو اللبن ، أخذ هذا الكأس
باليسرى ، وعضده من أسفله باليمنى مقلوبة ،
بحيث يركز الكأس أو وعاء الشراب على ظاهر
الكف اليمنى ، وهذا رمز يشير إلى مراعاة الاعتبار
الاجتماعي هنا ، وأن الأصول لا بد أن تبقى معتبرة
ومنفذة شكلا إن لم يكن تنفيذها فعلا .



وعندما يرى السعودي في بعض الأفلام التي تدور وقائعها في البادية ، والتي يتم تصويرها وإخراجها في بعض البلدان العربية ، صَبَاب القهوة يصب والدلة في يمينه ، والفناجين في شماله يمدها للضيف يصاب بالقلق ولا تعدم أن تسمع من أحد المشاهدين ، ممن لم يسيطر على شعوره كلمة «كسر» داعيا على الصباب بكسر يده لارتكابه هذا الخطأ الفادح والعيب الفاضح .

وفنجان القهوة لا يهدف إلى التسلية وتحلية السمر فقط ، ولا إلى إطفاء «الخرمة» فحسب ، لا ! إنه يتعدى ذلك إلى ما هو أخطر ، إنه يتعداه إلى إطفاء نار الثأر فقد يُغَيَّر قوم على قوم فينالون منهم على غرة ، ويأخذون منهم شيئا كثيرا نتيجة المفاجأة ، أو قد يُقتل فرد مهم أو عزيز في سفر أو في ظرف من الظروف ، ويجتمع القوم للتشاور والتدبير ، فيرفع المطالب بالثأر ، أو رأس العشيرة ، فنجاناه ، وهو أول فنجان يصب في الغالب ويقول : «من يشرب فنجان فلان» ، إن هذا يعني أن أي فرد

من الحاضرين يأخذ الفنجان ويشربه ، يصبح المتعهد بقتل القاتل ، وغسل هذا العار الذي يبقى يصرخ حتى يمحي بدم القاتل .

أننا لو تتبعنا الأدب الشعبي الحديث في الصحراء لوجدنا الكثير من القصص الممتعة في هذا الأمر ، وهي قصص تتماثل في هدفها وأسبابها ، ولكنها تختلف في مجرى تنفيذها ، وفي الطريق التي سلكتها أحداثها ، وفي الزمن الذي استغرقتة هذه الأحداث ، وفي الحيل التي دبرها أبطالها ، وفي الخدع التي حاكوها ، وفي المفاجآت التي انطوت عليها ، وقد قيل في هذه القصص شعر ، وفي هذه القصص ما هو مصنوع ، ومنها ما زيد فيه وحوّر في وقائعه ، ومنها ما نسج على منواله ، قصص أخرى خيالية ، نسجت فيها أجداد قوم قد لا يكون لهم مثل تلك الأجداد التي نسبتها لهم هذه القصص .

والناس على كل حال في صب القهوة يختلفون ، فبعضهم يملأ الفنجان ، وبعضهم يقلل «الصبه» ويكرر المرات ، ولهؤلاء مغزى ، ولأولئك مثله .



فالذين يملؤونه يرمون إلى الاكرام وهو أمر قريب إلى الذهن ومقبول ، والذين لا يملؤونه يرمون إلى التشرف بتكرار الخدمة ، ويرون أن عدم فعل ذلك قد يوحي بالرغبة في انهاءها وهو ما لا يجوز . ثم إن القهوة ليست غذاء بل هي للتسلية ، أو للقضاء على الحرمة ، أو « عدل الرأس » الذي أماله طول وقت الحرمان منها :

تروى قصة عن أحد من عرفوا بالصرافة ، وهي قصة خاصة بعدم ملء الفنجان فعندما قدم له صاحب القهوة الفنجان ، ووجد ما فيه من القهوة يصل إلى منتصفه فقط ، أشار إلى « بريم » في أعلى الفنجان ، وهو خط وضعه صانعه للزينة . قال « المتقهوي » للمضيف : وهذا البريم « وش سنعه » ؟ أي مادوره ؟ ، وماهي فائدته ؟ « إن صانعه لم يضعه عبثا ، وإنما وضعه ليملاً الفنجان إليه .

سارت هذه القصة بين الناس ، وأصبحت هذه

الكلمة تردد استملاحا ومزاحا . وأصبح الناس يعرفون أنك بمجرد أن تشير بأصبعك إلى البريم الذي في الفنجان يفهم من يصب القهوة أن قصدك هو ملء الفنجان .

لقد بدأت الملح في وجهك ، يا بني ، بعض الملل ، فقد بدأت تتأب والتأوب يُعدي ، فإذا تأب أحد الجالسين تأب من يراه ، ولا أدري ما السبب ؟ هل التأوب نفسه له قوة التأثير مما يجعل الإنسان الآخر يتأب فيقلد مرغماً ؟ أم أن هناك إشعاعاً خفياً ينطلق من عُدة أو خلية في وجه المتأب أو في فمه إلى وجه مقابله أو فمه ؟ أم أن هناك غازاً غير مرئي ، يتسرب طائراً في الهواء ، فيصيب الجالسين بالتأوب . إنك تستطيع أن تنيم شخصاً بتعمد تكرار التأوب وهذا هو ما يزعجني - يا بني - فقد أصبحت أخشى أن أتأب مثلك ، وبهذا تتحول جلستنا إلى حفلة تأوب ، شهودها ابريق الشاهي المنهك وفناجينه الفارغة المتعبة ، ودلة القهوة الفارغة وفناجينها «المسطورة» بجانبها وكأنها أرنب ترضع



أطفالها ، وعدد من النوى يدل على أنه كان هناك تمر .

إن علمي بدوام تشاؤبك يجعلني أسرع بالحقنة الإسعافية ، وهي ليست إلا قصة لها مفعول قوي يتناسب مع عمق مَلَلِك ، والقصة ، يابني ، قريبة مما نحن فيه ، وفيها تبكيت على عدم صبرك على «فيتامين» الفوائد التي أسوقها إليك معلومات جاهزة تخزنها في ذهنك إلى وقت قد تحتاجها فيه ، وأنت بلا شك لا تدري متى يأتي هذا الوقت ، ولا متى تحتاج إلى مثل هذه القصة ، وإليكها :

سافر أحد أقربائك من نجد إلى الحجاز مع جماعة في سيارة «لوري» ، فطراً خلل على السيارة ثبَّتْها في مكانها عدة أيام ، انتظاراً لمرور سيارة تساعدكم على جلب قطعة «الغيار» التي يحتاجونها . وهذا الذي حدث للسيارة وللركب أمر معتاد ، وكان يحدث للسيارات دائماً في تلك الأيام لرداءة الطريق وسوء صيانة السيارات ، والجهل باستعمالها

على الوجه الأمثل ، وربما طالت مدة
الانتظار لقلة طارقي الطريق ، ولتباعده
المسافات بين المدن ، ولم تكن المواصلات
اللاسلكية متاحة آنذاك في مثل هذه المفاوز ،
ولم تكن المحطات أيضاً متقاربة ، وما على
المرء في مثل هذه الأحوال إلا الانتظار ،
وحسن التدبير في صرف الماء والمؤونة . ولكن
الناس والصحراء «أصحاب» لا ينفر أحدهما
من الآخر ، فسرعان ما يتبين هؤلاء السُّفَرُ
حياة الصحراء ، وتطرب أنفسهم لذلك . ولم
يكن لمجموعة الركاب هذه تسلية إلا لعب
الورق ، فانقسموا إلى مجموعات ، كل
مجموعة أربعة أشخاص ، ولكن مجموعة
واحدة نقصها واحد ، ولم يستطع قريبك
هذا أن يكمل العدد لأنه لم يكن يعرف لعب
الورق ، فقد شغلته الدراسة والمنافسة مع
المتفوقين في فصله ، عن اتقان مثل هذه
الملهيّات أو حتى معرفتها ، فاختاروا بدلاً منه



معاون السائق ، وألقوا على عاتق قريبك عمله ، فصار يحطب ويصنع الشاهي ، ويعد للطبخ ويغسل الأواني ، وصار المعاون أغلى عند الركاب من قريبك الراكب المحترم ، وكذّ قريبك وكدح ، وكأنهم أرادوا أن يعاقبوه على جهله بلعب الورق بهذا العمل المضيئي ، وأن يكرموا المعاون لمعرفة هذه اللعبة القاتلة للوقت ، والتي لم تكن تخلو من تمرين للفكر وشحذ للذهن . على أي حال ، لقد قام قريبك بدوره خير قيام ، لأنه كان قد تدرب من قبل على صنع القهوة والشاي ، فبيّض لذلك الوجه كما يقال .

لقد ذكرتني هذه القصة بقصة لا أودّ أن أحرمك من سماعها ، لأنها صورة من الماضي ، وقد لا تتكرر ، ومن حقها ما دامت قصة واقعية قد حدثت فعلا أن تسجّل ، وهي على كل حال جديرة بالتسجيل :

سافرت مجموعة من طلاب البعثات

الذين يشكلون دفعة من خريجي المعهد العلمي السعودي بمكة ، ومدرسة تحضير البعثات من جدة إلى مصر ، بالباخرة «تالودي» في منتصف الستينات الهجرية وكان هناك ثلاث بواخر مشهورة تعمل بين جدة والسويس هي : «تالودي» و«زمزم» و«الطائف» ، وتصادف أن هذه المجموعة ضمت فئتين من الطلاب ، فئة سبق أن سافرت إلى مصر في عام سابق ، ودرس أفرادها في جامعتها في القاهرة ، ونجحوا وجاءوا لزيارة أهلهم في مكة المكرمة ، وفئة تخرجت من المرحلة الثانوية حديثا ، وهي تغادر لأول مرة جدة في طريقها إلى مصر لتلتحق بالجامعة ، ولعل بعض أفراد هذه الفئة لم يروا البحر ، أو لم يروا باخرة قبل ذلك ، لأن النزول في تلك الأيام من مكة إلى جدة لم يكن سهلا ، ولا يقدم عليه إلا من احتاج إلى ذلك .



ركب أفراد الفئتين الباخرة معا ،
واستولت الدهشة على أفراد الفئة الجديدة ،
وأخذوا يذرعون الباخرة وهي راسية جيئة
وذهابا ، يطلون من كل منحى ، ويقفون في
كل زاوية وكأنهم فريق مفتشين . فلما آن
أوان رفع المرساة (الهلل) أسرعوا ليصطفوا
على حافة مؤخرة الباخرة ، لينظروا كيف
تبحر ، ولو رأيتهم - يا بني - لرأيتهم وكأنهم
غرائق صفت على غصن ، ثم بدأت الباخرة
تدخل إلى وسط البحر ، والزبد يترامى
خلفها ، وأدهشهم المنظر ، واستمروا
يتابعونه على الرغم من نصح الناصحين بأن
هذا سوف يؤدي إلى إصابتهم بدوار البحر .

أما الطلاب القدامى فقررروا أن يلعبوا
الورق ، فلا شيء يقتل الوقت إلا هو ،
وأخذوا يبحثون عن يكمل المجموعات
المطلوبة ، وكان المكان الذي اختاروه هو
سطح مستودع البضائع لاستوائه ولقربه من

المستشفى وغرف النوم . وقد حاول ثلاثة من الطلاب الجدد أن يلعبوا الورق أيضاً ، وذهب أحدهم لبحث عن رابع (ما أغلى الرابع - يابني - في لعب الورق) ليكمل العدد ، فلم يعد ، فذهب الثاني يبحث عنه ، فلم يعد ، ثم لحقهم الأخير ، وسرعان ما تبين لزملائهم أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة قد أصيب بدوار البحر بمجرد تجاوز الممر وأنه قد « تكردس » وألقى نفسه على سريره ، وفي حالة لا يعلمها إلا الله من جراء هذا الدوار .

لقد بقي هؤلاء الثلاثة في الغرفة يومين لا يتحركون منها ولا يخرجون ، لا يهمهم أكل ولا شرب ، ولقد وجدوا الموت هيناً أمام ما يقاسونه من دوار البحر ، لم يعد يهمهم منظر زبد البحر الذي تحركه الباخرة وكأنه ذيل ثوب عروس يسير خلفها ويسحب . ولقد كانوا بسبب الدوار الذي أصابهم يغبطون الخدم الذين يمرون ببابهم كل

صباح ليغسلوا الممرات . ولقد كانوا يتساءلون في نفوسهم دون أن ينطقوا : كيف يستطيع هؤلاء الوقوف على أقدامهم والباخرة تتمايل كالسكرى يمينا ويسارا ؟ لقد نسي الطلاب المشي بسبب قعودهم واضطجاعهم المتواصل في هذين اليومين . ولقد كانوا يتطاوحن ، ويمسكون بأي شيء تقع عليه أيديهم عندما يضطرون إلى الوقوف أو المشي ، وأصبح بعضهم «يتوجد» على اليابسة ، ويتغزل فيها قائلا : ما أجملها وأبهاها بالمقارنة مع البحر .

وفي اليوم الثالث شعر هؤلاء الطلاب ببعض التحسن ، أو أوحوا لأنفسهم بذلك ، أو خجلوا من زملائهم وغيرهم ، وكان الجوع قد أمضهم ، والضعف قد أضناهم ، لأنهم لم يتغذوا الا بالسوائل وهي لا تمكث طويلا في بطونهم . فقرروا أن يذهبوا إلى المطعم لتناول طعام الغداء ، فأخذتهم

رهبتان الأولى من طول المسافة بين «منامتهم» ومقر المطعم في حين كانت أرجلهم لا تقوى على حملهم طويلا . والثانية من أنهم لم يتعودوا على الجلوس إلى الموائد لتناول الطعام ، ولم يعتادوا الأكل بالشوكة والسكين . وكانت هناك مشكلة حلوها منذ البداية ، وتمثل هذه المشكلة في توقعهم أن يشاركهم مائدتهم أجنب يكون من بينهم نساء (ياللهول!) إن هم ذهبوا للمطعم مبكرين ولكنهم حلوا هذه المشكلة بأن طلبوا من أحد طلاب السنة الماضية أن يخبرهم بموعد انتهاء الغداء قبل انتهائه بنصف ساعة . وأملوا أن يكون أغلب الناس قد انتهى من تناول الطعام وغادر المطعم قبل هذا الموعد .

ثم بدأوا يخرجون من مقرهم كما يخرج اللص من البيت الذي سرقه ، وأخذ كل منهم يتأكد من أنه ليس في الممرات أحد ،



فهو يخرج رأسه من الباب ، ويديره يمينا ويسارا ، ثم يتبعه بكتفه ، ثم قدمه الأولى ثم الثانية ، ثم يسير خطوات ، ويعد سيء الحظ من يعود بخطواته إلى الوراء عندما يرى شخصا مقبلا . ولقد عبروا الممر وهو لا يزيد عن عدة أمتار وهم يشعرون كأنهم ساروا أميالا : يد على الجدار ، ويد على تمسك وضع لجال السفينة ، ثم تعود اليد الأولى تتحسس شيئا تمسك به ، حتى وصل أولهم إلى المطعم ، والتفت خلفه ليتأكد أن بقية المجموعة تسير خلفه ، فرآهم يتمايلون ، فأطمأن ، وهكذا دلفوا جميعا إلى المطعم ، وجلسوا على الكراسي ، وأتى النادل ، وسألهم عما يريدون أكله ، وسرعان ما أدرك بتجربته أن عليه أن يختار لهم ، فأخذ يقترح عليهم ، وكانوا يوافقون على اقتراحه قبل أن يكمله ، ثم ذهب ليحضر لهم الطعام بدءا بالحساء ، لقد شعر هؤلاء الطلاب أنهم قاموا

بمجهود جبار ، وأقنعوا أنفسهم أنه مجهود
يزيد عما كان يجب أن يقوموا به . وبينما هم
يتتظرون طعامهم شعروا فجأة كأن البحر
قد أصبح فوقهم وأن السماء قد أصبحت
تحتهم ، وبدأت رؤوسهم تلف ، وعيونهم
تدور سريعة في محاجرها ، وبدأت نظراتهم
زائغة ، ثم بدأوا يتخيلون أن تمايل الباخرة
قد زاد ، وأنه في ازدياد مضطرد مما أخافهم ،
فعلا قلوبهم الهلع . لقد مر وقت قصير قبل
أن يأتي الحساء ، ومع ذلك فقد اقترحت
خلاله اقتراحات صامتة ، نقلتها النظرات
التائهة ، لقد شعر كل واحد منهم أن زميله
يشجعه على الانسحاب ، وسرعان ما اتفقوا
على أن يبدأ الانسحاب أقربهم للباب ، فهو
أولاهم بالتقهقر ، لأنه أقلهم لفتا للنظر ،
ففرح هذا بترشيحهم له ليكون أولهم في
التقهقر ، ولم يصدق أذنيه ، وجاءته قوة
طارئة ، فانسل كالشعاع ، ثم تبعوه واحدا



واحدا ، كأنهم خرز سبعة انقطع خيطها .
فابتلعهم الممر في ثوان ، وعادوا إلى قواعدهم
سالمين ، ورموا أنفسهم على سررهم فخالوها
النعيم المقيم ، ونسوا الجوع أمام الهول الذي
سببه جلوسهم على الكراسي في المطعم
انتظارا للطعام .

ولا تسل - يا بني - عن النادل فقد وجد
الغرفة خالية عندما عاد ، ووجد الكراسي
تنعي الجالسين عليها ، ووقف مشدوها ،
وخيل إليه أنه يسمع ضحك السفرة
والكراسي والشوك والسكاكين والجدران
منهم وعليهم . وأنا لا أظن - يا بني - أن هذه
كانت هي أول تجربة يمر بها النادل ، وربما
كان عجبه أشد لو عاد فوجد زبائنه
ينتظرونه .

على كل حال لقد كانت سعادتهم
لا حدود لها عندما وصلوا إلى اليايسة في مصر
وذلك على الرغم من أنهم بقوا يوما أو يومين

بعد ذلك وهم تحت وطأة الشعور بأن
الأشياء ما زالت تدور . وزاد من سعادتهم
أنهم ركبوا حافلة من السويس إلى القاهرة
سارت بهم على طريق مرصوف ، وهم الذين
لم يركبوا من قبل شيئاً مثل هذا ، ولم يروا
طريقاً مرصوفاً .

وأعود الآن - يا بني - مرة أخرى لألفت نظرك
إلى ما ألاحظه من بداية عدم صبرك على سماع
ما يلقي إليك ، لذلك فأنت في حاجة إلى أن تُنمّي
ملكة الصبر عندك ، لأن الزمن لا يسير على وتيرة
واحدة ، فيوم تمر الأمور سهلة رخية ، ويوم تمر
صعبة مزعجة . وقد تتوالى الصعاب ، وعلى
الإنسان أن يكون مستعداً ، ومتعوداً على تحمل
صدماتها والا أطاحت به أول صدمة ، وأضعف
لطمة إذا وجدته هشاً لنا . وإن التعود على مقابلة
الصعاب والتصدى لها بثقة ورزانة لا بد أن يكون
وأنت لا تزال غضّ الالهاب . أمّا إذا تجاوزت مرحلة
الشباب وأنت ما زلت لم تتعود على الوقوف في وجه



الصعاب فإن الأمر يعسر عليك . وإن صبرك على الملل - يا بني - لا يعد شيئاً يذكر مقابل الصبر على ما قد تأتي به الحياة ، وإليك هذه القصة التي تريك كيف كان يُبنى الرجال من أمتك العربية :

دخل رجل على سلم بن قتيبة الباهلي ، فكلّمه في حاجة ، ووضع نصل سيفه على أصبع سلم بن قتيبة ، وجعل يكلمه في حاجته ، وقد أدمى أصبعه وسَلَم صابر . فلما فرغ الرجل من حاجته وانصرف ، دعا سلم بمنديل ، فمسح الدم من أصبعه وغسله ، ف قيل له : ألا نحيّت رجلك ، أصلحك الله ، أو أمرته برفع سيفه عنها ، فقال : خشيت أن أقطعه عن حاجته^(١) .

إن حديثي عن الشاهي والقهوة لا يحدث لك جرحا يسيل منه الدم ، فأين أنت - يا بني - من مستوى ابن قتيبة ؟ المتوقع منك أن تكون أكثر جَلَدًا

(١) عين الادب والسياسة السياسية ، ص ١٩٨ .^١

في طلب المعرفة . نحن كثيراً ما نقول لكم ليتكم مثلنا ، فنحن كنا وكنا ، وهذا القول فيه نقص ، لأنكم إن حاولتم أن تكونوا مثلنا ، فلا بد أن تقصروا عنا ، والأولى أن نقول لكم : كونوا أحسن منا ، فإذا حاولتم ذلك فستكونون على الأقل مثلنا . يُروى أن رجلاً سأل ابنه : من تريد أن تكون مثله ؟ قال : مثلك يا أبي ، قال له والده : لن تكون ، لأنني حاولت أن أكون مثل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ولم أستطع أن أصل إلا إلى ما تراني قد وصلت إليه .

على أي حال ، أعود إلى حديث الصبر ، وقوة التحمل ، والمروءة التي أبدأها سلم في قصتنا السابقة ، لقد تحمل الأذى حين صبر على خروج الدم من أصبعه ، لكي لا يقطع طالب الحاجة عن حاجته ، لأنه لو لفت نظره للأمر المزعج الذي أحدثه سيفه لذهل عما جاء لأجله ، والمروءة توجب إبعاده عن هذا الموقف .

إن هذا يؤدي بنا - يا بني - إلى موقف مماثل ، هو



موقف عزيز ابن خاله . إن عزيزا هذا شخصية تستحق أن يَكُتَبَ عنها من يسجلون التراث ، وقصته قصة طريفة ، وهي تلخص في الآتي :

يروى أن خال عزيز هذا احتاج إلى رفيق سفر يعتمد عليه في مهمة خطيرة لا يقضيها إلا الرجال المعدودون ، فأراد أن يختبر الذي سوف يختاره من بين شباب القبيلة لمرافقته ، وأراد أيضاً أن يختبر الناقة التي سوف يعتمد عليها في هذه الرحلة المتميزة . أما الناقة فكانت الطريقة لاختبارها أن يبركها فوق بيت نمل شرس ، فإن هي قلقّت من تسلق النمل على جسمها ولم تتحمل عضّه ووخزه ، تركها لأنه لا يعتمد عليها ، وقد وجد الناقة التي ترضيه بعد أن اختبر عدداً من النوق ، عرضها لهذا الاختبار القاسي .

وبقي بعد ذلك اختبار الشاب الذي سيرافقه في رحلته ، لقد اختار له أداة اختبار عجيبة ، يختبر بها قدرته على الصبر وقوة

التحمل ، وهي أداة غريبة ، سهلة وصعبة .
لقد كان القمل في تلك الأيام يعبث في
الرؤوس ، ويرتفع ويلعب في الشعر ، وكان
هذا شيئاً معتاداً ، خاصة في فصل الشتاء
عندما يهاب الناس قرب الماء لشدة البرد .
وكان لبعض الخدم أو غيرهم ممن ينتدب
لمهمة مكافحته في الرؤوس عمل منظور في
«فلي الرأس» . والمهمة هذه تقتضي أن
يطأطأء المفلي رأسه للفالي وقتاً غير قصير .
ليبحث فيه عن القمل فيقتله ، وعن
«الصبيان» ، وهي بيض القمل ، لينسلها
من الشعرة التي ألصقتها القملة بها .

لقد اختار خال عزيز ، شاباً من بين
عدد من الشباب ليفليه ، وجلسا في
الشمس ، لأنها تساعد على تحريك القمل
من مكانه ، إما لأنها تدفئه ، فيخرج من
هذه المكامن لملاقاتها ، أو لأنه يهرب من
ضوئها وحرها إلى مخابئ أخرى مظلمة .



المهم أن الشمس تساعد الفالي على رؤية
القمل بسهولة .

وبعد أن اختار خال عزيز أقوى الشباب
أجساما ، وبدأ هذا الشاب « الفلي » ، ورأس
خال عزيز محني بين يديه ، غرس خال عزيز
مرفقه في فخذ الشاب ، وأخذ تدريجيا يضغط
على فخذه ، وحين أخذ الشاب بعد فترة
يصرخ من شدة الألم أعفاه الخال من المهمة
واستبدله بآخر . واستمر الأمر بهذه الصورة
يتكرر مع عدد من شباب القبيلة ، يوما بعد
يوم ، إلى أن جلس عزيز بن خاله^(١) يفلي
رأس خاله ، وبدأ الاختبار ، وأسلم الخال
رأسه لعزيز ، وبدأ الخال يغرس مرفقه في
فخذ عزيز ، واندمج عزيز في مهمته
في الفلي ، غير أنه بالمرفق التي تنغرس في
فخذه ، ولم يتأوه ، أو ينبس ببنت شفه ،

(١) الخال لا يعرف أن عزيز ابنه ، والقصة طويلة ولكن ما يهمنا فيها هو
الجزء الخاص بالصبر والتحمل .

واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن رأى
الحال الدم يطفّر من الفخذ ، حينئذ أوقف
العمل ، فقد وجد ضالته ، فعزّيز نجح في
الاختبار ، بجدارة وامتيّاز ، ونال العلامة
الكبرى التى وضعها الحال . وبدأ الاستعداد
للرحلة الطويلة الخطيرة ، بأدواتها المختارة
الرقيق الصبور والناقة الجلدة .

قد تحتج ، يا بني ، بأن هذه القصة تبدو وكأنها
خرافية رمزيّة لا تؤدّي الغرض وأنّه لا بد من قصة
حقيقية ، لهذا سوف أروي لك قصة حدثت فعلا
قبل عهد الملك عبد العزيز - رحمه الله - يظهر فيها
مباشرة الصبر بشكل واضح :

كان هناك جيش لجب ، يزحف إلى
إحدى المناطق وقد جمع له وفيه من رجال
المدن والقرى والبادية عدد عظيم ، ولقد كان
من المعتاد في مثل هذه الحالة أن يتنادى
الناس في المنطقة المهاجمة للجهاد ، وأن
ينفروا لمجابهة الخطر وصدّ الاعتداء ، وأن

يخرج من كل مدينة أو قرية عدد من المقاتلين
يتناسب مع كبر المدينة وصغرها ومصالحها
المهددة، وأن يلتقوا للتنسيق في مكان
يتواعدون فيه، وأن يوحدوا قيادتهم
ويرسموا الخطط، ويتسقطوا الأخبار،
ويبعثوا «السيور» الجواسيس.

على كل حال لقد سار الجيش المدافع
لمقابلة الخصم وتصادم الجيشان وتطاحنا، في
معركة ضارية دخلت التاريخ لعنفها،
وأصبحت مشهورة، وكعادة الناس في
جزيرة العرب في ذلك الوقت أصبح يؤرخ
بها، فيقال سنة كذا، مشيرين إلى هذه
الحرب الضروس.

وانتهت المعركة، وانسحب الجيش القادم
المعتدي منتصرا. لوحدة القيادة فيه،
ولتشتت الرأي بين قواد الجيش المدافع
ولأسباب أخرى مختلفة. وبدأ رؤساء
الفرق التي تجمعت من المدن والقرى، بعد

«كسرتهم» يتفقدون موتاهم وجرحاهم الملقاة جثثهم وأجسامهم في الميدان ، ويتعرفون عليهم ، وكان هناك رجل جريح ، ملقى تحت أثلة في الميدان ، واسمع حديثه - يا بني - عن نفسه ، عما أصابه قال :

أصبت في المعركة ، ووقعت ، ورآني فارس من الأعداء ، وكأنه أخذ على عاتقه أن يقضي عليّ ، فلم يكفه ما أصبت به من ضعف نتيجة ثلاث إصابات مدمرة ، عانيت من النزف منها ، كانت الضربة الأولى من الخلف ، لقد أخذت ذبابة السيف طريقها من الكتف الأيمن إلى أسفل الظهر ، أي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي من خريطة الظهر ، وصنعت أخدوداً عميقاً . وتلقيت مرة أخرى ضربة على وجهي كان اتجاهها خلاف الأولى أي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من خريطة الوجه .

وتلقيت ضربة ثالثة بيدي فسطحتها ،



وأخذت أزحف تجاه الأتلة ، واقتطعت
غصن أثل في طرفه « هذب » أثل ، واحتميت
بالأتلة خلفي ، وكلما كرّ الفارس عليّ
هششت الحصان بالغصن ، فجفل وعصى
صاحبه . وكان الفارس ينتخي ، ويقول :
« يا ثارات كذا » مشيراً إلى معركة كنا فيها
المنتصرين عليهم .

ويبدو أنني نزفت كثيراً ، وبدأت قواي
تخور وأحسست بدنو الأجل ، وقلت في
نفسي استدرك الشهادة ، فرفعت أصبعي
بها ، مستسلماً ، أرددها فرآني عدوّي رافعا
أصبعي ، فأدرك ما أنا فيه ، وسمعته وهو
يبتعد يقول : « نجوت » ولم يعد بعد ذلك .
فبقيت ملقى تحت الأتلة ، حتى انتهت
المعركة ، وانتهى القتال ، وسكت
الضجيج ، وارتفع العجاج ، وانقشع
الغبار ، ولم يبق إلا حشرة مصاب أو أنين
جريح ، أو ميت صامت ، أو جسم ينزف ،

وجثث ملقاة يميناً ويساراً ، متقاربة أو متباعدة ، وبقايا مبعثرة ، وخيل معرقة أو مكلومة .

وعندما عاد إليّ وعيي فوجئت برجل يسألني من أنت ؟ ومن أي غزو أنت ؟ وعرفت أن وقت الفرج قد حلّ ، فقلت : «أنا من غزو المدينة الفلانية» . فقال : «هل معك ركوبة» قلت : «نعم ، جَمَلٌ ، صفته كذا وكذا» . فأحضر جملي ، فقلت له : «أوسرني» عليه ، وأربطني جيداً ، فهو يعرف طريقه ، فربطني ، وبدأ الجمل المسير نحو بلدي ، وعلى الرغم من أن المسافة بين هذا المكان وبلدي لاتزيد عن بعض يوم ، إلا أن الجمل قطعها في ثلاثة أيام ، لقد كان يسير على هواه ، فهو إن شاء مشى ، وإن شاء رعى ، وإن شاء برك يرتاح ويحترّ ، وهو سيد نفسه ، بل وسيدي ، يأخذ الاتجاه الذي يريده ، تجذبه خضرة روضة إلى اليمين ،



وتقوده أخرى ليعود إلى الخلف ، وما قطعناه
في ساعات ، فقدناه في مثلها ، وأنا لا حول
لي ولا قوة ، وأسلمت أمري إلى الله ، وبقيت
انتظر الفرج تبعا لمزاج الجمل وما يأتي منه ،
وكانت جروحي في اليوم الأول مؤلمة ، ولكن
ألمها في اليوم التالي كان أشد وأنكى ، وأصبح
في اليوم الثالث فوق طاقة البشر .

وقد وصل الألم قمته عندما دخل الجمل
المدينة ، وكان الوقت ليلا ، وكان الجمل
يحتك في كل «عائر» ومنحنى ، وكلما فعل
ذلك أغمى عليّ من شدة الألم وتفتح
الجروح ، ثم أصبح ليعود الجمل إلى تكرار
عمله هذا فأعود إلى الأغماء ، حتى وصل إلى
بيتي وبرك أمامه ، وبقيت فوق ظهره لا أطيق
حراكا ، إلى أن أذن المؤذن لصلاة الفجر ،
فأطلت زوجتي ورأت الجمل فقالت لوالدتي :
«يخلف الله علينا فلانا ، فلقد جاء الجمل
وحده» فقالت الأم : «إنزلي (واجعفي) عنه

الشّداد، أي انزليه، لا بد أن الجمل المسكين يعاني من ظهره من طول المدة التي بقي الشّداد مشدودا عليه». (لاحظ - يا بني - قوة الإيمان، والعقل الرزين عند هذه الأم، إنها تفكر في تلك اللحظة في شيء ترحم به هذا الحيوان، إن موت ابنها لم يذهلها ولم يصرفها عن النظرة الإنسانية إلى الحيوان المسكين. لهذا كافأها الله ببرد البشرى التي سرعان ما جاءتها بأن ابنها ما يزال حياً يرزق على ظهر البعير).

يقول الرجل: لقد فوجئت والدتي وزوجتي عندما وجدتا حيّا فأنزلتاني من على ظهر البعير، وجاءتا «بحجري» أي بقدر كبير، و«فوحتا» أي غلتا فيه ماء، ثم جاءتا «ببشاكير» فوط كبيرة، فوضعتاهما في الماء، الذي يغلي في القدر، وأخذتا تنظفان الجراح وكأنهما تغسلان لحماً قديداً، ثم حشتا الجراح بالمرّ والصبر والحلّيت المعد لذلك، وبقيت



في فراشي على الأرض ثلاثة أشهر ، قبل أن
أقدر على الخطو على قدمي .

إن الحث على الصبر والتحمل يقودنا إلى الحديث
عن الخط وتحسينه وما يستلزمه ذلك من التآني
والصبر وطول الممارسة ، إنك لكي يحسن خطك
لا بد أن تتحمل كتابة صفحة على الأقل في اليوم
الواحد ، ولكنك تمل فتكسل ولا تصبر ، ولو ترك
الأمر لك لقدمت واجب الأمس على أنه واجب
اليوم ، إن بينك وجيلك « وقفة نفس » وعداء
مستحكم مع الخط وتحسينه ، مع أن الخط
وتحسينه - يابني - صورة لارتقاء الذوق ، وبالخط
الحسن يعرف رقي كاتبه ، وقد يعرف به أيضاً عمق
ثقافته وبعدها . ولا تقنع نفسك - يابني - بقول من
يقول : « الخط ماقريء والباقي صنعة » ، أن هذه
الصنعة هو ما نريدك أن تتقنه ، إن النظر إلى جمال
الخط هو مثل النظر إلى الصورة الجميلة ، إن جمال
الخط يُدرك بالمران ، وفي إتقانه راحة نفسية لصاحبه
وقارئه ، وفي ذلك توفير للوقت كذلك ، وضمان



لتحاشي الخطأ والالتباس . لقد كان جيلنا - يا بني - يُعطى واجبا جانبيا يكون أحيانا بيتيا ، سعيًا وراء اتقان الخط وتحسينه . وكان أولياء الأمور ينتهزون العطلة الصيفية فرصة للاحاق أبنائهم بمدارس خاصة بتعليم الخط . ولعل عددا من جيل أبيك يذكر بالخير مدرسة الحلواني في باب الزيادة بقرب الحرم بمكة المكرمة . ولقد كان المسؤول عنها - رحمه الله - يكتب بعناية شديدة «مشكا» أي سطرًا في أعلى الصفحة ثم يعطيه للطالب لكي يقلده مكرراً هذا السطر إلى نهايتها ، وكان يصحح له ما يكتب عدة مرات .

لعلكم تتبهون - يا بني - إلى هذا الجانب الجمالي المهم فتستفيدون منه . فالقلب ينبض بالاعجاب عادة إذا رأى صاحبه خطأ جميلاً .

إن الخط الرديء قد يضيع أيضا على صاحبه منافع وحقوقا فقد يضيع عليه إن كان تلميذا درجات في الاختبار كان يمكن أن ينالها لو كان خطه جميلاً ، ولكنها تفلت منه بسبب خطه الرديء ،



إن جزءاً كبيراً من الاجابة قد يضيع على الطالب بسبب جهاد المدرس في سبيل أن يتمكن من قراءة ماكتبه ، ولا يلام المدرس على ذلك لأن كثرة الأوراق وطول الاجابة ، خاصة في الجامعات لا تعطيه فرصة قراءة الاجابة مرتين . ولكن الخط الجميل مريح ، يبهج المصحح ، ويجعله في مزاج يسمح بالكرم في إعطاء الدرجة ، ويكون أقرب للتسامح ، وهو بشر - يابني - يحتاج إلى جو مريح يساعده على الحكم الصائب . فتذكر هذا واحرص على جمال الخط تكسب من ورائه منفعة ، واحرص على البعد عن رداءته لكي لا يصيبك بسبب ذلك ضرر ، إن النفع قد تكسبه بحسن الخط ، وقد تعاني الضرر من سوئه .

وما دام الحديث - يابني - حديث الصبر والجلد والتحمل فإني سأضرب لك على ذلك المزيد من الأمثلة ، وهي أمثلة قريبة شائعة عند أهل جيلي ، وهي مناسبة لما نحن فيه من الحديث تماما .

لقد عرف الملك عبد العزيز - رحمه الله -

بقوة التحمل وشدة الصبر والجلد ، حتى إنه عندما ثار الرصاص في محزمه في إحدى الوقائع ، وظهر جزء من أمعائه ، تلقف هذا الجزء بيده ، وردّه إلى مكانه ، وتحمل وتكمل وأعلن - إمعانا في تضليل العدو - زواجه في تلك الليلة ، يقول شاهد عيان بعد أربعين سنة من هذا الحادث أنه مازال يتصور بياض الأمعاء ، والملك يعيدها إلى مكانها .

ولعلك رأيت في برنامج تليفزيوني قبل مايقرب من عشرين عاما أحد أطبائه - رحمه الله - يروي أن الملك كان ذات مرة يلعب بالرمح في معركة وهمية ، فإذا بهذا الرمح يخترق قدمه . وارتاع الطبيب وهو يفحص القدم ويحاول أن يخرج منها الرمح ، وفكر في اعطاء الملك مخدرا يساعده على عمله ، فاختصر الملك عبد العزيز - رحمه الله - له المهمة ، ومد يده وانتزع الرمح أمام دهشة الطبيب والحاضرين .



وفي حادثة ثالثة ، وبينما كان الطبيب يكشف عليه - رحمه الله - لاحظ أن هناك رصاصة منسيّة اتخذت لها مقراً تحت الجلد ، وأراد الطبيب أن يخدر الموضع لينزعها ، فطلب منه الملك عبدالعزيز أن يفتح الجلد بالموس ، فلما فعل الطبيب ، ضغط الملك على جانبي الرصاصة ، فقفزت وخرجت ، وكفى الله الطبيب شر العمل على معالجتها .

هذه - يا بني - صور تريك التحمل من أناس استعدوا للحياة بما فيها من صعوبات ، ووطدوا أنفسهم على تحملها ، واعتبروا التعود عليها عدتهم في مواجهة ما قد يأتي به الزمن من مشاق ، فالحياة الطويلة لا بد أن يتعرض الإنسان فيها إلى ما لا يحب ، وعدته لها هي حسن استعداده ، وملكاته التي تساعد على المرور بالمشكلات ، دون أن تترك هذه المشكلات في جسمه أو نفسه خدوشاً .

ان زمان الجليل الماضي وما قبله كان زمان كدح وكد ، والثمرة لا تأتي إلا بعد تعب ، وقد تتساوى



الثمرة مع هذا التعب أو تقصر عنه ، وقد تأتي
سريعة بعده أو متأخرة عنه .

أعرف شخصاً - يابني - كان عند والده
في إحدى مدن المملكة الكبرى قبل خمسين
عاما سيارة وكان الوالد يستعملها بين هذه
المدينة ومدينة أخرى مجاورة أو يستفيد منها
للخروج مع أصدقائه لبعض المنزهات .
وقد أحصى ابنه المرات التي أتيح له نفسه أن
يركب السيارة في خمس سنوات ، فوجدها
خمس مرات لا غير . أي أنه ركبها في كل سنة
مرة ، والحاجة وحدها هي التي جعلته يركبها
في هذه السنة مرة واحدة .

أما اليوم - يابني - فجيلكم يرى البقالة أو
الصيدلية رأي العين ، فإذا احتاج إلى أحدهما ركب
السيارة ، وأصر على أن يوقفها أمامها تماما ، لكي
لا يتعب حين يضطر إلى أن يسير خطوتين ، وإذا لم
يجد مكانا مناسباً أوقفها أمام سيارة أخرى أو
خلفها ، أو بجانبها مكوناً صفّاً ثانياً ، حتى لو أدى



ذلك إلى سد الطريق ، ومن اعترض عليه تذلل له
ورجاءه أن يصبر دقيقة حتى يقضي عمله ، أو أمسك
خناقه ظلماً وعدواناً . لقد كان من الواجب أن يكون
جيلكم - يا بني - أكثر نشاطاً من جيلنا وأقدر على
الصبر على المشقات لأنه أحسن من جيلنا أجساماً
وأكثر منا صحة وعافية ، للتغذية التي توافرت له ،
والعناية الصحية التي حظى بها .

أرجو ألا تكون - يا بني - قد مللت من تكرار
هذه القصص الداعية إلى الصبر ، إن عليك أن
تذكر دائماً البيت الآتي :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لعل التكرار بعد ذلك يأتي بالنتيجة التي أقصد
إليها .

نعود مرة أخرى - يا بني - إلى فنجان القهوة
الذي يكون أحياناً وسيلة للأخذ بالثأر ، ان القصة
التي سأسرد على مسامعك تفاصيلها الآن هي قصة



ترحك وتمتعك ، لأنها تتفق مع ماتعمله أنت
واخوانك وأنتم في مثل سن أبطال هذه القصة . وان
أمر أبطالها وهم صغار مثل أمر الكبار الذين ذكرت
من قبل أنهم يعينون فنجان قهوة يشربه المستعد
للأخذ بالثأر :

يدخل أحد الصغار في عدااء مع آخر ،
فيلاحظ زملاؤهما هذا ، ويكادون يطرون
فرحا وهم يترقبون اشتعال شرارة الحرب
بينهما ، وسرعان ما يصبح العدااء نارا
مضطربة . ولا يترك الزملاء النار للصدف
لكي تشعلها ، بل يأخذون على عاتقهم ألا
تنطفئ هذه النار ، فهم يغذونها بالخطب
والنفخ عليه لكي تزداد اشتعالا فيتلذذون
بالنظر إلى لهيبها واستعارها وماتلتهمه من
حطب ووقود .

إنهم يغذون هذه العداوة حتى يوصلوها
إلى مرحلة المواجهة بين المتعادين ، وهذا يعد
أول النجاح ، لأن الميدان قد اختير ، وأرض



المعركة قد عُيِّنَتْ ، والسلاح قد تَحَدَّدَ . وقد اقتربت النار من الحطب بوجود الاثنين متقابلين ، ومع كل منهما فريقه الذي يَحْمَسُه لكي لا تحمد الشرارة ، ثم يتقدم واحد من النظارة ، فيأخذ حفنة من تراب ، ويبسط بها يده أمام الخصمين ، ثم يأخذ عودا ويبله ، ويغرسه في هذا التراب ، ويخاطب الاثنين ، يقول : « من هذا في وجهه ؟ » أو « من هذا في وجه أمه ؟ » زيادة في الاستفزاز ، وأحيانا يستعمل كلمات نابية لا يليق نطقها هنا ، والهدف من هذه العملية هو استنفار كل قوى الشر عند الخصمين ، وجعلهما في موقف لا يسمح لهما بالتراجع أو الاستكانة ، والا لبسهما العار ، ثم لا يلبث أحد الخصمين أن يتقدم ويضرب اليد الممدودة بترابها في اتجاه وجه الخصم ، ويقول : « في وجه فلان » أو « في وجه أم فلان ؟ » وقبل أن يتم الجملة يكون خصمه قد انقضض عليه ، يحدوه

الغضب ، ويدفعه طول الترقب .

وتبدأ المعركة ، وهي مصارعة الرابع الأول فيها هم المتفرجون . ذلك أن الرابع من الخصمين يكون ربحه في الحقيقة محدوداً ، هذا بالاضافة إلى ما قد يكون الرابع قد أصيب به من أذى وما ينتظره من أخذ بالثأر في جولة لاحقة ، هذا الثأر الذي يحرص المشاهدون على غرس نواته قبل أن يفترق الجمعان ، وينصرف الخصمان . إن هذه المعركة الماثلة فرصة لا تعوض عند المشاهدين المحرضين ، وحبل يجب أن يوصل ولا ينقطع ، فهم قد تعبوا من قبل في اذكاء نار الخصومة حتى وصلوا بها إلى هذه المرحلة ، فإن أفلتت فرص التحريض المبكر على الثأر الآن فقد لا ينجحون في إثارة العداوة مرة أخرى .

وينصرف القوم ، ولا حديث لهم إلا ماجرى في ميدان المعركة وتفاصيله ، وقد



يُزاد في هذا الحديث وقد يُنقص ، وقد يكون
هذا وذاك عفواً أو قصداً . وتتناقل الألسن
هذا الحديث ، ويملاً به المتحدثون وقت
الفراغ الطويل ، ويصل الحديث أو أطراف
منه إلى « الثورين » المتناطحين فيعجبهما شيء
منه أو يغضبهما شيء آخر . أما المنتصر فقد
عوضه عن جراحه وآلامه ما يسمعه من ثناء ،
وأما المنهزم فيشحذه ما يسمع للجولة
القادمة ، وأما المتفعون من اللعب على
هذين العنصرين فإنهم ينتظرون بشوق
صحيح معركة أخرى ثأرية قادمة .

ولاشك - يا بني - أن صورة المعركة بين
الخصمين وتفاصيلها قد أعجبتك ، ولا بد أنك
شعرت بالمتعة وأنت تتصور الأكف تصافح
الخدود ، واللكمات تكال للبطون والجوانب
والظهور والرأس يميل من قوة الضربة ، والجذع
ينحني من شدة « الرفسة » الرفسة ، ولا بد أنه قد
أعجبك « تطاوح » هذا الذي كاد يقع ، وترنح ذاك

الذي كاد يفقد توازنه . ولا بد أنه قد أعجبك أكثر من أي شيء آخر تلك الركلة التي أطلقها أحدهما برجله على «شاكلة» ، الآخر ، حتى استقرت قدمه على موقع الكلية ، «فانعوى» وانحنى كأنه «مكروب» رش بمحلول مميت . وتكؤم كأنها ينوي أن يدخل في قمقم ، ولقد اختلط شعورك مثل القوم المتفرجين ، فجزء منه اعجاب ، وجزء رحمة ، وجزء خوف من أن يكون المضروب قد مات من شدة الضربة على هذا الموقع الحساس .

ان ما حدث وما يائله - يابني - باب واسع لعب في البادية دوراً خطيراً ، فرّق اخوة أحيانا ، وشئت قبائل أخرى . يبدأ الأمر بلعب أطفال ، يغريهم على اللعب شعورهم بقوة الشباب ، والرغبة في التدريب على العراك ، استعداداً للمعارك الحقيقية عندما يكبرون ، وتفرض عليهم حياتهم التي هيأهم الله لها أن يخوضوها . ويغريهم ضوء القمر الفضي الذي يجعل الأرض ميدانا له ألسنة اغراء لا تحصى تناديهم أن هلموا ودوسوا صفحتي بأقدامكم الفتية ،

ولا تنسوا أن تبروا أحدكم من أحدكم بركة تستقر في جنبه تعدمه الحياة، التي يعيش عنفوانها، وبضربة «تجعه» ، كما كان «يجف» والده الشداد عن ظهر البعير، فيتكوم على الأرض وتتعبج أعضاؤه فيتحول إلى كرة، رأسه فيها عند قدميه، فيسود السكون بين اللاعبين، ويمسكون أنفاسهم، وكأن بين أنفاسهم ونفسه اتفاقا واتصالا، ويطول الترقب وهو قصير، وتبدأ الحقيقة تصرخ بأنه قد مات، وتوقظ الحقيقة المائلة «السادر» وتنبه المغالط، وترتخي الأذرة على الجوانب، وتزوغ العيون، و«تتهدل» الأفواه، ويتلفت القوم إلى صاحب الركلة، صاحب الرجل «المرزبة»، فيجدونه قد تجاوز مرحلة المفاجأة، ودخل مرحلة الاستعداد لما هو آت.

ومن عادة القوم أنه إذا قتل شخص آخر دون قصد، أن يدفع الدية التي تحكم بها القبيلة عليه، يخضع هذا لعدة اعتبارات. لنوع الحادثة، وظرفها، والصلة السابقة بين القاتل والمقتول،

وأداة القتل ، وشهود العيان ، والقراة والبعد بين الاثنين في الصلة العائلية ، وحالة القاتل والمقتول غنى وفقرا ، علواً في المجتمع ودنواً . فإذا تقررت الدية ودفعت ، انتهى الأمر أو كاد ، وإذا لم تدفع فعلى القاتل أن يبرح مقر القبيلة . ويذهب إلى أن يجمع الدية ويعود . ومع كل هذا الذي كان يحدث وكثرته لم يكن الشباب - يا بني - يتركون اللعب ، ولم تكن الحوادث تقل ، وهذه سنة الله في خلقه . فكم من أم فجعت بابن قتيل ، وكم من أم وأخت وحيبة حرمت من ابن تغرب لبحث عن دية ، وعاد أو لم يعد .

وكان انتقال أحد أفراد القبيلة من مكان قبيلته بهذه الصورة بحثاً عن الدية مظهراً من المظاهر المتكررة ، وقد ساهم في تداخل القبائل بعضها مع بعض ، فهذا الذي ترك القبيلة وأخذ يتنقل قد يدخل في قبيلة أخرى ويتزوج منها ، ويكثر أبنائه فيحصل بينه وبين هذه القبيلة حلف ، أو مجاورة . وقد « يثقل » الشخص ، وتطيب له الإقامة في مجتمعه



الجديد فلا يعود إلى قبيلته ، وأحيانا عندما «يُلْفِي»
على القبيلة وتستضيفه ، لا يجد ما يضره في ذكر
اسمه وقبيلته وسبب غربته عنها ورحلته منها .
وأحيانا - خاصة إذا كان هناك دم وثأر - يُبْقَى
الضيف اسمه مجهولا ، ويقتضي الأدب ، و «سَلَم»
العرب وعاداتهم المضيف ألا يسأل ، قد يلْمَح
ليجس النبض ، فإذا لم يبينّ الضيف اسمه عرف
المضيف أن ضيفه لا يريد أن يكشف اسمه ، وجزء
من إكرام الضيف وأصول الضيافة أن يسايره في
مشيئته ، «لأن إكرام النفس هواها» أي تركها على
ما تهوى .

واسمع هذه القصة فهي تريك تفاصيل هجرة
من هذه المهجرات ، وما يحدث فيها أحيانا من
المفاجآت والمخاطر :

اقتضت حادثة وقعت في أثناء لعب
الأطفال من غير قصد ، أن يترك شاب
قبيلته ، ويذهب لجمع دية القتل الذي
تسبب في موته ، إذ لم يكن عنده ما يعطيه

وكان ينوي أن يعود لينخرط مرة أخرى في قبيلته . لقد بدأت رحلته من شرق الجزيرة ، حيث كانت قبيلته تحظى بشأن وصيت . وحين وصل إلى بلدة زراعية في وسط نجد ، استهوته الزراعة ، وكان شاباً قويا ليس معه غير حصانه وسيفه ، «فتقبل» إحدى المزارع باتفاق سنوي أو موسمي ، على أن يُعطي صاحبها جزءاً من الثمرة . وجرت العادة أن يجد هو وأمثاله من المزارعين الطارئين من يقرضهم مبلغاً يسددونه عند حصاد الثمرة ، أو جنيها بجزء من المحصول أو الإنتاج .

وفي أحد الأيام الأول لعمله في هذه المزرعة جاءه خادم حاكم البلدة التي تتبعها هذه المزرعة وأبلغه رسالة من الأمير مقتضاها أن يعطيه علفاً لخيله ، فاعتذر بأنه لم يتوافر له إنتاج بعد ، وبأنه قد استجدى من العلف «لمعاويد» السّواني وجمالها التي تمتح الماء من جيرانه . وأشار إلى «قت» ملقى بجانب

«المنحاة» تدليلاً على دعواه . فما كان من الخادم ، استهتاراً واستخفافاً واعتماداً على سلطة سيده الغشوم إلا أن أخذ يجمع العلف «البرسيم» في «منثر»^(١) كان معه ، تمهيداً لوضعه وتحميله على ظهر الحمار الذي جاء راكباً عليه ، ولم تُجَدِ محاولات الرجل في ثنيه عن أخذه ، فاستشاط غضباً ، وكان سيفه معلقاً على إحدى النخلات القريبة ، وحصانه مربوطاً بها قريباً منه ، فامتشق الحسام ، وأطاح رأس الخادم ، ووضعه في المنثر ، وحمله على ظهر الحمار ، وأرسله في طريقه عائداً ، وركب حصانه وترك المزرعة والمنطقة واتجه غرباً .

كان الوقت شتاء ، وقاده سفره إلى أرض مربعة زاهية بالنبت والنوار ، قد انتشرت على أديمها بيوت الشعر مثل انتشار الوشم في يد

(١) المنثر نسيج من الصوف الخشن يحمل به علف الدواب خاصة منه ما يتناثر ولا يمكن حزمه بحبل ، ويوضع في المنثر حفظاً له .

الحسناء ، فأخذ طريقه إلى بيت شعر منعزل
يوضع عادة لتلقي الضيوف الطارئين من
أمثاله . فنزل وربط حصانه وجلس ولم يكن
في الحي في ذلك الوقت إلا عجوز وطفلة ،
فأرسلت العجوز الطفلة لترى من الطارق ،
فسألتها الطفلة عما يكون ، فأجاب إجابة لم
يصرح فيها باسمه لكي لا يعرفه أحد واكتفى
بالقول أنه طَوِيرَق يطلب القرى ، وإن
اسمه طويرش (تصغير طارش أي مسافر) ،
فابتسمت العجوز عندما نقلت الطفلة إليها
ما قال ، وأخذت تحدث نفسها « هو طويرش
وليس بطويرش » أي هو مسافر ولكن اسمه
غير مسافر » .

وتوافد رجال الحي آخر النهار ، بعد أن
نال الرجل ما يستحقه من إكرام ، بعد أن
أخذ من الراحة ما عوضه عن التعب الذي
عاناه في سفره . وفي اليوم التالي استأنف
الرحلة غربا ، ولكن البرد اشتد ، ونزل المطر



بغزارة مما اضطره للعودة للحي الذي غادره ،
فلما أقبل على القوم مرة أخرى تساءلوا من
القادم ، فرد بأنه طويرش ، ضيفهم في الليلة
البارحة ، وقد أعجبه الاسم الجديد ،
وتمسك به ، وبقي عندهم حتى انجلت
الغيوم ، وتهيأت له أسباب الرحلة ، فغير
وجهته وسافر إلى القصيم ، واستقر فيه ،
والتحم بمجتمعه ، وقد اجتذبت الزراعة
وحدها في بداية الأمر فأقبل عليها ، ثم أخذ
يراوح بينها وبين غيرها من الأعمال فيحطب
أحيانا ويزرع أحيانا أخرى ، ولم يلبث أن
أصبح هو وأولاده لبنة في ذلك المجتمع ،
وأصبح بعض أولاده رؤساء في بلدتهم ،
وقليل من أولادهم اليوم يعرفون تفاصيل
رحلة جدهم ، واسمه الأصلي الذي لم يعد
يذكر إلا في الصكوك القديمة . ولم يفرط هذا
الجد باسم قبيلته منذ البداية ، وحرص على
تعريف الناس بها ، لأنه بدون ذلك لم يكن

ليستطيع الزواج ممن يطمع في مصاهرتهم .
وقد أمن في هذه المنطقة من ملاحقة من
يطلب الثأر منه ، ووجد من سكان المنطقة
من قبيلته سندا وعضدا يضيفي عليه الحماية
الكافية ، وفي هذا المجتمع المتلاطم
بالحروب والغارات والسلب والنهب .

لقد أبعدنا - يا بني - كما رأيت عن فنجان
القهوة ، الصغير في حجمه ، الكبير في معناه ، وعما
تطورت إليه حاله ، وعما كان له في الحياة الاجتماعية
من قبل من مكانة ، وعما جلبه من خير وشر ، وعما
بقي له بعد أن مرّ اصبع المدنية عليه كما مرّ على كثير
من الأمور التي كانت سائدة في حياة البادية أو
الحاضرة ، إن الزمن قد زاد في أهمية بعض هذه
الأمر ، وقلل من أهمية بعضها . إن مرور الزمن
يتبع في العادة نسقا متناميا خطه الله لتنظيم التطور
والنمو ، ونحن قد نلمح مبكراً معالم هذا النسق ،
وقد يأتي التطور تدريجياً فلا نلمسه إلا إذا تبلور ،
على أن قواعد الحضارة والعمران تبقى في كل



الأحوال تحكم سيرة بطريقتة متقنة وخطوات مرتبة .

إن هناك كثيراً مما يمكن أن يقال عن القهوة
ويضاف إلى كل ما سبق أن قلناه عنها . لقد وعدتك
ووعد الحرّ دين ، لهذا فإني سوف أروي لك المزيد
من القصص والاشعار عنها . ولكن ذلك سيكون
في حدود ضيقة ومختصرة ، إن ما في الكتب من أمثال
هذه القصص لا يحصى ، ولا يحتمل المجال أن
نتوسع في نقلها . إنني سأكتفي بما يحضرنى من هذه
القصص مراعاة لقلة صبرك ، وسرعة نفاد ما بقي
لك منه ، ولقد اخترت من هذه القصص ما انطوى
وما بقي في ذهني منه ، على ميزة الطرافة والمتعة .

ولأبدأ بقصة سبق أن قصصتها عليك في موضع
سابق ، ففي اعادتها تذكير وإفادة :

حضرت مجلساً - يابني - لرجل من
المسنين ، وكان في مجلسه هذا أحد رجال
البادية ، المسنين أيضاً ، وكان الضيف يقص
قصصاً حدثت في زمان «الجهل» ، وهو

الزمن الذي خف فيه وزن الدين ، فلم يعد
الناس يعطونه حقه من الرعاية ، وذهب
الأمن فلم يعد الناس يهتمون بنظام ، ولم تبق
سلطة تمنعهم أو تمنع عنهم ، حتى اقترب
الأمر من حكم الغاب ، فكانت الغارات ،
وَرَدُّهَا ، على أشد ما تكون . والتحمت قبيلة
هذا الرجل مع قبيلة أخرى ، وحدثت معركة
انتهت كالمعتاد بقتلى وجرحى ومنتصرين
ومنهزمين . وبدأ المنتصرون يجمعون
الغنائم ، ولم تكن كثيرة ، وكان منها ما تخبثوه
جيوب الجرحى أو المقتولين . وقادت هذا
المتكلم قدماه إلى قتيل في ريعان الشباب ،
جميل الطلعة ، متكامل البنيان ، لم يراع
السيف بوجهه الكالح هذا الوجه النضير ،
فعاث فيه وأورده التراب يتعفر فيه . وأدخل
هذا المتكلم يده في جيب القتيل ، فوجد فيها
عددا من الصّرر ، وفي كل صرة شيء من
مستلزمات الحياة . ولقد وجد صرة بُنَّ ،



وصرة هيل ، وصرة «شاور» ، قال
المتحدث ، فجلست بجانبه أندبه كما تندب
الثكلي ابنها ، ونسيت أمام هذا الوجه
«الصبوح» ، وأمام توافر مكملات الرجولة
في «مخباته» ، ومظاهر الشباب في جسمه أنه
من أعدائي ، ومازالت عيني تدمع عندما
أتذكره ، ليتني كنت مكانه ، ألا شلت يمين
قاتله .

أرأيت - يا بني - كيف تزرع القيم وتغرق وتبعد
في التربة ، بصرف النظر عن قيمتها في نظرنا اليوم ،
أو انسجامها مع أنماط الحياة التي نرتضيها الآن .
ولقد توغلت القهوة على سبيل المثال في حياة
الناس ، وتشعبت جذورها ، وحملت العدو اللدود
في الحياة على أن يصبح صديقا بعد الممات .

وبعض القصص التي تروى في هذا الصدد -
يا بني - كما سبق أن أخبرتك ، يصعب على العقل
الآن استيعابها وتصديقها ، ومن هذه القصص :

يروى أن إحدى القبائل نصبت خيامها
 كالمعتاد في أحد المواقع المختارة، وكالعادة
 نصبت خيمة الشيخ على مرتفع، بعيدة
 بعض الشيء عن بقية خيام باقي الحي .
 جلس الشيخ في إحدى الأمسيات خارج
 الخيمة مع زوجته، التي أخذت تعمل
 القهوة، بينما هو متكئ بجانبها، وكان الجو
 بديعا، والسماء صافية، والنجوم تتلألأ
 والنسيم عريلا، والهدوء مخيما الا من صهيل
 حصان قريب يقطعه، أو عواء ذئب تحمله
 الريح من بعيد، أو نباح كلب يُنبه به إلى
 مرور عابر، أو ثغاء عنز جاء وقت حلبها أو
 نطحها أخرى، أو «دق نجر» «صوت
 هاون»، يتفنن صاحبه فيه ويهدي به ضالا،
 أو يجلب ضيفا، أو يثير ذكرى، لقد كانت
 كل هذه الأمور بمثابة لغات مختلفة وألسنة
 متباينة، وكان سكون الليل هو الضحية .

وبدأ شبح ضيف بعيد يقترب، وخلافا لما



جرت به العادة من ذهاب الضيف أولا
«للشراع» المعد للضيوف، فإن هذا القادم
توجه إلى مقر الشيخ مباشرة، فأخرج الشيخ
خنجره من غمده، ووضع على ركبته،
وقال لزوجته: «سنرى فإن كان هذا القادم
ذا شر فهذا دواؤه» وأشار إلى الخنجر المعد،
«وإن كانت أعمته (خرمة) القهوة، فسوف
يفطن إلى سوء تصرفه بعد أن يشرب عددا
من فناجينها، فصبي له منها ما يروي ظمأه
لها».

وصل الضيف، واتجه إلى حيث هداه
أنفه، اتجه إلى رائحة القهوة، وتحركت اليد
الكريمة تصب الفنجان تلو الفنجان، واليد
العطشى تتناول وتشرب وتروي جوفاً خالياً
إلى أن بدأ دبيب القهوة في العروق، وبدأ
التشبع، ومثلما يستيقظ النائم، أو يطفو
الغاطس، أو يلج الداخل، بدأ الضيف
ينظر حوله، بتساؤلٍ صامت، ثم بتساؤلٍ

ناطق ، قال : « المезде » وهو ينقل بصره بين الزوج والزوجة ، « أين أنا ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ » ، فقال المضيف : « أنت ضيف فلان ، وقادتك قدماك إلينا لكي نزيل خرمة القهوة التي غطت عينيك ، وجعلت أنفك دليلك ، وقد قادتك قدماك خير قيادة . فأهلا وسهلا بك » .

هل يمكن أن تتصور بعد أن سردت على مسامعك هذه القصة - يا بني - أن « خرمة » القهوة يمكن أن توصل المرء إلى هذه الدرجة من الغيبوبة . على كل حال يمكن أن يكون في هذه القصة بعض المغالاة ، ولكنني أعجبت بها وأنا صغير ، ورويتها مراراً ، وها أنا أرويها لك الآن . لقد أصبحت جزءاً من التراث ، فإن اقتنعت بها فاروها ، أما أنا فقد أديت واجبي فوضعتها بين يديك أنت وأبناء جيلك ، فافعلوا بها ما تشاؤون .

والقهوة - يا بني - كما هو معروف لا يدخل فيها في نجد وباديتها السكر ، وتقدم أحيانا مع التمر ،



الذي يمهد لطعمها المر ، هذا الطعم الذي لم يخالطه سوى الهيل ، أو «المسمار» «القرنفل» ، الذي يحل محل الهيل عند من يفضله عليه من الناس .

يروى أن أحد الناس أخذ «حتل» القهوة بعد أن شرب القوم الدلة ، وكانت «مبهرة» بالهيل ، ودفنه في التراب ، وأخذ «حتل» دلة أخرى ، مبهرة بالقرنفل ، ودفنه أيضا في التراب . وبعد ثلاثة أيام حفر فوجد أن الحتل الذي فيه القرنفل باق كما هو لم يتغير فيه شيء ، لا لونه ولا رائحته ، أما حتل القهوة ذات الهيل فقد وجد فيه دوداً .

والقهوة - يابني - تحلو لبعض الناس على الريق ، يفتحون بها نهارهم ، ويخفف مرارتها عندهم ما يؤخذ معها من تمر ، وقد جعلتها مرارتها أحيانا تسمى القهوة المرة تميزا لها عن الشاهي الحلو . لقد اعتاد الناس الآن مرارتها وألفوها وتطلعوا إليها ورغبوا فيها ، ولم تعد تزعجهم هذه المرارة كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة .

أما القهوة السائدة في بعض المجتمعات العربية فهي المسماة بالقهوة التركية ، ويختلف صنع هذه عن صنع القهوة العربية ، ولها خرمة خاصة بها . وهي تقدم أحيانا مرة مرارة كاملة ، أو يكون بها أحيانا شيء من الحلاوة القليلة ، والتعبير السائد الذي يطلق على هذه القهوة هو قهوة «على الريحة» ، وهناك نوع ثالث هو مايكون السكر فيه كثيراً ، ويعبر عنه بقولهم : «سكر زيادة» .

وفي الغالب يُسأل من سيشرب القهوة عن رغبته ، ومن ثم يؤتى له بمطلوبه . وهذه القهوة أقوى تأثيراً في التنبيه من القهوة العربية ، ولعل السبب يرجع إلى طريقة تحميصها وطحنها ، مما يجعل خواصها تذوب في الماء ، رغم قصر وقت طبخها إذا ما قورنت بالوقت الذي تمضيه الدلة العربية فوق النار .

وطريقة عمل هذه القهوة المعتادة هي كطريقة القهوة العربية تقريبا في أنها تبدأ بالتحميص ثم تسحق جيدا ، ويكون لها وعاء يسمى «الكنكة»



يسع فنجانا واحدا مملوءاً أو فنجانين لا تزيد ، ولهذه القهوة وجه من المفروض أن يغطي سطح الفنجان وقد تولّد هذا الوجه من زبد الماء الحار عندما توضع فيه القهوة ، ولا مفر من تقسيم وجه القهوة في «الكنكة الواحدة» على الفنجانين ، إذ يصعب أن يختص كل منها بوجه كامل ، إن عمل هذه القهوة يسير لا عسر فيه :

ان الماء يوضع أولاً في «الكنكة» ، فإن كان المطلوب أن تكون حلوة ، يوضع المقدار المطلوب من السكر مع الماء رأساً ويحلّ ويحرك فيه ، وقبل أن يغلي الماء يوضع المقدار المطلوب من البن ، فإذا بدأ الزبد يظهر على سطح الكنكة ، ويرتفع من الغليان ، يبعد الوعاء عن النار ، وبعد ثوان يسكب بطريقة بارعة في الفنجان ، فيمتلئ الفنجان وفوقه الوجه المشرف لمن عمل القهوة . وأصحاب «الكار» ، الفنانون في شرب القهوة يميزون بين صنع وصنع ، حتى لو كان الفرق طفيفاً .

هذا - يابني - ما يجري في المناسبات المعتادة التي

يطلب فيها من الضيف إبداء الرغبة فيما يفضله من أنواع القهوة ، ولكن هناك مناسبات لا يسأل الضيف فيها عن القهوة ، ولا يؤخذ رأيها فيها ، وهي تقدم في هذه المناسبات مرة ويتناول هذه القهوة المرة كل الزائرين وذلك في أيام العزاء مثلا ، ولو قدم أحد القهوة حلوة في مثل هذه المناسبة لكان مثار استغراب وربما عتاب . أما في المناسبات المفرحة فيكون طعم القهوة تفاؤلا حلوا .

وفي بعض البلدان العربية « يقرؤون الفنجان » أي فنجان القهوة ، وهذا عمل لا صلة له بالطعم ولا الكيف والخرمة ، وإنما بمستقبل الشارب الذي لا يعلمه إلا الله - سبحانه وتعالى - أو بماضيه ولكن بعض المنحرفين من الأذكىاء يكسب من هذا العمل ، وقد يكون الدافع إليه إيمان المقروء فنجان بهذا الأمر ، وهذا بالطبع يدل على غباء متناه ، وقد يكون الدافع التسلية والاختبار . وتجري قراءة الفنجان بأن يقلب بعد أن يُنتهى من شربه ، ولا يبقى في قاعه إلا « الحثل » ، فيتسرب جزء من



الحثل سائلا ، فيعمل في أثناء تسربه أخاديد ،
ومنعرجات ، توحى للقارئ ببعض الأفكار ،
فالمسرب الطويل يوحى لقارئ الكف أن يقول إن
أمام صاحب الفنجان «سكة سفر» طويلة ،
والمسرب المعوج الذي أخذ منحنيات مختلفة يوحى
له بأن يقول إن عند صاحب الفنجان مشاكل ،
وكثرة بقع القهوة «المنعزل» بعضها عن بعض توحى
بالثروة التي تهبط على المقروء له .

يستنطق قارئ الفنجان الخطوط والنقط ،
وتجمعات القهوة كما يحلو له ، وحسب حال شارب
القهوة ، والقارئ في العادة ذكي لا يقول لمن يقرأ له
فنجانه مايمكن أن يؤخذ عليه مستقبلا ، أو ماقد
يضعه في موضع ريبة ، وهو لن يوحى له بوقوع
ماقد يتنافى كلية مع مايعرفه بالتأكيد . ولا يجعله
يأس فيتصرف مثل تصرف الذي استنطق الازلام ،
فأوحت له بما لم يكن يتفق مع خطته في أن يسير
ليأخذ بثأر أبيه ، فقد نهته الازلام باتجاهها عن
المسير ، فما كان منه إلا أن كسرها ، وقال : «والله لو

كان أبوك المقتول لما نهيتني . لقد تبينت الحقيقة عند من استنطق الازلام في لحظة الاحساس الصادق ، تبينت وظهر أنه لم يكن لديه إيمان بما تخيله عندها .

إن ذكاء قارئ الفئحان يأخذ مناحي مختلفة ، وليس ما ذكرنا هو كل ما يفعلونه ، فهم يعمدون أيضا إلى العموميات فيستفيدون منها ، فليس هناك شخص في الوجود ليس عنده مشاكل ، وليس هناك من ليس له أعداء ، وليس هناك من لا يؤمنه أن يسمع بأن ثروة سوف تأتيه ، حتى لو كان «مليارديرا» . وإذا كانت سنه تسمح ، فلا بد أن تكون له صلات عاطفية ، ولا بد أن الاتصال بينه وبين من يحب قائم ، أو منقطع ، وحينئذ ترى القارئ يقول : «إن الجانب العاطفي عندك حافل وهو يشغل فكرك أغلب الوقت» ، وهذا كلام معتاد لا يعني شيئا ولا يلزم القارئ بشيء . إن ما يقوله القارئ في العادة لا يعدو أن يكون مجرد كلمات ترص ، وأفكار باهتة تطرح ، ومعان يفهمها كل سامع بصورة تختلف عما يفهمها بها سامع آخر .



والتنبؤ قديم في حياة البشر ، وهو من لوازم ضعف الإنسان . وعصر الجاهلية كان مليئا بهذا ، والمتنبئون كثيرون يُقصدون وتُشد الرحال إليهم ، واجاباتهم مسجوعة إمعانا في التأثير . ولكنهم يدركون أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا في معاشهم على مجرد فرص تسنح عندما يأتي محتاج يسألهم عما هو مغيب عنه ، لقلّة هذه الفرص بسبب قلّة من يؤمن بهذا التنبؤ . لذلك نراهم انطلاقا من ذكائهم وتجربتهم وخبرتهم ينصبون أنفسهم حكاما بين المتخاصمين . وقد تصدق نبوءتهم ، لا لأنهم يعلمون بالمغيب ولكن لأن لهم فراسة مكتتهم من ربط الأسباب بالمسببات ، فخمّنوا النتيجة قياسا على السبب . لذلك يصبح نجاحهم في بعض الحالات ساترا لإخفاقهم في حالات أخرى .

والتأثير الذي يلجأ إليه قارئ الفنجان يعمل عمل السحر في من أمامه ، وهو يستمد أغلب عناصره ممن يقرأ له الفنجان أمامه ، سواء عن طريق لباسه ، أو تصرفه ، أو بعض عباراته في إجاباته .

ويبدو أن قارئ الفنجان ، مثل سلفه عرّاف الجاهلية ، اكتشف أثر السجع على المستمع ، فلجأ إليه ، يستقي من نهره ، ويغرف من بحره . هناك مقدمات يبدأ بها قراء الفنجان كلهم ، ثم يستقل كل منهم بطريقته الخاصة ، ولكن السجع يبقى قاسماً مشتركاً لا يهملونه .

وعندما تفكر - يا بني - في أسباب ربط « حثل » القهوة بقراءة البخت ، لا تجد سبباً واضحاً إلا أن تفسره بأن فنجان قهوة واحد ، يشرب في دقائق ، لا يعطي الوقت الكافي للتمتع بالجلسة ، فزيادة الوقت بقراءة الفنجان يعطي الجلسة طويلاً يتمتع فيه الأصدقاء في جلستهم بعضهم مع بعض .

وفي مكة في زمن مضى - يا بني - لم تكن القهوة مفضلة على الشاي ، بل كان محبو الشاي أكثر من محبي القهوة ، بل لا تكاد في « القهاوي » المفتوحة للعامة تسمع طلب القهوة ، والذي لم يكن يفارق الأفواه هو طلب الشاي ، لذلك لا بد أن تعجب من تسميتها القهوة ، مع أن القهوة ليست أكثر ما يطلب



فيها . وكان حقها أن تسمى « المشهاة » أو « الشاهية » ، ويبدو لي أن السبب قد يكمن في أن المقاهي بدأت بتقديم القهوة ، ثم طغى عليها الشاهي ، لكثرة زبائنه من الحجاج الوافدين من الشرق ، الذين كانوا يجلبونه معهم بكثرة ، ويكثرون أيضا من طلبه ، هذا بالإضافة إلى قصر الوقت الذي يُقضى عادة في شرب القهوة التركية ، وقلة التسلية الحاصلة من شربها ، بخلاف الشاي .

لم يبق - يا بني - في ذهني الآن من أحاديث عن القهوة إلا ما وعدتك به من أشعار وقصص ، وهذه سوف أؤجلها إلى أن أعطي الشاي بعض حقه ، حتى لا يحتج علينا محبوه وشاربوه الأفاضل ، وأسميهم أفاضل لأنك واحد منهم ، تفاؤلا بهذه الصفة .

يختلف الشاي عن القهوة في أن وقت شربه يمكن أن يطول مما يتيح للناس فرصة التسلية بالأحاديث ، والسمر بالحكايات في أثناء شربه ، ومن خلال التمتع به وبرائحته . ويحلو شرب

الشاي ، ويطيب مزاج الشاربين كلما طالت فترة الغياب عنه ، أو عندما يحل وقت شربه المعتاد ، ولا بد أنك - يا بني - قد لاحظت أنني أحيانا أقول : «شاهي» ، وأحيانا أقول : «شاي» لأن الكتاب يكتبونها «شايا» ، ولكن أكثر الناس ينطقونها «شاهي» . وما دام الأمر كذلك فلنقل هذه مرة وتلك أخرى ، حتى لا نغضب أحداً .

وموطن الشاهي الأصلي هو بلدان جنوب شرقي آسيا كما هو معروف ولعله جاء إلى الجزيرة مع أبناء تلك البلدان الذين نزحوا إليها ، أو جاءوا للحج ، ولا يستبعد أيضا أن يكون سكان الجزيرة ، وهم لم يكونوا ينقطعون عن الذهاب في تجارتهم إلى الهند ، قد جلبوه معهم . ولعل نقله وانتشاره جاء بسبب كونه بضاعة قابلة للربح الكبير ، ولأن الأجيال الماضية لم تكن تعدّه من الكماليات . وقد مضى زمن طويل على دخوله إلى الجزيرة . وكان الفلاح من الجيل السابق يحرص على شربه أكثر من حرصه على أكل قطعة من اللحم يقيم بها أوده .



ويقال إن الشاهي لم يكن يشرب في بداية الأمر في بلاده الصين ، ولم يكن فيها إلا شجرة من الأشجار الجميلة . وذات يوم أرسلت حبيبة إلى حبيبها غصنا منه ، رمزا عاطفيا يذكره بها ، فركزه في إناء به ماء ، ولما رأى أنه بدأ يذبل أدخله كاملا في الماء ، فَتَقَعَ ، فشرب هذا الماء ، فاكتشف أنه منعش ، وأن له ريحا ذكيا ، فكرر ما فعل ، فانتشر بسبب ذلك . والله أعلم بصحة هذه القصة الطريفة .

ويقال إن بعض الناس كان يستعمل السّكر لتحلية الشاي ويضعهما في الماء معا ، ويغليهما . ويقال إن بعضهم كان يحلّيه بالدبس (عسل التمر) ، والطريقة الأولى هي التي استمرت حتى الآن .

والطريقة المعتادة في صنع الشاي هي وضعه في الماء بعد أن يغلي ، وتقريبه قليلا من النار حتى «ينحدر» ، ثم يوضع السكر بعد ذلك بالمقدار الذي يراه صانعه . أما الآن ، وبعد الوعي الصحي لأمراض السّكر ، والحرص على عدم زيادة الوزن ،

فقد أصبح الشاي يقدم بدون سكر ، ويقدم السكر منفصلا لمن يرغبه ، فيضيفه بالمقدار الذي يراه ، وهذا تطور جديد أملاه تطور المجتمع . وقد ترى من يحضر إبريقين ، أحدهما قد حُلّي بالسكر ، والآخر «خامر» لم يحلّ بالسكر . وقد يقدم في الصينية الواحدة صفان من الفناجين ، صف محلى ، وصف لم يحلّ ، ويُنبّه مقدمه على المحلى منها وغير المحلى .

وهناك مزاحم آخر للشاي بدأ ينتشر الآن ، وهو النعناع ، وكثير من الناس يفضله ، ويرى فيه بديلا مناسباً . وطعمه المنعش ، ورائحته النفاذة ترجحه عند بعض الناس ، ومن ميزاته الكبرى أن مادته وطنية ، بل إنها في أغلب الأحيان بيتية ، تقطف أوراقه ندية « طازجة » من حديقة البيت ، ويختلف عن الشاهي في أنه لا ضرر من غليه ، بل إن بعض الناس يفضله مغلياً « للذعة » التي يجدها فيه . وهناك ميزة أخرى هي أنه ليس منبها وإنما هو أقرب إلى التهدئة منه إلى التنبيه ، وبعض الناس لا يرى



هذا ميزة فيه .

ولا أنسى أن أشير هنا ، يا بنيّ ، إلى أن الشاي هو ورق شجرة خاصة ، وهو في الأصل أخضر ، ولكنه مثل القهوة يحمص ، ويصبح الشاي المعتاد الذي نشربه دائما . ولكنه أحيانا يأتي أخضر ، ويسمى الشاي الأخضر ، وله أنصار ، وينصح بشرب الشاي الأخضر بعد الأكلات الدسمة لفاعليته في هضمها ، وقد يكون هذا الأمر وهما جري به العرف ، وقد يكون صحيحا ، ويحتاج البت في الأمر إلى تحليله ، والوصول إلى نتيجة علمية عنه .

والشاي مع الحليب شراب مرغوب فيه في بعض الأحيان ، وعند بعض الناس ، خاصة في الصباح ، ولعل هذا من تأثير الإنجليز أيام حكمهم للهند ، فالإنجليز يكادون لا يشربون الشاي إلا بالحليب . وفي أثناء الحرب ، وعندما شحّ السكر ، تعودوا على شربه بدون السكر ، فساعد الحليب على « قمع » حدة مرارته ، ثم تعودوا على ذلك ، وأصبح قليل منهم الآن يستعمل السكر ، لأنه قد اعتاد على تركه

في أيام الحرب العالمية الثانية ، ولثلا يضيف أيضاً وزناً إلى وزنه بسبب الطاقات الحرارية الموجودة في السّكر . والطاقات الحرارية الزائدة ، يا بني ، أصبحت هذه الأيام «ببيع» الناس ، أما في الماضي فلم يكونوا يعرفونها ، لأنها لم تكن تبرز لهم أو تهدّدهم . كانوا يأكلون قليلا ، وكانت الوجبات متباعدة ، والأصناف قليلة ، وكانت الحركة كثيرة ، فكان الجسم يحرق الطاقة أولا بأول ، فلا يبقى منها مترسّبا في الجسم شيء ، وعلى هذا لا يسمن الناس ، ولا يشكون من «الكوليسترول» الدهن في الأوردة ، ولا من الأملاح . وقد تكون شكواهم من سوء التغذية ، أو من جهلهم بأصولها أحيانا .

أما اليوم فالأمر مختلف - يا بني - فأنت وأنا وكثيرون نعاني من انفتاح الشهية ، وانطلاقها دون معيار أو ميزان . الوجبة «تطرد» الوجبة ، والأصناف متعددة ومغرية ، والعين ترى ، والأنف يشم ، والمعدة على أثرهما تتحرك ، وتبدأ «عصايرها» ترقزق وتطلب الأكل ، وتزيد منه ،



وتسارع إلى أكل الوجبة قبل أن تهضم سابقتها،
وهناك الأصناف التي تؤكل مقلية بالسمن أو
الزيت، والحلويات المغربية، وأنواع الرزّ الشهية.
وأنت في حقيقة الأمر لا ترى أكلاً لذيذاً إلا وتراه
يسمن، وكأن هناك قاعدة طردية تحكم هذا الباب.

وهناك، يا بني، الأكل بين الوجبات، وشرب
الشاي المتعدد المرات، وقد يغلب السكر على هذا
الشاي، ويطفئ على طعمه. ويردد محبوه مداعبة
«المؤمنون حلويون». والراحة والفراغ يذكر
بالشاي، و«بفرشة الشاي»، من كعكة أو
«ساندويش». وهكذا يرتفع الوزن، وتبدأ
الشكوى، وينسى الشاكون أن الاغراء كان أقوى
من مقاومتهم.

وتأتي بعد ذلك - يا بني - محاولة تخفيف الوزن،
فالثياب ضاقت، والركب شكّت، و«الكوليسترول»
ضرب جرس الانذار، والأملاح بدأت تطل
برأسها، ولا بد من اتخاذ خطوة، فيبدأ الجوع
المتعمد، واختصار الوجبات، وتصغيرها وانتقاء



مالا يسمّن ، ويمر «المخسّس» بفترة عصيبة يستعمل فيها كل ماله من مخزون العزيمة والإرادة ، ويستمر هذا المنوال شهرا أو شهرين ، ثم لا تلبث النتيجة الحسنة أن تتبين وتبتسم ، ويبدأ الميزان يبشر ، إلا أن صاحبنا لم يعد يطيق الصبر على جرّ العنان وشدّ الرسن . وفي أسبوع واحد يخرب ما أصلح ، وينقض ما غزل ، ويهدم ما بنى ، يتم ذلك بسرعة فائقة ، وشتان بين طلوع ونزول في هذا المجال .

نعود للشاي - يابني - لنقول إنه يكاد يكون العنصر الأول في النزعات البرية ، ولعل ما يعطيه ميزة إضافية في البرية أنه يغلى غالبا على نار الحطب ، وهي عند أصحاب «الخرمة» تختلف عن نار الغاز .

وهكذا كما رأيت - يابني - أن الشاي كان ولا يزال يحتل في حياة الناس مكانة لا يستهان بها وذلك على الرغم من أن فائدته محدودة ، وأن دوره مقصور على الإنعاش أو التنبيه والإدراك ، وتبادل

شربه في أصفى الأوقات .

والناس - يا بني - يدخل على حياتهم في معيشتهم أمور تستجد لم تكن معروفة لهم وذلك بسبب التطور وزيادة الاختلاط ، وسهولة الاتصال الذي تقدمت وسائله ، وقد تصبح هذه الأمور ملحة أو مفيدة . ولكن كانوا مستغنين عنها قبل أن يعرفوها . قد يكون التطور أحيانا عن طريق إتقان ما كانوا يعرفونه من قبل ، خاصة في أمور الطبخ وأنواع الشراب . ومكة شرفها الله كانت في الماضي ، ولا تزال ملتقى العناصر المتنوعة من البشر ، باختلاف طباعهم وعاداتهم ، ولهذا يتوافر فيها من أنواع الأكل ما لا يكاد يوجد في بلد واحد ، لذا أنت لا تمل الأكل فيها من كثرة أصنافه وتعدددها ، ومناسبة هذه الأنواع للظروف المختلفة . فالزيجات وحفلاتها لها ما يناسبها من الطعام ، وحفلات الختان كذلك . وأكل الشتاء قد يختلف عن أكل الصيف ، ولا تفاجأ ، إذا « اصطكت » السماء بالغيوم ، وبدأ المطر ينزل ، عندما تسمع من يقول : « اليوم يوم



المعدوس» فالعدس معروف على أنه يناسب هذا الجو . ويحسن الداعي صنعا في الصيف إذا دعا قوما بالليل ، فقدم لهم «السليق» . أما «السّلات» و«الندي» والرز «البخاري» فلها أوقاتها . هذا قليل من كثير ، وانك لتعجب كيف تجمعت كل هذه الأنواع .

والغريب - يابني - أن الحيوانات تبقى على فطرتها فتلزم طعامها الذي اعتادته ، ولا تفضل عليه غيره إلا إذا لم يتوافر . ولا عبرة بما يقال في القصص الخرافية ، اسمع هذه القصة التي تكشف لك كيف يستجلب فعل الحيوان ، إذا خرج عن هذه القاعدة ، الضحك :

إلتقى كركي وثعلب ، فدعا كل منهما الثاني إلى الغداء ، وعندما جاء الكركي إلى مقر الثعلب الذي يعرف عادة بمكره ، قاده هذا إلى صخرة ، وكان قد أعدّ «شربة» حساء للغداء ، فصّب «الشربة» على الصخرة ، وأخذ يلحق من أطرافها حتى أتى



عليها كلها ، ولم يستطع الكركي الذي ليس له لسان أن ينال شيئاً منها . لأن منقاره الطويل لا يسعفه بتناول شيء منها .

وفي اليوم التالي ، وحسب الاتفاق ، جاء الثعلب إلى مقر الكركي ، وكان هذا قد أعدّ لوزاً في قنينة ، فصار الكركي يدخل منقاره الطويل ، الذي كالملقاط ، ويأكل ، ولم يستطع الثعلب أن يدخل فمه ، وعاد بخفي حنين ، وهكذا كال له الكركي بمكياله نفسه .

ولو كانا من الناس لاحتالا على هذه المعضلة ، وقد يجدا فيها من اللذة ما يجعل كل واحد منهما يتبنى هذه الأكلة الجديدة بعد أن يوجد لها الأداة اللازمة للتغلب على طبيعتها التي تخالف طبيعته .

وهناك - يا بني - حيوانات شاذة وقد يكون سبب شذوذها هو في تعويد الإنسان لها أكل ما لم تعتد على أكله .

ومما يروى أنه كان في مدينة الرياض عائلة تقتني غزالا وقد اقتنته هذه العائلة وهو رضيع ، وقد علموه شرب الشاي ، فكان يسابقهم في شربه ، ولا يكاد يروي ظمأه من «إبريق» كامل . وكان يشرب فنجانه ، ثم يأتي إليهم ينازعهم فناجينهم ، فكانوا يجدون صعوبة في دفعه .

ولم تكن هذه المضايقة تزعجهم ، وقد تعود الغزال من جانبه أن يُعطى «حثل» الشاهي ، فكان يتطلع إليه بشوق متناه ، ويعدها جائزة مثلى ينتظر منحه إياها . وربما أوحى له طبيعته أن ما يأكله هو ورق نبات ، وأنه لا يختلف عما يأكله عادة من الطبيعة . وكان للخادم غرفة في آخر الحديقة ، ومن عادته عصر كل يوم أن يشرب الشاهي خارج غرفته ، وجاء الغزال في أحد الأيام ، ورأى إبريق الشاهي ، فدفع الغطاء ، وأدخل فمه في الإبريق ، وشرب الشاهي ، وتناول



«الحثل» وبعد أن انتهى ، وأراد أن يخرج رأسه ، لم يستطع ، لأنه من شدة ولعه ، واستطعامه لشرابه المفضل حشر الرأس حشراً ، ولما تبين له أنه لا يستطيع أن يخرج رأسه أربعه الظلام الذي خيم أمام عينيه ، فأخذ يدور على غير هدى ، وصار رأسه يضرب ما يقابله من جدار أو عمود نور في الحديقة ، وأصيب برعب شديد وأخذ يقفز دون هدى ، وجلب انتباه أصحاب البيت ، الذين جاءوا يركضون وهم بين ألم وضحك ، ألم لحالته ، وضحك من المأزق الذي أوقع نفسه فيه .

ولم يستطيعوا إخراج رأسه إلا بعد أن شذبوا الإبريق شذباً ، وهم في عراك معه لمحاولة تهدئته . وقفز الغزال قفزة رائعة عندما تخلص من هذا المأزق . ومع صعوبة ما حدث للغزال فإنه لم يقلع عن شرب الشاهي ولا عن محاولة امتصاص ما في



الأباريق ، فلقد زاد نهمه إلى شرب الشاهي ،
وأما تعليمه هذا الشراب فكان من البداية
أمراً مدهشاً .

وفي النهاية أود أن أفي لك - يا بني - بما وعدت به
من عودة لحديث القهوة ، وما قيل فيها من أشعار ،
وما مرّ بها وبصانعها وشاربها من محن ، وهي أمور
تدعو اليوم إلى الدهشة والاستغراب ، لقد غير
مرور الزمن نظرة الناس إلى القهوة ، فقبلوها بعد
أن رفضوها ، ولم يكن مرور الزمن وحده ليغير
نظرهم إليها ، بل ساهم معه في هذا التغير
اكتشاف حقيقتها بعد أن هدأت العاصفة ، التي
حجبت بغبارها ما لا يعرفه الناس عنها ، ويفحصونه
ويصلون إلى عمقه من شؤونها ، ولقد جاء - يا بني -
تغير الاتجاه نحوها حادا ، فبعد أن كانت تقام
الحرب على القهوة ومتعاطيها ، صارت رمز
الضيافة ، ودليل الإكرام والتبجيل .



يقول الجزيري ، في حوادث عام ١٩٦٩ هـ^(١) :

« في غرة شعبان المكرم ، ورد حكم شريف على يد شاوئش من باب السلطان يقضي بمنع المنكرات والمسكرات والمحرمات . . . ومنع استعمال القهوة ، والتجاهر بشرها ، وهدم كوانينها ، وكسر أوانيها ، وردع باعتها وذويها ، والتشديد في بيعها ، ومنعها إلى الغاية ، والتحريض على ذلك إلى النهاية ، وركب لذلك (سوباشاه) القاهرة ، وصاحبنا قراكر ، أحد أمراء الجاويشة بالديوان الشريف ، ومعه طائفة من العسكر يمشو (كذا) بركابه ، لمنع الباعة ، والتجسس على من عنده من القهوة التي أحلها الشارع ، إذ هي داخلية في عموم قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا

(١) هذا التاريخ يعني أن القهوة كانت موجودة في الجزيرة العربية في هذا الوقت .

أو لحم خنزير . . . ﴿ الآية (الأنعام: ١٤٥) فتقرر بذلك أن أصل كل مطعوم من نبات وغيره الحل ، إلا ما استثناه الشارع بالنص ، أو أدى إلى ضرر في بدن أو عقل . . .

وكان العس على الفحص ، وبيوتها ، وباعاتها ، شديداً جداً . وضربوا ، وأشهروا ، وهدموا البيوت ، وكسروا أوانيتها المحترمة الطاهرة التي هي مال لرجل مسلم ، يحصل بها وبثمنها الانتفاع^(١) .

ما جاء في هذا النص يدل على أن السلطة - ولا بد أن لديها فتوى - تقاوم القهوة ، وتحاول أن تحد من انتشارها ، وتشدد في ذلك ، في حين كان الجزيري ، وهو طالب علم يحللها ، بل لقد ذهب إلى حد تأليف كتاب في ذلك ، قال الجزيري :

«وقد ألفت في حلها (القهوة) مؤلفاً في بابها ، وسميته بـ «عمدة الصّفوة في حل

(١) الدرر الفرائد ١٠١٩/٢ .



القهوة»، وبينت فيه النص بالحل
الصريح . . . »^(١).

وفي ذلك الزمن كانت مثل هذه الكتب
تحل محل الصحف والمجلات ، معالجة
الأمر التي تطرأ في المجتمع ويختلف عليها
الناس ، فيدلي كل فريق برأيه ، ويبسطه مع
أدلة في كتاب قد يصغر أو يكبر ، تبعاً لما
يقتضيه الأمر ، وحسب توفر المعلومات
للكاتب ، وتبعاً لمقدرته على البسط والبيان .
ولقد خلف لنا أصحاب مثل هذه الكتب
حصيلة غنية أبانت ما كان لدى الناس آنذاك
من هموم ومشاكل ، وما كان يدور في
مجتمعاتهم من نقاش ، وأخذ ورد ، وربما
كان عنيفاً في بعض الأحيان .

أما ما قيل في القهوة من الشعر فهو كثير ،
وللجزيري قصيدة طويلة فيها مطلعها :

(١) الدرر الفرائد ١٠٢٢/١ ، ١/٢٩ .

أضواء أنس بدا يهدى لذي كرم
أم نار قهوة قشر في دجا الظلم^(١)

ويدل نصه على قهوة القشر، أو قشر القهوة،
على ما كان يشرب من عناصرها في زمانهم قبل أن
يصبح لبها هو المقصود بالشراب عند عامة الناس .

وللشيخ البكري الصديقي :

شربنا قهوة من قشر بنّ
تعين على العبادة للعباد
حكّت في كفّ أهل اللطف صرفا
زبادا ذائبا وسط الزبادى^(٢)

ويقول مامية الرومي في القهوة :

أنا المعشوقة السمر
وأجلى في الفناجين

(١) الدرر الفرائد ١٠٢٢/٢ .

(٢) الكشكول ١/٣٨ .



وعود الهند لي عطر
وذكرى شاع في العين^(١)
وقيل فيها أيضاً :

يقولون لي قهوة البن هل
تباح وتؤمن آفاتها
فقلت نعم هي مأمونة
وما الصعب إلا مضافاتها^(٢)

وبهذا ينتهي الجزء الخامس من كتاب «أي بني»
وبه تختتم السلسلة من هذا الكتاب
والحمد لله رب العالمين

(١) الكشكول ٣٠٠/١ .

(٢) الكشكول ٥١-٥٢ .



الفهارس

- * الفهارس ٣١٢
- * فهرس المواضيع (١) ٣١٣
- * فهرس الاعلام (٢) ٣١٧
- * فهرس الأماكن (٣) ٣٢٢
- * فهرس المراجع (٤) ٣٢٥



(١)

فهرس المواضيع

٦١	سيارات القشاشيه	٥	مقدمة
٦٤	الحمالون	٩	صور اختفت
٦٩	الأمير سلمان الفارسي حملاً	١٠	النفث في الماء
٧١	المركز	١٢	«الوقافة» المبتدعة
٧٢	غزوات الملك عبد العزيز	١٣	نظارة للبقرة
٧٤	الغزاة في زحفهم	١٤	البو
٧٨	الغزوات قبل الملك عبد العزيز	١٤	العودة إلى النفث في الماء
٧٩	غزوة وغنيمة	١٨	وافد يشرب ماء النفث
٨١	المناداة على المفقود	١٨	يأكل تمر النفث
٨٣	منادٍ محتال	٢٠	عداد الموتى
٨٥	أشعب والمناداة	٢١	العين وإصابتها
٨٦	تعاطف الجيران	٢٣	يصيب الحداة بالعين
٨٨	جار أبي دلف	٢٦	عائن يصيب مسافرين
٩٠	قول لابن عباس	٢٦	عائن يصيب ابنه
٩٢	قول لأنس بن مالك	٢٧	عائن يصيب نفسه
		٢٨	العين في خدمة الضيافة
٩٤	صور أخرى إختفت	٣٠	عائن في لندن
٩٥	القضاء والقضاة	٣١	يمص النوى دفعا للعين
٩٩	مستدين الجنيهات	٣٢	عائن يصيب ناقة البناجي
١٠٢	نزاع على أرض	٣٥	الكناسون في مكة
١٠٣	قاض يعظ الخصوم	٣٥	قوز النكاسة
١٠٦	قول في أهمية القاضي	٣٦	قول الجزيري في القوز
١٠٧	يحيى بن سعيد قاضيا	٣٧	عمر وأبو سفيان والكناسة
١٠٨	القاضي وكيع مع المتخاصمين	٤٠	رش الماء في مكة
١٠٩	القاضي إياس مع المتخاصمين	٤٢	مشعل المصابيح
١١٠	مجادلة عن الخمر	٤٣	الدجيرة
١١١	أهمية الفراسة للقاضي	٤٤	أمر الجن
١١٢	تطور القضاء	٤٥	قصة الجنى الافعى
١١٥	الأوقاف على القضاء	٥٢	الصحراء والجن
١١٦	قاضي القرى وقصته	٥٤	الجن في الغرب
١١٨	السكرة والمجرا	٥٥	خطف الجن لابنة مالك
١١٩	حياة أهل القرى	٥٨	العسة في مكة

١٩٤	ابن شبرمة ونوح بن دراج	١٢١	بدء القضاء في الإسلام
١٩٥	حياة الناس الأولى والقضاء	١٢٦	مكان القضاء
١٩٦	رجل يذهب للسجن وحده	١٢٧	قصة القاضي غوث والمرأة
١٩٧	المدخل على القاضي	١٢٧	صور من القضاء في أماكن متعددة
١٩٨	رجل يحاول رشوة عمر	١٣٣	صور من أجر القاضي
١٩٩	قاضي ابن هبيرة يرتشي	١٤١	يوم الجمعة إجازة
٢٠٠	قاضي يستشير زاهدا	١٤٣	إختيار القاضي
٢٠٢	صفات أخرى للقاضي	١٥٠	بساطة القضاء في العصور الأولى
٢٠٤	بعض حيل المتداعين	١٥١	قصة مروان بن الحسن
٢١١	مزيد المديني وبائعو الدواب	١٥٢	تطور القضاء بعد ذلك
٢١٤	■ الشاهي والقهوة	١٥٣	اختلاف الناس
٢١٨	قصة المدعو لشرب الشاي	١٥٦	تطور مؤهلات القاضي
٢١٩	القهوة والوافد الأمريكي	١٥٧	قصة شريح والمرأة
٢٢٠	الشاي في رمضان	١٥٨	قصة شريح والشاهد
٢٢١	دخول الشاي والقهوة	١٥٩	قصة إياس ووكيع بن أبي الأسود
٢٢٢	أهمية صنع القهوة	١٥٩	قصة إياس مع المراتين
٢٢٣	حل القهوة بعد تحريمها	١٦٠	قصة إياس مع الرجلين
٢٢٤	القهوة والسمر	١٦١	قصة إياس مع المودع المنكر
٢٢٥	صنع القهوة وادواتها	١٦٣	الصلص الذكي
٢٣١	دور فنجان القهوة	١٦٦	قصة إياس مع منكر آخر
٢٣٣	قصة صباب القهوة	١٦٨	قصة عن نباهة القاضي
٢٣٤	صغير يخدم بصنع القهوة	١٧٠	تواضع القاضي
٢٣٧	طلاب البعثة ودوار البحر	١٧٧	مواقف يتعرض لها القاضي
٢٤٦	مقابلة الصعوبات	١٧٨	شريح مع الأشعث بن قيس
٢٤٧	قصة سلم بن قتيبة والسيوف	١٨٢	شريح مع ابن عصفور
٢٤٩	قصة عزيز بن خاله	١٨٣	التسامح
٢٥٢	قصة مقاتل المليدا	١٨٥	المنصور والقاضي محمد بن عمران
٢٥٩	الصبر - تحسين الخط	١٨٧	قصة تبين اختلاف الفتوى
٢٦١	الصبر - قصة عن الملك عبد العزيز	١٨٨	قصة أخرى
٢٦٢	قصة أخرى عنه	١٨٩	قصة ثالثة
٢٦٤	بدوي يروي قصة معركة	١٩٠	عمر بن الخطاب وحسان
		١٩٢	شريح يفتي مخالفا فتواه



٢٩٢	مع الشاي ، وبلده . ومقدمه	٢٦٥	فنجان القهوة والتأثر
٢٩٥	طريقة صنعه	٢٦٦	قصة عراك الصغار
٢٩٦	النعناع	٢٧٠	صورة عن حياة البادية
٢٩٧	عودة للشاي	٢٧٣	قصة رحلة مهاجر
٣٠١	صورة عن مكة	٢٧٩	قصة معركة
٣٠٢	قصة الكركي والتعلب	٢٨٢	رجل ذهبت القهوة بعقله
٣٠٤	قصة الغزال الأليف	٢٨٥	مقارنة بين الهيل والقرنفل
٣٠٥	مرسوم تحريم القهوة	٢٨٦	القهوة وأنواعها وصنعها
٣٠٦	مؤلفات في القهوة	٢٨٨	قراءة الفنجان
٣٠١	شعر في القهوة	٢٩٢	أقهوة هي أو مشهاة



(۲)

فهرس الاعلام



(أ ل ف)

إبراهيم بن العباس القرشي : ١٣٠
ابن أبي أوفى : ١٢٦
ابن أبي ذؤيب : ٩٦
ابن أبي ليلى : ١٩٦
ابن إدريس : ١٤٣
ابن مجيرة : ١٣٩
ابن شبرمة : ١٩٤/١٧١/١٣٣
ابن شرف القيرواني : ١٧٢
ابن عبد البر : ١٢٢
ابن العداء : ١٩٩
ابن عصفور : ١٨٢
ابن عوف : ١٢٦
ابن مسعود : ١٨٨
ابن المختار : ١٢٩
ابن هبيرة : ١٩٩
أبو بكر بن حزم : ١٢٦
أبو بكر الصديق : ١٢٢/١٢١
أبو جعفر المنصور : ١٤٩/١٥٠/١٧٥
١٨٦/١٨٥/١٣٩
أبو حازم : ٩٢
أبو حنيفة النعمان بن ثابت : ٦٧/٦٩/١٤٥
أبو خزيمة : ١٤١/١٤٢
أبو ذر الغفاري : ١٥٥
أبو سفيان : ٣٧/٣٨/٣٩/٤٠/٤٩
أبو دلف : ٨٨/٨٩
أبو شيبة : ١٤٠
أبو عبدالله النباهي : ٣٢
أبو عثمان عمرو بن سالم : ١٢٨
أبو لهيعة : ١٣٩
أبو ليلى : ١٣٣
أبو موسى الأشعري : ١٢١/١٢٣/١٣٤
١٩٧

أبو هريرة : ٦٨/٦٩

أبو يوسف : ١٧٦

أحمد بن زياد اللخمي : ١٣٠

أرامكو : ٤١

اسماء بنت أبي بكر : ١٥٤

إسماعيل بن اسحق : ١١١

إسماعيل بن حماد : ١٧٧

أشعب : ٨٥

الاشعث بن قيس : ١٧٨/١٧٩/١٨٧

آل عثمان : ٢٢٣

الأمزي : ٤٥هـ

الأمويون : ٤٠/١٤١

الانصاري : ١٨٧

إياس بن معاذ : ١٠٩/١١٠/١٢٤/١٢٧

١٣٨/١٥٩/١٦٠/١٦١/١٦٤/١٦٥

١٦٦/١٦٧/١٦٨/١٨٧/١٩٦

(ب اء)

بشار بن برد المجاشعي : ٩٣

البكري الصديقي : ٣١٠

بنو الحارث : ٥٧

بنو العباس : ١٢٣/١٤١

(ت اء)

الباخرة تالودي : ٢٣٨

(ث اء)

ثمالة بن عبد الله بن أنس : ١٢٦

(ج اء)

جبريل : ٨٨هـ

الجزيري : ٣٦/٣٧/٣٠٨/٣٠٩

جويرية بن أسماء : ٣٧



(طاء)

الباخرة الطائف : ٢٣٨

طويرش : ٢٨٧/٢٧٦

(عين)

عائشة بنت أبي بكر : ١٥٦/١٥٥/١٥٢

عابس بن سعيد : ١٥٢/١٥١

عاد : ١٥٦

عافية بن يزيد الأودي : ١٥٦/١٢٥

عامر بن عبيدة الباهلي : ١٤٧

عباس بن ميمون : ١٢٩

عبد الرحمن بن أبي الزناد : ١٩٠

عبد الرحمن بن معاوية : ١٤٧

عبد السلام بن سعيد (سحنون) : ١٣٧

عبد العزيز الحسن العنبري : ١٦٩

الملك عبد العزيز آل سعود : ٧٢/٧٤/٧٧

٢٦٣/٢٦٢/٢٦١/٢٥٢

عبد العزيز بن مروان : ١٣٩

عبد الله بن بريدة : ١٢٧

عبد الله بن شبرمة : ١٢٤

عبد الله بن عباس : ٨٠/١٣٨/١٥٥

١٩١/١٩٠//١٥٦

عبد الله بن محمد الخفاف : ١٦٣

عبد الله بن مسعود : ١٨٨/١٥١/١٢٣

عبد الملك بن يعلي : ١٤٧

عبيد بن الأبرص : ٥٢/٥١/٥٠/٤٩/٤٥

عبيد الله بن العباس بن محمد : ١٥٠/١٤٩

عثمان البتي : ١٨٧

عثمان بن عفان : ١٤٤

عدي بن أرطاة : ١٢٤

عزيز بن خاله : ٢٥١/٢٥٠/٢٤٩

عطاء : ١٨٤

(حاء)

الحسن بن الحسن البصري : ١٢٣/

١٣٧/١٢٦

(راء)

الرسول ﷺ : ٩٠/٦/٤٠/٧٠/٨٨هـ/

٢٠٤/١٩١/١٨٩/١٣٤/١٢٢/١٢١

(زاي)

زرعة بن أيوب المعري : ١٣٧

الباخرة زمزم : ٢٣٨

زياد بن النصر الحارثي : ٥٥

(سين)

سالم : ١٨٧

سفيان : ١٣٤

سلمان بن ربيعة : ١٨٨

سلمان الفارسي : ٦٩/٧٠

سلم بن قتيبة الباهلي : ٢٤٧

سليمان بن أسود الغافقي : ١٤٣

سليمان الشاذكوني : ١٥٣/١٥٢

سليمان بن عبد الله الحميضي : ١١٢

سوار بن عبد الله بن قدامة العنبري :

١٤٠/١٢٤

(شين)

شريح (أبو أمية) : ١٢٣/١١٥/١١٤

١٨١/١٧٩/١٧٤/١٥٩/١٥٨/١٥٧

١٩٣/١٩٢/١٨٩/١٨٣/١٨٢

شريح بن معاوية الكندي : ١٢٦/١٢٤

١٤٩/١٣٨/١٢٩

شريك بن عبد الله النخعي : ١٢٤

الشعبي : ١٩٨/١٥٨/١٥٧



(ميم)

- المأمون : ١٠٦
مامية الرومي : ٣١٠
مبارز الدين الحسين بن علي بن برطاس :
٣٦
محارب بن دثار : ١٤٦/١٢٦
محمد بن بشير المعافري : ١٤٠/١٣١
٢٠٢/٢٠١
محمد بن الحسن الجذامي النباهي :
١٣٧/١٣٦
محمد بن عبدالله بن علاثة الكلابي : ١٢٥
الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ٨٠
محمد بن علي : ٩١
محمد بن عمران : ١٨٥
محمد بن مسور : ١٣١
محمد بن يبقى بن درب : ١٣٥
مروان بن الحسن : ١٠٦
مروان بن الحكم : ٦٨
مزيد المديني (ابو اسحق) : ٢١٢/٢١١
مسروق بن الاجدع : ١٢٤
المصعب بن عمران الهذلي : ١٣٦
المظفر : ٣٦
معاذ بن جبل : ١٢١
معاذ بن معاذ : ١٤٢
معاوية بن أبي سفيان : ١٨٥/١٢٣
معاوية بن صالح : ١٤٨/١٤٧/١٤٢
١٤٩
المهدي : ١٥٠

(نون)

- نصر بن ظريف البحصبي الأندلسي : ١٤٢
نوح بن دراج : ١٩٤

علي بن أبي طالب : ٦٨هـ/١٢١/١٢٢

٢٤٨/١٨٩

علي بن ظبيان : ١٧٢

عمر بن جلده : ١٩٦

عمر بن الخطاب : ٣٧/٣٨/٣٩/٤٩/٥٦

١٢١/١٢٢/١٢٣/١٢٤/١٣٥

١٤٤/١٧٤/١٨٥/١٩٠/١٩١/١٩٣

١٩٣هـ/١٩٧/١٩٨/١٩٩

عمر بن سليمان الكلابي : ١٦٩

عمر بن شراحيل : ١٤٢/١٤٧/١٤٨/١٤٩

عمر بن عبد العزيز : ١٠٩/١٢٦/١٣٧

١٥٦/١٥٧

القاضي عمرو بن عبدالله بن ليث (القبة):

١٣١

عمر بن مالك : ٥٥

عمر بن هيرة : ١٤٥

القاضي عياض : ١٢٤

القاضي عيسى : ١٢٩

(غين)

غوث بن سليمان : ١٢٧

(قاف)

القاسم : ١٨٧

قراكر : ٢٠٧

قريش : ١٥٤

(كاف)

كعب بن سوار : ١٠٣

(لام)

لبيد : ١٥٦



(ياء)

- الأمير يحيى : ١٣٦
يحيى بن أكثم : ٤٥
يحيى بن زيد النجيبى : ١٠٣
يحيى بن سعيد : ١٧٥/١٠٧
يحيى بن يعمر : ١٢٦/١٢٧/١٢٨
يزيد بن عبد الملك : ١٢٣
يوسف عليه السلام : ١٤٩/١٥٨

(هاء)

- هارون الرشيد : ٤٥/٤٩/١٤٣/١٤٤
الأمير هشام : ١٣٦
هنذ بنت عتبة : ٣٨/٣٩/١٥٦

(واو)

- وكيع بن الأسود : ١٥٩
وكيع بن سلمة بن زهير بن إيباد : ١٠٨/
١٤٣/١٤٤/١٥٤
الوليد بن يزيد : ١٢٣



(۳)

فهرس الأماكن



(ش)

الشمام : ١٢٤
المنطقة الشرقية : ٤١
الششه : ٧١

(ص)

الصين : ٢٩٥

(ع)

العراق : ١٢٤

(ق)

القاهرة : ٢٤٦/٢٣٨/٣٠٧
القشاشية : ٦١
قهوة عصمان : ٧١
قوز النكاسة : ٣٥

(ك)

الكوفة : ١٢٤/١٠٧

(ل)

لندن : ٣٠

(م)

مالقة : ١٣٦
مدرسة الحلواني : ٢٦٠
مدرسة تحضير البعثات : ٢٣٨
المدينة المنورة : ١٩٦/١٣٨/١٢٤
مسجد أبي عثمان : ١٣٢
المسقلة : ٧١
مصر : ٢٣٨/١٥١/١٢٤
المعهد العلمي السعودي : ٢٣٨

(أ)

جنوب آسيا : ٢٢١
جنوب شرقي آسيا : ٢٩٤
أفريقيا : ٢٢٤
أمريكا : ٢٢٣
الأندلس : ١٤٧

(ب)

باب الزيادة : ٢٦٠
البرازيل : ٢٢٢
بريطانيا : ٢٢٣
البصرة : ١٢٩/١٢٤
بغداد : ١٧٢/١٢٥/١٢٤/٨٨

(ج)

جدة : ٢٣٨/٣٦
الجزيرة : ٢٢٣/٢٢٢/٢٢١/١٢٤/٨٠
٢٩٤/٢٧٤

(ح)

الحجاز : ٢٣٥

(خ)

خراسان : ١٥٩

(ر)

الرصافة : ١٢٥
الرياض : ٣٠٤

(س)

السويس : ٢٤٦/٢٣٨
سيلان : ٢٢٤



(هـ)
الهند : ٢٢١/٢٢٤/٢٩٤/٢١١

مكة المكرمة : ٣٥/٣٦/٣٧/٣٨/٤٠/٤١/
٤٢/٤٤/٥٨/٦١/٦٢/٦٣/٦٤/٧١/
٧٧/١١٢/١٢٤/١٣٨/٢٩٢/٢٦٠/
٣٠١

(ي)
اليمامة : ١٢٥
اليمن : ٣٦/١٥٦/٢٢١/٢٢٤

(ن)
نجد : ٢٠٤/٢٣٥/٢٧٤/٢٨٤



(٤)

فهرس المرجع



- ١ - أخبار الظراف والمتاجنين
للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
تحقيق : عبد الأمير مهنا
دار الفكر - بيروت
الطبعة الأولى ١٩٩٠م
- ٢ - أخبار القضاة
لوكيع محمد بن خلف بن حيان
عالم الكتب - بيروت
- ٣ - بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذهن والهاجس
للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري
القرطبي
تحقيق : محمد مرسى الخولي
دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان
- ٤ - البيان والتبيين
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق : عبد السلام محمد هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى
- ٥ - تاريخ قضاة الأندلس
(كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)
لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي
ذخائر التراث العربي - المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت
- ٦ - ثمرات الأوراق
لتقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي
صححه وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم
الناشر : مكتبة الخانجي ١٩٧١م - الطبعة الأولى
- ٧ - الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة
لعبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الانصاري الجزيري
الحنبلي
أعده للنشر الشيخ حمد الجاسر - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
من منشورات دار البهامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

- ٨ - رسالة مع القضاة
للشيخ سليمان بن محمد بن عبد الله الحميضي
نشر الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
إدارة إحياء التراث الإسلامي - قطر ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م
- ٩ - كتاب العقد الفريد
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
شرح : أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري
الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م
- ١٠ - عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرئاسة
لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠١هـ / ١٩٨١م
- ١١ - القرآن الكريم
- ١٢ - قضاة قرطبة
لأبي عبد الله محمد بن الحارث الخشني
تحقيق : إبراهيم الأبياري
دار الكتاب المصري - الطبعة الثانية ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م
- ١٣ - قوانين الوزارة
للإمام أبي الحسن الماوردي
تحقيق : الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد والدكتور محمد سليمان داوود
مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية ١٤١١هـ / ١٩٩١م
- ١٤ - الكشكول
لبهاء الدين العاملي
تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي
دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه
- ١٥ - المحاسن والمساوىء
للشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت - ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م
- ١٦ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء
للراغب الاصبهاني
اختصار : إبراهيم زيدان
دار الآثار - بيروت

- ١٧ - مجالس ثعلب
لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب
شرح وتحقيق : عبد السلام محمد هارون
دار المعارف - الطبعة الخامسة
- ١٨ - المستطرف في كل فن مستظرف
لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبيشي
شرح وتحقيق : الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م
- ١٩ - معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)
أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين الحموي
دار إحياء التراث - بيروت - لبنان
- ٢٠ - المنتقى من أخبار الأصمعي
للقاضي أبي محمد عبد الله بن أحمد الربيعي
إنتقاء الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي
تحقيق : محمد مطيع الحافظ
الطبعة الأولى ١٩٨٧م - دار طلاس للدراسات
- ٢١ - كتاب النصيحة المعروف باسم «قابوسنامه»
تأليف الأمير عنصر المعالي كيكافوس بن اسكندر بن قابوس بن
وسمكير بن زيار
تعريب : محمد صادق نشأت ودكتور أمين عبد المجيد بدوي
الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م
مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة
- ٢٢ - نوادر القصص عند العرب
إعداد فؤاد قميحة
سلسلة النوادر والظراف
دار الفكر اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى
- ٢٣ - نهاية الأرب في فنون الأدب
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م